قبس من عطاء المخطوط المغربي

محمد المنوني

المجلد الثالث

مجموعة دراسات تتصل بجملة من المخطوطات المغربية عامة وخاصة: تعريفاً بها، وسرداً لعيونها، وتحقيقاً لصغير نصوصها، واستخراجاً لطائفة من مكنوناتها، مما تناثر من هذا الصنف بين دوريات مغاربية ومشرقية، أو ينشر - هنا - للمرة الأولى.

دار الغرب الإسلامي

© 1999 دار الغرب الإسلامي

الطبعة الأولى

دار الغرب الإسلامي
ص. ب. 5787-113 بيروت
جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار الكتاب أو تخزينه في نطاق إستعادة المعلومات أو نقله بأي شكل كان أو بواسطة وسائل إلكترونية أو كهروستاتية ، أو أشرطة ممغنطة ، أو وسائل ميكانيكية، أو الاستنساخ الفوتوغرافي، أو التسجيل وغيره دون إذن خطي من الناشر.

الباب السادس

تحقيق أو شبه تحقيق لنصوص صغرى

فصلة تصف الدراسة بالقرويين
أيام المنصور السعدي

تقديم وتحقيق

هذه الفصلة التي نقدمها كانت دفينة داخل الرسالة الآتية الذكر، والتي كتبها مؤلفها في موضوع يرجع إلى إحدى نوازل الأحوال الشخصية، وقد أيد بها وجهة نظره في حكم أصدره بتأييد التحريم للزواج في قضية بنت تزوجها مختطفها، كما نقض فيها الفتوى الصادرة ضد هذا الحكم عن مفت معاصر يسمى نفسه: «عبد الله أجليان الزجلي»، ولهذا جاءت الرسالة تحمل العنوان التالي: «تنبيه الصغير من الولدان، على ما وقع في مسألة الهارب مع الهاربة من الهذيان، لمدعي استحقاق الفتوى آجليان».

وهو يرتب هذه الرسالة على مبحثين، ويصنف المبحث الأول في خمسة فصول، كما يصنف المبحث الثاني في فصلين اثنين. ولما كان المفتي آجليان نفى في فتواه عن هذا المؤلف أن يكون درس على الشيخين: قاضي فاس عبد الواحد الحميدي، ومفتيها يحيى السراج، فإن هذا يخصص الفصل الأول من المبحث الثاني لذكر دراسته في فاس وأساتذته بها، بما فيهم الشيخان الحميدي والسراج.

وهذا الفصل هو الذي نهتم بنشره، كفصلة مستخرجة من هذه الرسالة، وهو يعني بوصف الدراسة بالقرويين أيام المنصور السعدي، وسيؤخذ عنوان القرويين هنا بما يشمل الجامع نفسه مع بعض المدارس والمساجد الملحقة به.

أما مؤلف الرسالة نفسها فهو: أبو سالم إبراهيم بن عبد الرحمن بن عيسى

ابن إبراهيم الشهير بالكلالي بالكاف المعقودة[1]، وهو مزياتي الأصل[2]، من قبيل مزياتة[3]/ / الواقعة غرب قبيلة بني زروال، شمال مدينة فاس، أما نشأته فكانت بقبيلة بني وریاكل بالكاف المعقودة أيضاً[4]، وهي تقع شرق قبيلة بني زروا شمـال مدينة فاس أيضاً، وتتبع الآن قيادة تفرانت من عمالة فاس.

وقد كان والد المؤلف أبو زيد عبد الرحمن فقيهاً حافظاً، واختص بشيخه أبي مالك عبد الواحد الونشريسي، وكان يقـرئ أولاده بدار أستاذه هذا، ولذلك تمكن من الاطلاع على آثاره العلمية، وقد جمع أنظامه في نظائر المذهب المالكي والتقطها من كنانيشه، وكانت وفاته سنة 1001 هـ[5] / 92 ـ 1593 م.

وهو ـ أيضاً ـ الذي جمع تعاليق والد شيخه المذكور أبي العباس أحمد بـ يحيـى الونشريسي على الوثائق الفشتالية التي تسمى: «غنية المعاصر والتالي، في شرح وثائق القاضي أبي عبد الله الفشتالي»، وقد نقلها من خطه على نسخته من هذ الوثائق، ووقع التصريح بهذا كله آخر نسخة من هذه التعاليق محفوظة بالخزا العامة بالرباط تحت رقم ج 244.

كما أن عم المؤلف أبا عمران موسى تصفه هذه الفصلة[6] التي نقدم بالفقيه الأستاذ المجود الحافظ اللافظ، وتذكر أن الشيخ أبا العباس أحمد بن عل الزموري آتي الذكر كان يقرأ عليه في صغره.

وقد جاء المؤلف من بني وریاكل للحضرة الفاسية بقصد الدراسة في شـ

---

(1) هذا التحديد لشكل الكاف في «صفوة من انتشر» ص 123.

(2) هذا ورد في افتتاحية الرسالة الآتية المعنونة بـ «المسألة الشهية الأمليسية...».

(3) وردت هذه القبيلة في «العبر» ج 6 ص 152 ط. مصر سنة 1284 هـ، وهو يرسمها مزوا بالواو، ويذكرها في عداد بطون صنهاجة.

(4) وبالكاف يرسمها في «العبر» ج 6 ص 206 حيث يصنفها ضمن قبائل صنهاجة البز الذ يذكر أن لغتهم ـ في الأكثر ـ عربية، وهذه غير بني وریاغل بالغين من قبائل الريف، وه من بطون مكلاثة الذين يرجعون إلى مغراوة حسب تصحيح «العبر» ج 6، ص 114.

(5) أورده المنجور في فهرسته «نسخة خاصة»، وترجمه في «نشر المثاني» ج 1 ص 22 ط. ف وورد ذكره ـ أيضاً ـ في نوازل الزياتي.

(6) ص 15.

ربيع الأول من عام 994 هـ/ 1586 م، وكان يصحبه شقيقه أبو العباس أحمد حيث سكنا ـ معاً ـ في بيت بالمدرسة المصباحية، وكان المؤلف ـ إذ ذاك ـ لا يزال في سن المراهقة[1]، وعلى هذا يكون مولده عام 980 هـ/ 72 ـ 1573 م، أو قبيلها.

وبعد عام 996 هـ/ 87 ـ 1588 م، استوطن الأخوان بجميع أهلهما مدينة فاس[2].

ثم صار المؤلف عدلا بسماط القرويين من عام 1001 هـ/ 92 ـ 1593 م[3] إلى عام 1016 هـ/ 1607 ـ 1608 م.

وابتداء من عام 1014 هـ/ 05 ـ 1606 م نجده قاضياً بجبل بني ورياكل ونواحيه[4] وأخيراً يعود للسكنى بمدينة فاس حيث كانت وفاته بها آخر جمادى الأخيرة عام 1047 هـ[5]/ / / 1637 م، ومدفنه بها غير معروف حيث أورده في «سلوة الأنفاس» ضمن التراجم المجهولة المدفن.

أما دراسته العلمية بفاس وأساتذته بها، فهو ما سنقرؤه في هذه الفصلة التي نقدمها، وإنما نسجل هنا بعض التحليات التي وصف بها هذا المؤلف، ومنها تتضح مكانته العلمية والاجتماعية، فقد خاطبه أبو العباس المقري مؤلف النفح وغيره هكذا:

«وعلى سيدنا القاضي الذي ورث العلا لا عن كلالة، وحاز قصب السبق في ميدان الجلالة، الفقيه القدوة الذي عدم نظيره في هذا الزمان، النبيه الحجة الذي انتظمت محاسنه بلبة الدهر نظم الجمان، وصح وثبت بعلمه وورعه، الخطاب باستقلاله»[6].

---

(1) الفصلة التي نقدمها ص 11.
(2) نفس المصدر ص 22.
(3) رسالة «تنبيه الصغير من الولدان...» ص 26 من النسخة التي سنتحدث عنها.
(4) هذا يوجد بخط محمد بن محمد بن العربي الزعري في بعض مقيداته.
(5) «سلوة الأنفاس» ج 3 ص 256.
(6) هذا وارد في بعض المجامع الخاصة.

كما وصفه الفقيه المالكي محمد ميارة[1] بأنه آخر الفقهاء وقضاة العدل، وورد ذكره في «الفهرسة الكبرى»[2] لمحمد بن سعيد المرغيتي محلياً له بشيخنا المحقق العلامة.

توجد ترجمته في: «صفوة من انتشر»[3] و«نشر المثاني»[4] و«سلوة الأنفاس»[5]، أما آثاره العلمية فالمعروف منها هو:

أ ــ «فتاوى كثيرة» أثبتها أبو فارس عبد العزيز الزياتي في نوازله: «الجواهر المختارة، مما وقفت عليه من النوازل بجبال غمارة»[6].

ب ــ رسالة سماها: «المسألة الشهية الأمليسية، في الأنكحة المنعقدة على عادة البلد الإغريسية»، وقد صدر هذه الرسالة بإثبات نصوص أجوبة المخالفين له في وجهة نظره، وهم الفقهاء: محمد بن أحمد المصمودي ـ عيسى بن أحمد بن أحمد الچلميمي ـ الصغير بن عبد الجبار الفركلي الذي كتب في إمضائه: محمد بن عبد الجبار العاصمي، وبعد هذا يبتدىء تعقيب المؤلف الكلالي الذي تناول النازلة في فصلين: الأول في بيان حكمها الشرعي، والثاني في تتبع كلام المتكلمين فيها، وحسب آخر الرسالة ـ فقد كتبها بتاريخ أوائل ربيع الثاني عام 1044 هـ/ 1634 م بجبل بني وریاكل.

توجد منها ثلاث نسخ: الأولى بالمكتبة الملكية بالرباط تحت رقم 7423، والثانية بمكتبة الزاوية الحمزاوية بإقليم تافيلالت ضمن مجموع يحمل رقم 169. والثالثة بالخزانة العامة بالرباط رقم د 2577، وهي تقع ضمن مجموع من ص 134 إلى ص 195 في حجم صغير، وتبتدىء بجواب المصمودي ص 134 ـ

(1) «الإتقان والأحكام في شرح تحفة الحكام» ط. ف. ج 1 ص 254.
(2) نسخة «مكتبة الزاوية الحمزية» رقم 251 وهي تحمل الاسم التالي: «فهرسة العوائد المزرية بالموائد».
(3) ص 123.
(4) ج 1 ص 173 ـ 175، ط. ف.
(5) ج 3 ص 256.
(6) لا تزال هذه النوازل مخطوطة، ومنها نسخ في خزائن عامة وخاصة.

143، ثم جواب الجلميمي ص 143 ـ 145، ثم جواب الفركلي ص 146 ـ 147، وأثره يأتي تعقيب الكلالي ص 147 ـ 195.

وقد اقتبس من هذه الرسالة كل من المؤلفين محمد بن أحمد ميارة ومحمد التاوردي ابن سودة في شرحيهما على العاصمية أوائل باب النكاح.

ج ـ «تقاييد تاريخية» أثبت بعضها القادري في ترجمة المؤلف من «نشر المثاني»[1]، كما نشر بعضها في ذيل «مناهل الصفا، في أخبار الملوك الشرفا»: مختصر الجزء الثاني[2].

د ـ «تنبيه الصغير من الولدان، على ما وقع في مسألة الهارب مع الهاربة من الهذيان، لمدعي استحقاق الفتوى آجليان»، وهي الرسالة المستخرجة منها هذه الفصلة التي تقدم للنشر، ومنها نسخة وحيدة بالخزانة العامة بالرباط، أول مجموع يحمل رقم ك 571، من ص 1 إلى ص 30، مسطرة 32، مقياس 310/215.

مكتوبة بخط مغربي جميل مدموج به تلوين، مع إلحاقات بالهوامش تدل على عناية بالنسخ، ومع هذا فقد تسرب إلى الكتابة شيء من التصحيف، وكان الفراغ من انتساخها أواخر رجب عام 1098 هـ/ 1687 م.

* * *

أما الفصلة المعنية بالأمر فهي تشغل من هذه الرسالة من ص 15 إلى ص 22، وهي بمثابة فهرسة لأبي سالم الكلالي أودعها وسط هذا المؤلف.

وقد تحدث فيها عن أساتذته بفاس، ووصف دروسهم وأوقاتها، وذكر الكتب التي كانوا يدرسونها وعاداتهم في الدراسة، واهتم بتعيين الأحياء التي تقع بها مساكن عدد من أساتذته بفاس، كما ذكر ـ أيضاً ـ زمراً من الطلبة الذين رافقوه في مختلف الدروس، وعين أسماءهم وحلاهم ومساكن كثير منهم بالمدارس الثلاث: الحلفاويين والعطارين والمصباحية، وبغيرها.

---

(1) ج 1 ص 173 ـ 175، ط. ف.

(2) ص 258 ـ 261، تحقيق الأستاذ الكبير عبد الله كنون.

وأهم من هذا كله أنه يقدم لائحة بثلاثة عشر من كراسي الأساتذة بجامعي القرويين والأندلس وغيرهما، ويعتنى بتسمية كتب كثير من هذه الكراسي التي يعين أماكنها بالمعاهد التي توجد بها، كما يحدد ـ أيضاً ـ مواضع الدروس الأخرى التي تلقى بدون كرسي.

وإن لائحة هذه الكراسي مما انفردت به هذه الفصلة عن أكثر الفهارس المغربية المعروفة، وهنا تكمن فيها أهمية خاصة.

وهكذا تقدم لنا هذه القطعة معلومات ثمينة لا نكاد نعثر عليها في أي مصدر آخر. وهذا ما حفزني لأن أقوم بنشر هذه الفصلة.

* * *

وقد اعتمدت في النشر على النص الموجود ضمن النسخة الوحيدة السالفة الذكر، وبحثت عن نسخة أخرى فلم أوفق للعثور عليها، وهناك مقتبسات أخذها القادري في «نشر المثاني» ـ بالخصوص ـ من هذه الفصلة، وأثبتها في تراجم أحمد ابن علي الزموري، وعبد الواحد الحميدي، وأبي القاسم ابن سودة، ويحيى السراج الأصفر.

وقد قارنت هذه المقتبسات بالنص الوحيد الذي اعتمده، فتبين أن القادري لا يهتم ـ دائماً ـ بحرفية النص، وإنما يختصر في بعض الأحيان أو ينقل بالمعنى، ومع هذا فقد استفدت من بعض الفقرات الواردة في هذا المصدر، وأثبتت الفوارق في التعاليق.

كذلك اقتبس أبو الربيع سليمان الحوات في «الروضة المقصودة» من هذه القطعة في ترجمة أبي القاسم ابن سودة، ولكني لم أفد منها إلا قليلاً.

واعتنيت في التعاليق ـ جهد الإمكان ـ بتوضيح النقط الغامضة في النص: تراجم وغيرها، وهناك مواضع تركت التعليق عليها لوضوحها، كما أن هناك أسماء لم أقف على تراجم أصحابها الذين قد يكونون من التراجم المنسية ولو بالنسبة لبعضهم.

وقد تتبعت في التعليق على الأعلام، أسماء المصدر أو المصادر التي وصلت إليها، أما إذا كان المعنى بالأمر مترجماً في «سلوة الأنفاس» فإني أكتفي بهذا المصدر، حيث إنه ـ في الغالب ـ يذيل الترجمة بأسماء المراجع الأخرى، وكذلك الشأن في المترجمين في «الإعلام، بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام».

وإذا كان المرجع مخطوطاً فإني أذكر مكانه ورقمه في الخزائن المنظمة، ولا أذكر في المراجع المطبوعة اسم المطبعة وتوابع ذلك إلا إذا كان هذا المصدر تعدد طبعه، والله ـ سبحانه ـ ولي التوفيق.

نـص الفصـلـة

«[15]. . . وذلك أني قدمت من بني ورياكل[1] مع أخي وشقيقي سيدي أحمد للحضرة الفاسية بقصد القراءة والتعليم في شهر ربيع الأول من عام أربعة وتسعين وتسعمائة، واستوطنت معه بيتاً في المدرسة المصباحية وأنا في سن المراهقة في الوقت المذكور، وكنت حفظت القرآن العظيم وألفية ابن مالك والكراريس[2] ببادیتي، وكنت في ذلك الوقت رسالة الشيخ[3]، فأدركت حينئذ جماعة من شيوخ فاس أذكرهم على حسب ترتيب وفياتهم لا على حسب أسنانهم.

فمن جملتهم رئيس المحققين في وقته، وآخر المصنفين، الفقيه، المشارك المعقولي، الأصولي، الإمام، العلامة. أبو العباس سيدي أحمد بن علي المنجور الفاسي[4] رحمه الله تعالى، قرأ رحمه الله أحباسه شتوة ذلك العام[5]، وكان أصحابه يأتون به بين أيديهم: أحد الآخذين بيده الداخل تحت منكبه الفقيه النجيب الأريب صهره أبو الحسن سيدي علي بولعراب[6]، والآخر الذي كان يقابله لم

---

(1) انظر المقدمة ص 1126 ـ 1127.

(2) يستفاد من «مرآة المحاسن» ص 148: أن الكراريس ـ عرفاً ـ هي ما يتعلق برسم القرآن الكريم وضبطه وأدائه من الأراجيز.

(3) كذا في النسخة الوحيدة التي نعتمدها، ولعل أصل التعبير: وكنت حفظت في ذلك الوقت رسالة الشيخ: «الرسالة القيروانية».

(4) ترجمته في «سلوة الأنفاس» ج 3 ص 60 ـ 62.

(5) يوضح هذا ما في «مرآة المحاسن» ص 235: «وكانت القراءة على العادة في المغرب الأقصى في فصل الشتاء وأول فصل الربيع»، وهذا إنما يعني تدريس الدروس الوقفية.

(6) اسمه هكذا: علي بن محمد بن أبي العرب السفياني، له ترجمة في «درة الحجال» الرباط. =

أتحققه الآن، وكان ـ رحمه الله ـ يقرئ التفسير على الكرسي الكائن عن يسار الداخل من الباب المقابل لباب القرافين[1] من جامع القرويين شرفها الله بدوام ذكره، وهي الباب القريبة للمنار، وكان ـ رحمه الله ـ لا يجلس للسماع بحلقته في ذلك إلا القليل من الطلبة والعامة، وكان ضعف صوته، ومن عادته الاشتغال بتحقيق النقل وتدقيق معانيه وتنقيحه، ونفوس العامة تنافر من ذلك، وأما طلبة الوقت فكان أحاط بهم أصحاب الخطط والولايات: كقاضي الوقت ومفتيه، وشاهدته ـ رحمه الله ـ يقرئ على الكرسي المذكور ما ذكرنا مشاهدة مرور بقربه، لا مشاهدة جلوس بمجلسه، وكان ـ أيضاً رحمه الله ـ يقرأ صبيحة يوم الخميس ويوم الجمعة قصيدة ابن زكري في التوحيد[2] على الكرسي عن يمين الطالع للمستودع الكائن عن يمين الداخل من باب الحفاة لجامع القرويين أيضاً، حضرت مجلسه فيه [16] يوماً واحداً وهو يقرأ مسألة إيمان المقلد، وحفظت من لفظه ذلك اليوم:

مذهب مالك حكى ابن القصار وجوبه والجمع عندي المختار

في أثناء تقريره لمعنى البيت المذكور، وكان قارىء الدولة المذكورة الفقيه سيدي علي بولعراب.

(وكانت جماعة من الطلبة المعتبرين بمجلسه المذكور في ذلك اليوم، من جملتهم شيخنا وبركتنا سيدي يوسف السبع القصري، وشيخنا سيدي الحسن

= رقم 1283، وورد ذكره ضمن أشياخ مؤلف «مرآة المحاسن» ص 164.

(1) الباب المقابل: هو باب الموثقين الواقع أول سماط مقصورة القرويين، وعبارة «زهرة الأس» لدى تعداد أبواب هذا الجامع ـ حسب مخطوطة دار الكتب المصرية: «وباب الموثقين المقابل لتربيعة القراقين».

وهكذا يتبين أن الفقرة التي نعلق عليها تشير إلى باب تربيعة القراقين المقابل لباب الموثقين، كما يتبين أن القراقين بقافين اثنين، وما في الأصل من إبدال القاف الثانية فاء مجرد تصحيف.

(2) هي المعروفة بمحصل المقاصد، وقد شرحها المنجور هذا بشرحين: كبير سماه: «نظم الفرائد، ومبدي الفوائد في شرح محصل المقاصد»، ثم اختصره في شرح صغير، ومن هذا الأخير نسخة في المكتبة الملكية بالرباط تحمل رقم 4447، وهي تقع في مجلد من حجم يميل للصغر.

الزياتي[1]، والفقيه سيدي يوسف السريفي المستوطن بمسيد الكتبيين، وشيخنا وبركتنا سيدي عبد الرحمن أعراب المكناسي[2]، ومن جملة ما وقع له مع الشيخ المذكور في ذلك: أنه أراد سؤال الشيخ المذكور وهو في أثناء تقريره وتعبيره، فأشار له الشيخ بيده اليمين أن أصبر، فسكت حتى فرغ الشيخ من مراده فبحثه عن سؤاله فسكت ولم يسأله، فلا أدري سكت هيبة من الشيخ، أو أنه سمع ما كفاه في أثناء تقرير الشيخ وهو الظاهر.

وكانت صفة جلوسه على الكرسي مخالفة لجلوس غيره من الفقهاء، وذلك أنه كان يجلس على محل الجلوس منه، ويضع رجلاه على درجة الكرسي كجلوس الإمام على المنبر، ولا أدري هل تلك عادته أو أن ذلك لضرر به، وكان الطرف المحنك به من عمامته الكائن تحت ذقنه يقربه من فمه، وكان بين المغرب والعشاء يقرىء صحيح مسلم على الكرسي القريب من باب الكتبيين من الجامع المذكور، ولم أحضر عنده، وإنما شاهدته جالساً عليه فقط للإقراء، وكان له كرسي يقرىء عليه بعد صلاة الظهر أسفل السبع الكائن عن يسار الداخل من مسجد الجنائز للجامع المذكور[3] ولكن لم أره عليه وإنما حققته بالخبر فقط، وكانت عادة

---

(1) ترجمته في «درة الحجال» رقم 373، و «روضة الآس» ص 345 ـ 346 و «مرآة المحاسن» ص 164 ـ 167، و «نشر المثاني» ج 1 ص 125 ـ 126.

(2) ترجمته في «درة الحجال» رقم 1013، و «نشر المثاني» ج 1 ص 31، و «إتحاف أعلام الناس» ج 5 ص 279.

ويوجد بخطه السفر الأول ـ إلى آخر الحج ـ من «التوضيح» على مختصر ابن الحاجب الفقهي، تأليف ش خليل بن إسحاق المالكي، فرغ من انتساخه ـ لنفسه ـ لسبع بقين من ذي الحجة عام 999 هـ، وخطه حسن مجوهر سريع قليلاً، به تلوين، ويؤلف هذا السفر الثلث الأول من نسخة تامة ملفقة من ثلاثة أسفار، وهي تحمل بالمكتبة الملكية بالرباط رقم 7324، وقد جاء اسم المذكور آخر هذا المنتسخ هكذا:

«عبد الرحمن بن قاسم بن محمد أعراب الزيادي ثم المكناسي».

(3) يقصد بالسبع زاوية الحزابين الواقعة يمنة الصف الأول من جامع القرويين، وفي مقابلة زاوية أبي سالم المريني التي صارت تسمى بالخلوة، وقد تحدث عن هذه الزاوية الأولى في «جذوة الاقتباس» ص 47، وذكرها هكذا:

«وأما زاوية الحزابين الكائنة بغرب الجامع، فالذي أحدثها هو الإمام أبو محمد عبد=

جلوسه في غير الأقرأ داخل باب الصفر الخارجة لعقبة السبطريين[1]، كان يجتمع هناك مع أصحابه لقربها من باب داره، وهذا غاية ما تحققت من خبره وصفته، ثم توفي ـ رحمه الله ـ ليلة الاثنين سادس عشر ذي القعدة الحرام، عام خمسة وتسعين وتسعمائة، ودفن ـ رحمه الله ـ خارج باب الفتوح تحت روضة سيدي رضوان نفعنا الله بهما، وحضرت جنازته.

(وكنت في ذلك اليوم ملازماً لمجلس شيخنا سيدي محمد الشريف المري التلمساني[2] في رسالة الشيخ بالكرسي الكائن بظهر الخصة من الجامع المذكور بعد صلاة الصبح كل يوم، وكان من الطلبة الملازمين للمجلس المذكور إذ ذاك: شيخنا وبركتنا الفقيه، النحوي، العروضي، الأديب، أبو علي سيدي الحسن بن مهدي الزياتي، وكان مأواه حينئذ بمدرسة الحلفاويين، وأخونا الفقيه أبو الحجاج سيدي يوسف بن محمد الشريف الوزروالي، والفقيه أبو عبد الله سيدي محمد البطيوي مخشان الشفشاوني[3]، والفقيه أبو عبد الله سيدي محمد البطيوي، وكلهم

= الله بن محمد الشريف الحسني «السعدي»: أحدثها بعد السبعين وتسعمائة، وأعدلها جرايات على ذلك نفعه الله بقصده، وعين أن يقرأ بها ختمة في كل شهر على علادة المحراب، وسورة الكهف في كل يوم جمعة بعد صلاة العصر، وعدداً من الصلاة على النبي ﷺ أثر القراءة في كل يوم، وعدداً آخر بين العشاءين في ليلة الاثنين والجمعة».

وقد نقلت هذه الأحزاب لركن آخر من الجامع، وصارت الزاوية تسمى بمصرية المفتي.

(1) هي المقابلة لدكاكين الكتبيين سابقاً.

(2) ترجمته في «سلوة الأنفاس» ج 3 ص 286، وفي «ابتهاج القلوب» ونقله في «نشر المثاني» ج 1 ص 105: أن هذا نسخ للشيخ أبي المحاسن الفاسي نسختي البخاري ومسلم، وحسب «المرآة» ص 49 و 50: فقد كتبت النسخة الأولى من أصل ابن سعادة، والثانية من أصل ابن خير، ومن حسن الحظ أن النسختين ـ معاً ـ لا تزالان بقيد الوجود، فقد صارت نسخة البخاري لعائلة ابن سليمان الغرناطيين بفاس، وهي الآن بيد السفير المغربي السيد الحاج الفاطمي ابن سليمان الذي ساعد الخزانة العامة بالرباط على أخذ مصورة منها. أما نسخة مسلم فقد صارت لمكتبة الجامع الكبير بمكناس، وتحمل ـ بين مخطوطاتها ـ رقم 15، ولكل من النسختين فروع.

(3) ترجمته في «صفوة من انتشر» ص 152، وورد ذكره في مجلة «دعوة الحق» العدد الأول ـ=

كان مأواهم بالمدرسة المذكورة مع جماعة غيرهم ممن لا معرفة لنا به إذ ذاك ولا اليوم، وكان ـ أيضاً ـ من الملازمين للمجلس المذكور الأستاذ أبو عبد الله سيدي محمد الشريف الجراي[1] القصري المستوطن بمدرسة العطارين، وكان من طلبة مدرسة سيدي مصباح ملازماً هناك: الأستاذ، المحقق، سيدي أبو القاسم الفلالي، والأستاذ المشارك سيدي أحمد الفركلي، وجماعة من الطلبة المعتبرين من أهل فاس، ومن جملة الحاضرين الطالب سيدي عبد العزيز الزمراني[2]، وكان يحضر الإمام القلشاني، وكان الشيخ لا ينظره وإنما كان يلتزم سيدي يوسف وابن ناجي باللفظ، فإذا أورد عليه كلام القلشاني يقول له: ما لنا وللقلشاني، وكان إذا فرغ من الرسالة ينزل للأرض يقرأ صغرى الشيخ السنوسي: من الطلبة من ينصرف ومنهم من يجلس، وكان يحضرها الفقيه الحسيب الفهامة أبو حفص سيدي عمر بن عبد العزيز الخطاب[3]، وكان كثير البحث مع الشيخ المذكور حتى يقع ملل الطلبة من ذلك، وفي بعض الأوقات كان يقرأ ألفية ابن مالك ملتزماً لسيدي المكودي، وفي بعض الأوقات يقرأ كبرى الشيخ السنوسي، كل ذلك على اختلاف أغراض الطالبين للشيخ المذكور فيما يتبرع بقراءته بعد الفراغ من حبسه، وكان شيخنا سيدي يحيى السراج حينئذ يقرأ التفسير على الكرسي الكائن عن يمين الداخل من باب عقبة السبطريين للقرويين[4]، وبعد نزوله عن الكرسي المذكور ـ صباحاً ـ

= السنة السادسة، ص 32 أثناء مقال للأستاذ الثبت سعيد أعراب.

ويوجد بخطه السفر الثاني من نسخة التوضيح الآنفة الذكر في التعليق رقم 3 ص 1136، فرغ من كتابته ـ لنفسه ـ في 15 جمادى الآخرة عام 999 هـ، وخطه حسن مجوهر واضح ملون، وهو يسمى نفسه: محمد بن محمد مخشان.

(1) هكذا في النسخة الوحيدة من هذا الأصل.

(2) هناك ترجمة لعبد العزيز الزمراني في كل من «صفوة من انتشر» ص 122، و «نشر المثاني ج 1 ص 235.

(3) ترجمته في «درة الحجال» رقم 1186، و «نشر المثاني» ج 1 ص 24، و «إتحاف أعلام الناس» ج 5 ص 495، وفي هذا المصدر الأخير ترجم قبيل هذا ـ ج 5 ص 494 ـ 495 ـ للشيخ الشهير أبي حفص عمر الخطاب نزيل جبل زرهون ودفينه بمدشر القلعة، وهو بهذا يوضح أن هذا الثاني غير الأول المذكور في هذه الفصلة.

(4) انظر التعليق رقم 1، ص 1135 أعلاه.

ينصرف إلى السارية القريبة لمقصورة فتياه، فيجلس هناك مستدبراً لحائط القبلة، وباقي أوصافه نذكرها بعد هذا إن شاء الله.

وكان ذلك الوقت القواسم: شيخنا سيدي أبو القاسم بن أبي النعيم، وشيخنا [17] سيدي أبو القاسم ابن سودة، وسيدي أبو القاسم القصري[1]، رحم الله الميت منهم، وبارك في عمر الحي ـ غائبين بحضرة مراكش مسافرين حين توفي سيدي أحمد المنجور، فلما كان بعد موته قدموا للحضرة الفاسية، وكتب لهم مولانا السلطان المنصور بالله مولانا أحمد ـ رحمه الله ـ جميع أحباس شيخهم سيدي أحمد المذكور، بل إنما كتبها لسيدي أبي القاسم بن أبي النعيم وسيدي أبي القاسم ابن سودة، فبعد وصولهما حيث ذكر، وجدا شيخنا سيدي يحيى السراج نفذ له مولانا الشيخ[2] تفسير[3] الشيخ المذكور، ووجدا شيخنا سيدي عبد الواحد الحميدي نفذ له كرسي مسلم، وكان كرسي سيدي أحمد المذكور في التفسير يزيد فائدة على كرسي سيدي يحيى، فوقع الاتفاق على أن رجع سيدي أبو القاسم بن أبي النعيم لكرسي سيدي يحيى الذي كان بيده، وتولى هو تفسير سيدي أحمد المذكور، وتولى سيدي أبو القاسم ابن سودة الكرسي الكائن عن يمين الداخل من باب مسجد الجنائز[4] بعد صلاة الظهر، وكان يقرأ مختصر ابن الحاجب وصغرى

---

(1) جاء ذكر هؤلاء القواسم الثلاثة في «درة الحجال» رقم 1340 وتوجد ترجمة أولهم ابن أبي النعيم في «سلوة الأنفاس» ج 2 ص 104 ـ 105 وثانيهم ابن سودة في نفس المصدر ج 2 ص 61 ـ 62 وثالثهم القصري لم أقف على ترجمته.

(2) كان إذ ذاك ولي عهد والده أحمد المنصور السعدي وخليفته بفاس، انظر عن ترجمته «الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام» ج 4 ص 240 ـ 263.

(3) في نقل «نشر المثاني» ج 1 ص 38 عن هذه الفصلة: «كرسي التفسير».

(4) في نقل «نشر المثاني» ج 1 ص 38 عن هذه الفصلة: «عن يمين الخارج من باب جامع الجنائز»، وهذا هو المعقول.

وقد تحدثت «الروضة المقصودة» كثيراً عن هذا الكرسي، ففي «باب العلوم التي درسها الشيخ التاودي ابن سودة»، جاء في هذا المصدر ما يلي:

«وفي سنة سبع ـ بالموحدة ـ بعد الستين «ومائة وألف» ولاه سلطان الوقت... أبو الحسن علي المدعو بالأعرج.. تدريس علم الحديث بجامع القرويين، ونفذ له الكرسي المعين له هنالك عند الأسبوع الأعلى، يمنة محراب الجامع لناحية باب الصفر، وهو من=

الشيخ السنوسي، وتولى أبو النعيم الكرسي الكائن عن يمين الطالع للمستودع الكائن عن يمين الداخل لباب الحفا من القرويين، وكان يقرأ عليه ـ بين المغرب والعشاء ـ صغرى الشيخ وبعض الرسالة، وبعد صلاة صبح الخميس والجمعة قصيد الشيخ ابن زكري رحمه الله، وكان الشيخ سيدي عبد الواحد الحميدي ـ حينئذ ـ يقرأ التفسير على الكرسي المستند لظهر الجامع عن يمين الخارج من الباب المقابل لدرب ابن حيون بانحراف، وكان من عادة سيدي محمد الشريف التلمساني أنه لا يفرق مجلسه حالة أقرائه حتى يفرق سيدي عبد الواحد، حتى أن في بعض الأيام ربما يكثر الالتفات إلى مجلس سيدي عبد الواحد فتظن الطلبة أن نظره لمجلسه قد تم، هكذا كان يقال، رحم الله الجميع بجاه النبي ﷺ.

(ومن جملة من أدركته حياً: الفقيه، الحافظ، الأديب، الفرضي، الحاجب

= جملة ما كان نفذه السلطان الأعظم أبو العباس أحمد المنصور السعدي... لجد بني عمه من بني سودة أهل درب القاضي عدوة فاس القرويين: الشيخ الإمام... أبي القاسم ابن سودة... واستمر بيد أعقابه يتوارثونه إلى... أول المائة الثانية عشرة، فصار إلى الشيخ العلامة... الوارد على فاس أبي عبد الله محمد بن أحمد الكماد القسمطيني الشريف، وبقي بيد بعض بنيه بعده ممن لا تقل ملكته عن الانتصاب، وإلى زمن هذا السلطان أبي الحسن مولانا علي بن إسماعيل في التاريخ السابق أحيا بتنفيذه لشيخنا هذا رسمه، لينشر في الناس عن كمال الاستحقاق علمه».

ثم أعاد نفس المصدر الحديث عن هذا الكرسي في باب تلامذة الشيخ التاوردي ابن سودة لدى ترجمة ولده القاضي أبي العباس الذي قال عنه:

«... مع ما ورثه عن أبيه رضي الله تعالى عنه من المناصب الدينية... والتدريس بالكرسي المجاور للأسبوع الأعلى من جامع القرويين، وهو كرسي مبارك جليل، يعلم ذلك كل الناس جيلاً بعد جيل، فقد جلس عليه من العلماء العاملين، والأولياء الصالحين، ما يكل الناس عن حصرهم، وتعجز القريحة عن عد مآثرهم وفخرهم...»، وممن تولى التدريس بهذا الكرسي القاضي أبو عيسى المهدي ابن سودة المري، وفي ترجمته من «الأنباء المنشودة» ـ نسخة المكتبة الأحمدية ـ: جاء أن هذا الكرسي هو نفس كرسي ابن غازي، وهنا ترجع إلى فهرسة المنجور، ليحدثنا عن هذا في ترجمة ابن جيدة: أحمد بن محمد بن محمد المديوني الوهراني نزيل فاس، حيث يذكر أنه كان يدرس العمدة والرسالة بكرسي ابن غازي، وليه بعد موت أبي عبد الله الغزال تلميذ ابن غازي، وهكذا يتسلسل أمامنا عدد من أساتذة هذا الكرسي من القرن العاشر حتى أواخر القرن الثالث عشر هـ.

الحيسوبي، سيدي يعقوب اليدري[1] رحمه الله، أدركته شيخنا كبيراً يخرجه أصحابه لأقراء الرسالة بين النداء بأول الظهر وصلاتها عند باب مسجد الجنائز، حضرت عنده يوماً واحداً فقط هنالك، وهو يقرؤ بصوت ضعيف في البيوع، لا أتحقق ـ الآن ـ المسألة التي كان يقرأها لطول العهد، وجلوسه على الأرض، وعليه ثياب رث: حائك صوف لبس، وعمامه لبسة بغير برنس، ولم أره غير ذلك اليوم رحمه الله، ولم أتحقق الآن تاريخ موته[2].

ومن جملة من أدركته حياً وقرأت عليه: الأستاذ، الحافظ، المعبر، اللافظ، الفصيح، المنشىء، الفقيه، الفهامة، شيخنا وبركتنا سيدي أحمد بن علي الزموري[3] رحمه الله، كان ـ رحمه الله ـ من أفصح فقهاء وقته وأحفظهم، كان له تفسير يقرؤه بجامع الأندلس عدوة الصفاح، عن يمين الداخل[4] من الباب المقابلة لمدرسة الوادي. وعن يسار الداخل من الباب المقابل للمدرسة الصغرى هنالك، ولما أراد ختم ختمة[5] التفسير هنالك، طلب من السلطان مولانا الشيخ ـ رحمه الله ـ أن يحضر له خروجها فأجابه لذلك، فلما كان يوم الختم لم يحضر عنده، وكان يوماً عظيماً حضر مجلسه فيه من الخاصة والعامة ما لا يعد من الناس، وحضره شيخنا سيدي يحيى، وشيخنا سيدي عبد الواحد، ومن دونهما من الفقهاء، ثم ابتداء ختمة أخرى هنالك، وحضرت مجلسه فيها أياماً.

وكان ـ رحمه الله ـ حلو العبارة جداً، فصيح اللسان، جيد الحفظ، دقيق الفهم، وكانت قراءته للتفسير المذكور بتفسير الإمام الفخر لكون الحبس عليه كذلك، حضرت مجلسه يوم قراءته لقوله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وأحل الله البيع

---

(1) ترجمته في «سلوة الأنفاس» ج 3 ص 318.

(2) كانت وفاته ـ حسب «جذوة الاقتباس» ص 351 ـ في يوم الاثنين 26 من ذي الحجة الحرام عام 999 هـ/ 1591 م بمدينة فاس تغمده الله ـ تعالى ـ برحمته.

(3) ترجمته في «سلوة الأنفاس» ج 1 ص 270 ـ 271.

(4) في نقل «نشر المثاني ج 1 ص 20 عن هذه الفصلة: «كان له كرسي يقرؤ عليه التفسير بجامع الأندلس... مسنداً إلى الحائط الكائن يمين الداخل...».

(5) في نقل «نشر المثاني» ج 1 ص 20: «خروج ختمة التفسير».

وحرم الربا﴾ إلى قوله: ﴿خالدون﴾[1]، وحكى ـ رحمه الله ـ في تأويلات الآية ما ينيف على ثلاث وعشرين تأويلاً كلها باللفظ، وهو ينقلها ـ رحمه الله ـ ويعد في أصابعه الثاني الثالث إلى آخرها، ثم قال ـ رحمه الله ـ قال الإمام الفخر: فإن قلت قوله تعالى: ﴿ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾: هذه الآية تشهد لمذهب المعتزلة في قولهم بتخليد العصاة من المؤمنين الذين ماتوا ولم يتوبوا، لقوله: ومن عاد إلى فعل الربا[2]، ﴿فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾، ثم قال ـ رحمه الله ـ: وأجيب عن الآية لأهل السنة بأوجه: أقر بها وجهان: أحدهما أن معنى قوله ومن عاد: معناه عاد إلى اعتقاد حلية الربا، بدليل قوله: ﴿وأحل الله البيع وحرم الربا﴾، أي فمن خالف ذلك واعتقد الحلية فهو مخلد في النار، ولا شك أن من حلل ما حرم الله فهو كافر، والكافر مخلد في النار، والخلود على بابه، والجواب الثاني أن نؤول الخلود بمعنى طول المدة، فيكون المعنى ومن عاد إلى فعل الربا فيدوم بقاؤه في النار ثم يخرج، والخلود بمعنى طول [18] المدة وارد في كلام العرب، هكذا سمعت من لفظه رحمه الله، وآخر قراءته في التفسير المذكور وقف على قوله تبارك وتعالى: ﴿سارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين﴾ الآية[3]، فكررها ـ رحمه الله ـ على لسانه ورددها وحلاها بما يناسبها من المواعظ والحكايات، ثم فرق، فما بقي إلا قليلاً ومرض مرضه الذي توفي منه ـ رحمه الله ـ.

وكان له في القرويين كرسي السير خلف ظهر الصومعة، فولاه لتلميذه شيخنا وبركتنا سيدي علي بن عبد الرحمن بن عمران السلاسي[4]، وكان بيده كرسي المرادي بمدرسة العطارين بعد صلاة العصر، كان ـ رحمه الله ـ يقرئه، ويحضر عنده فيه جماعة من أعيان الطلبة المعتبرين: كتلميذه الحافظ أبي الحسن سيدي علي بولعراب، وسيدي محمد بن أبي القاسم بن عمران، وسيدي أبي عبد الله

(1) سورة البقرة، الآية رقم 274.
(2) هكذا.
(3) سورة آل عمران، الآية رقم 133.
(4) ترجمته في «سلوة الأنفاس» ج 3 ص 312.

محمد بن أبي بكر المراكشي[1]، وجماعة كثيرة من الطلبة المعتبرين، وكان يقرأ المرادي باللفظ، وسيدي خالد الأزهري كذلك.

وكان بيننا وبينه ـ رحمه الله ـ مواصلة كثيرة، ومودة موروثة عن السلف، فقد كان ـ رحمه الله ـ يقرأ في صغره على عمنا الفقيه، الأستاذ، المجود، الحافظ، اللافظ، أبي عمران سيدي موسى بن عيسى الجلالي شقيق الوالد ـ رحمه الله ـ حيث كان الوالد ـ رحمه الله ـ مع أخيه الأستاذ المذكور ـ وكان أكبر من الوالد ـ بالمدرسة المصباحية، فبقيت المحبة موروثة إلى أن بحث علينا ـ رحمه الله ـ بقصد المواصلة فقط.

ولما وصلت حاشية الإمام اللقاني على محاذي ابن هشام إلى مدينة فاس، وكانت عزيزة الوجود، كلفني ـ رحمه الله ـ نسخها له فكتبتها له، ويوم أكملتها أتيته بها ففرح بذلك وقال لي ـ رحمه الله ـ إن الكاتب إذا نسخ ولم يقابل كان كالشاهد إذا شهد ولم يؤد، فكلفني مقابلتها معه فقابلتها معه، وهو آخذ بالأصل في يده في داره بالمعادي[2]، وهي قليلة: نحو الكراسين فقط، وكان ـ رحمه الله ـ يعتريه مرض يأخذه برجليه في غالب كل سنة، يلازم بـه الفراش مدة شهرين وأكثر، وكانت بيده إمامة مدرسة العطارين، وكان نائبه فيها عند عذره أخونا سيدي أحمد رحمه الله، وكان إذا حدث العذر لأخينا نبت عنه في ذلك إلى أن توفي رحمه الله.

وكانت بينه وبين قاضي الجماعة سيدي عبد الواحد منافسة دنيوية كما لا يخفى حال رؤساء الوقت رحم الله الجميع، ثم لما توفي ـ رحمه الله ـ دفن بروضة سيدي الخياط بحومة الدوح، حضر جنازته خلق عديدة: فقهاء وخاصة وعامة، كشيخنا سيدي يحيى وغيره، غير أن قاضي الجماعة المذكور لم يحضرها، وكان يذكر حينئذ أن سبب تخلفه عن الجنازة يمين صدرت من بعض أقاربه عليه أنه لا يحضرها، فساعفه في ذلك، والله أعلم بصحة ذلك، ويحتمل أن يكون منعه عذر

---

(1) قد يكون هو محمد بن محمد بن أبي بكر التواتي من مراكش، وهو مترجم في «الإعلام، بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام» ج 4 ص 198 ـ 199.

(2) قال في «نشر المثاني» ج 1 ص 22: والدار المذكورة له بالمعادي باقية ـ الآن ـ بفاس على ملك الباقي من حفدته: وهو الشاب أبو بكر، وسكناه الآن بها.

لم نطلع عليه، والجنازة فرض كفاية، فتولى موضع تفسيره ومراديه: شيخنا وبركتنا الفقيه، المحدث، المعقولي، الأصولي، الناسك، أبو عبد الله سيدي محمد بن قاسم القيسي القصار[1]، فبقيت أحباسه بيده إلى أن توفي سيدي يحيى ـ رحمه الله ـ بعد ذلك بزمان، فتولى مواضعه سيدي محمد المذكور وتخلى عن الأحباس المذكورة لغيره. ولا أذكر الآن وقت تاريخ وفاة سيدي أحمد الزموري المذكور، ولم أجد من أسأله عنها في الحال، فمن له علم بها فليلحقها بمكتوبنا هذا وأجره على الله سبحانه[2].

ومن جملة من أدركته حياً وقرأت عليه ما كتب الله لي: شيخنا وبركتنا الفقيه على الإطلاق، المشارك، الحافظ، العالم، العلامة، الإمام، قاضي الجماعة، وخطيب الحضرة العلية، شيخنا أبو محمد سيدي عبد الواحد بن أحمد الحميدي[3]، رحمه الله ونفعنا به، كان ـ رحمه الله ـ فقيهاً مطلقاً، بارعاً، أديباً، سيسأ، حاز درجة السبق في العلم والرياسة، ذا وجاهة عند الخاصة والعامة، كان ـ رحمه الله ـ في فصل الشتاء يقرأ التفسير على الكرسي الكائن عن يمين الخارج من الباب المقابلة لوجه الخارج بانحراف يسير لدرب ابن حيون، وبعد التفسير يقرؤ رسالة ابن أبي زيد وحكم ابن عطاء الله، وكان يحضر مجلسه خواص الطلبة والفقهاء، يطرز تفسيره ـ رحمه الله ـ بنكث وغرائب مفيدة من أبحاث الإمام المحتسب أبي عبد الله ابن عرفة وجدت مقيدة عنه، على اختلاف في مقيدها واختلاف في نسخها[4] وكانت أول مرة غريبة الوجود، الغالب ـ في

---

(1) ترجمته في «الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام» ج 4 ص 227 ـ 233. وجاء تعيين تاريخ وفاته وبعض مراجع ترجمته في «سلوة الأنفاس» ج 2 ص 63.

(2) ذكر في «جذوة الاقتباس» ص 638: أن وفاته ليلة السبت غرة رجب عام 1001 هـ/ 1595 م.

(3) ترجمته في «سلوة الأنفاس» ج 2 ص 60 ـ 61.

(4) هناك ثلاثة من تلاميذ ابن عرفة قيدوا عنه تفسير القرآن الكريم، وهم: أبو القاسم الشريف الإدريسي السلوي من أكابر تلامذة ابن عرفة وتقييده في التفسير يقع في مجلدين «نيل الابتهاج» المطبوع بهامش الديباج بمصر سنة 1351 هـ ص 225.
الثاني: محمد بن خلفة بن عمر التونسي الوسياني الشهير بالأبي والمتوفى سنة =

. . . . . .

= 829 هـ/ 25 ـم 1426 م. قال مؤلف «نيل الابتهاج» ص 287: سمعت والدي الفقيه أحمد يحدث عن بعض المشارقة أنه رأى له «الأبي» تفسير القرآن في ثمان مجلدات.

الثالث: أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد البسيلي المتوفى سنة 830 هـ/ 1426 م وهو من متأخري أصحاب ابن عرفة، حيث إنه ـ حسب النيل ص 78 ـ إنما ابتدأ حضوره عنده عام 785 هـ/ 83 ـ 1384 م.

وقد كتب عن أستاذه ابن عرفة تقييدين: كبير وصغير، وهذان التقييدان هما الموجودان ـ لحد الآن ـ من تفسير ابن عرفة.

يقع الكبير في مجلدين، ومنه عدة نسخ الأولى بالخزانة العامة بالرباط وهي تامة خالية من البتر، وتحمل رقم ك 2038، والثانية تشتمل على النصف الثاني في مجلد يبتدىء من تفسير سورة الكهف، ويحمل رقم ك 2118 بنفس الخزانة، والثالثة تامة يتخللها بتر، وتحمل رقم ق 611 بنفس الخزانة أيضاً، والرابعة والخامسة نسختا المكتبة الملكية بالرباط تحت رقم 98 ورقم 679، ويتخللها ـ معاً ـ بتر من آخر سورة يوسف حتى آخر سورة الكهف.

وقد جاء في هذه النسخ الخمس ذكر ابن عم والد المؤلف أبي فارس عبد العزيز البسيلي، وذلك أثناء تفسير سورة «الذاريات» لدى قوله تبارك وتعالى: ﴿بغلام عليم﴾ الآية رقم 28.

وفائدة هذا أنه يجعلنا نجزم بأن هذه النسخ الخمس هي من تفسير البسيلي لا من تفسير غيره، وهي فائدة مهمة في هذا المقام.

ويلاحظ أن النسختين الرابعة والخامسة تختلفان عن الأولين، ويتخللهما البتر المشار له، وقد وضح في «نيل الابتهاج» ص 77 سبب هذا البتر وساق حديثه في ترجمة البسيلي هكذا:

«ووقع له فيه قصة: وذلك أنه لما ألفه سمع بذلك الأمير الفقيه الحسين بن السلطان أبي العباس الحفصي، فراسله فيه وطلبه منه، فامتنع وماطله أياماً، ثم أرسل إليه وأمر رسله أن لا يفارقوه حتى يسلمه لهم، فلما رأى الشيخ صاحب الترجمة الجد في الأمر أخذ منه من سورة الرعد إلى الكهف ودفع لهم الباقي فمشوا به، ثم مات ومات الأمير أيضاً وبيع التقييد في تركته، فسافر به مشتريه إلى بلاد السودان، فبقي أهل تونس لا شعور لهم به، فلذلك كان أصل نسخه من نسخة السودان، ومن هناك انتشر».

هذا سياق «نيل الابتهاج» الذي يؤخذ عليه ما ذكره من أن أصل نسخ هذا للتقييد الكبير من السودان المبتورة، مع أننا رأينا النسختين الأولى والثالثة لا يوجد بهما البتر الذي عينه، فدل هذا على وجود أصل نسخة تامة من هذا التقييد حيث كانت أصلاً للنسختين

الظاهر ـ أنها إنما كانت بيده ثم انتشرت بعد ذلك، وكان يقرىء تهذيب البرادعي للمدونة بقبة المدرسة المصباحية قبيل صلاة الظهر، وبيده إمامة المدرسة المذكورة، وكنت حيث قدمت للحضرة [19] الفاسية وجدته غائباً بمدينة مراكش، فبأيام قريبة قدم رحمه الله: فبعد صلاة الظهر في المدرسة المذكورة يقرؤ مختصر الشيخ خليل إلى نداء العصر وصلاتها، إلا أن قراءته للمختصر المذكور كانت على الدوام بغير تخصيص بفصل من الفصول، حتى كانت الطلبة تمل من مداومة قراءته ولا يمل هو رحمه الله، حضرت مجلسه ـ رحمه الله ـ في مختصر الشيخ خليل هنالك بعد قدومه من الحضرة المراكشية بقبة المدرسة المذكورة، من فصل الجمعة

= المشار لهما، خ.ع. رقم ك 2038 ورقم ق 611.

أما التقييد الصغير فقد ذكر في «نيل الابتهاج» ص 77: «إن مؤلفه لما طولب بالكبير اختصر منه تقييداً صغيراً جداً»، وتوجد منه نسخة بالخزانة العامة بالرباط أول مجموع يحمل رقم ق 271 في 154 ص حجم متوسط.

وهو يقف عند سورة «الصف»، كما أنه لا يوجد به تفسير سور «الشورى» و «الزخرف» و «النجم» و «القمر».

ثم قام بتكميل هذا النقص الواقع في التقييد الصغير أبو عبد الله محمد بن أحمد ابن غازي العثماني المكناسي نزيل فاس والمتوفى بها عام 919 هـ/ 1513 م، واعتمد على التقييد الكبير في هذه التكملة التي توجد نسخة منها بمكتبة الزاوية الحمزاوية بإقليم تافيلالت ثاني مجموع يحمل رقم 279، وهي مكتوبة بخط مغربي من خط المؤلف مباشرة.

هذا وقد جاء في «مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفا» ـ الجزء الثاني، نسخة المكتبة الملكية بالرباط رقم 5182 لدى ذكر تصانيف المنصور السعدي:

أن هذا السلطان كان له اعتناء بتفسيري الإمامين البسيلي والسلوي، ويحضرهما عند قراءة ورده من المصحف الكريم لمراجعة ما يستشكل.

وقد ندب العلامة الجليل أبا عبد الله محمد بن أبي عبد الله الرجراجي إلى الجمع بين هذين التفسيرين مع شرح ما لم يتكلم عليه المقيدان، ووفى هذا الشيخ بالشرط وتخطى ذلك إلى الكلام مع الإمام ابن عرفة نفسه.

وقد كان هذا التفسير الذي جمعه الرجراجي من محتويات خزانة المنصور السعدي.

وفي «نزهة الحادي» ص 114 وردت الإشارة لهذا التفسير مسمياً مؤلفه بمحمد بن عبد الرحمن الرجراجي.

وترجمة هذا المؤلف في «الإعلام. بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام» ج 4 ص 263 ـ 266.

إلى أن ختم رحمه الله، ولم أغب عن ذلك إلا القليل للضرورة، ثم ابتدأ ـ رحمه الله ـ الختمة الثانية: وبدأها من موضعين: من أول الكتاب ومن كتاب النكاح، وكان ـ رحمه الله ـ يقرؤ هنالك بعد الفراغ من المختصر: مغني ابن هشام في آخر عمره، بلغت في الحضور معه في المحل الأول إلى القصر أو قريب منه: وأما المحل الثاني فلم أتحقق الآن موضع وقوفه.

كان ـ رحمه الله ـ حريصاً على محبة الطلبة ونفعهم بعلمه ودنياه. وكان قارئي مجلسه في المدونة والمختصر شيخنا أبو زيد سيد عبد الرحمن بن أحمد ابن عثمان المكناسي[1]، وكان من المعتبرين الملازمين لمجلسيه جماعة، منهم شيخنا وبركتنا سيدي علي بن عمران، كان رحمه الله يقرىء مختصر الشيخ مع جماعة من الطلبة، يجلس بالأرض عن يمين الداخل من باب الشماعين للقرويين، بالموضع المنسفل هنالك من نداء أول الظهر إلى الصلاة، فإذا صليت الظهر يأتي مع أكثر طلبة مجلسه لمجلس الشيخ سيدي عبد الواحد المذكور حيث ذكر، ويأخذ هنالك ويعطي، وكان أيضاً من الملازمين للمجلس المذكور: شيخنا أبو علي سيدي الحسن الزياتي، حيث كان ساكناً بمدرسة الحلفاويين قبل انتقاله منها إلى زاوية الشيخ سيدي يوسف الفاسي بالمخفية[2]، فلما انتقل إلى هنالك قطع حضور المجالس كلها[3]، وشيخنا أبو الحجاج سيدي يوسف السبع القصري وبقي ملازماً إلى خروجه للقصر ومات به رحمه الله، وسيدي علي بن جلون[4]، وبقي كذلك

---

(1) ترجمته في «درة الحجال» رقم 1014.

(2) في «مرآة المحاسن» ص 41: تحدث عن بناء الزاوية والمسجد اللذين بناهما ـ بالمخفية ـ الشيخ أبو المحاسن الفاسي الذي توجد ترجمته ومصادرها ومراجعها في «سلوة الأنفاس» ج 2 ص 306 ـ 313.

(3) في «مرآة المحاسن» ص 4 ـ 5: «وكان شيخنا العلامة المحقق أبو الطيب الحسن بن يوسف بن مهدي قد ترك التدريس العام سنين انفردت أنا فيها بالقراءة عليه، وأقبل على سلوك طريق القوم، فطلب طلبة العلم من الشيخ أن يأمره بالتدريس فأمره ـ إذ ذاك ـ الشيخ أبو المحاسن بالاجتهاد في تعليم العلم، وقال: أحب أن يكون لي في نشر العلم نصيب لا ينقطع إن شاء الله».

(4) ورد ذكره في «مرآة المحاسن» ص 164 ضمن أشياخ مؤلفها، وقد سماه علياً ابن جلول باللام في آخره.

إلى موته رحمه الله، وسيدي أحمد الفركلي، وسيدي أحمد الشريف الشفشاوني[1] حيث كان مأواه بمدرسة الحلفاويين[2]، وسيدي عبد الرحمن الفاسي[3]، وكانا كثيراً ما يأتيان مصطحبان[4] في الطريق إلى وصولهما للمجلس لا ينفكان في الغالب، وسيدي محمد مخشان الشفشاوني، وسيدي يوسف الزروالي، وكانا أيضاً مصطحبان كذلك، وكان سيدي محمد مخشان يحبس كراريس التوضيح في يده، ويقرىء نصه للفقيه أن احتاج إليه في بعض الأحيان، وسيدي عيسى الأشتكي الجزولي[5]، وصاحبه سيدي داوود، وكان مأواهما بمدرسة سيدي مصباح، ثم انتقلا لمصرية الكتبيين، وسيدي أحمد التجني متولى خطة القضاء بأصيلا[6] في حياته، وكل هؤلاء الطلبة كانوا أكبر منا سناً، منهم من قرأنا عليه، ومنهم من صرحنا في تحليته بالشيخوخة، ومنهم من قرأنا معه فقط، وأما من كان مساوياً

---

(1) سيدي أحمد هذا هو ابن علي الشريف العلمي قاضي شفشاون، وترجمته في «مرآة المحاسن» ص 168 ـ 189، و «نشر المثاني» ج 1 ص 131 ـ 132، وفي «ابتهاج القلوب»: نسخة خاصة، وورد ذكره في مجلة «دعوة الحق» ع 1. س 6. قال أبو محمد الطالب ابن الحاج في «الأشراف على من بفاس من مشاهير الأشراف»: «وما في النشر ولمحة البهجة العلية من أن سيدي أحمد المذكور من بني عبد الوهاب غلط، وإنما هو من بني علال بن مولاي عبد السلام. . . وهو جد والد الشريف العلمي صاحب النوازل».

(2) في «ابتهاج القلوب»: إن بيت سيدي أحمد هذا بمدرسة الحلفاويين كان مجاوراً لبيتي أبي زيد الفاسي العارف وابن أخيه أبي العباس الحافظ ابن الشيخ أبي المحاسن الفاسي.

وحسب «مرآة المحاسن» ص 152 فقد كان بيتا السيدين الفاسيين بالجانب الشرقي من المدرسة، متوسطين في البيوت التي تشرف نوافذها على صحن المدرسة.

(3) ترجمته ومراجعها في «سلوة الأنفاس» ج 2 ص 302 ـ 306.

(4) هكذا في النسخة الوحيدة التي نعتمدها في هذه الفقرة والفقرة المتصلة بها.

(5) في «نشر المثاني» ج 1 ص 29: وسيدي عيسى السكتاني وهذا له ترجمة معروفة في عدة مراجع منها المصدر المذكور ج 1 ص 201.

(6) يمكن أن يكون هذا هو الذي ذكره في «ابتهاج القلوب» ضمن فصل الفقهاء الآخرين عن الشيخ أبي المحاسن، وقد ورد ذكره هكذا:

ومنهم قاضي القصر «لا أصيلاً» الفقيه النحوي أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن عثمان. . . العبد الوادي التلمساني الشهير بالتجاني. . . توفي سنة 1018.

لسننا فقد كانت[1] قبة المدرسة أن تمتلىء بهم، وكان مجلسه ـ رحمه الله ـ حسناً له حلاوة ورقة، ربما مازح بعض الأوقات طلبة مجلسه بالمجلس بحكايات ومضحكات تناسب المحل المأتي بها فيها.

وقد قدمنا أنه كان بينه وبين سيدي أحمد الزموري منافسة، وأنه لم يحضر جنازته رحمهما الله جميعاً، ومما يدل على ما ذكرنا من ذلك أنه لما كان بعد أيام من موت سيدي أحمد الزموري المذكور كان سيدي عبد الواحد المذكور يقرىء حيث ذكر، فمر به الكلام إلى التعريف بأشياخه، وكان من عادته رحمه الله كثيراً ما يثني على شيخه سيدي محمد اليسيتني[2]، حتى إنه إن ذكره كمن يذكر المازري وأمثاله على الدوام والاستمرار، ويحكي عنه حكايات وقعت حالة رحلته للمشرق، وحالة توليته للفتوى، حكى عنه حكاية مضحكة يعقل عليها من حضر سماعها، وحكايات وقعت له معه هو وأنه كان حريصاً على إفادته، حتى أنه سأله عن مسألة ذات يوم بالزقاق، فقال له ايت بالدواة والقلم والرق واملي عليه فيها كلاماً قيده عنه، وما وقع له معه في مسألة وخصصت نية الحالف وقيدت، واعتراضه على ما عند الشيخ ابن غازي هنالك، وكان يحضر الكراسة المقيدة عنه في ذلك وتقرأ باللفظ في ذلك المحل، ثم انجر به الكلام إلى التعريف بأولاد ابن إبراهيم، فأخذ يثني على سيدي محمد بن إبراهيم[3] وسيدي عبد الرحمن بن إبراهيم[4]، ثم قال ـ رحمه الله ـ في أثناء كلامه بعبارة نصها بحروفها من غير زيادة ولا نقص هكذا: وأحمرهم ذاك بلقاسم[5] خلافاً لمن استريح منه. [20] هكذا نطق به رحمه الله،

---

(1) تصحيف عن كادت بالدال.

(2) ترجمته في «سلوة الأنفاس» ج 3 ص 59 ـ 60.

(3) ترجمته في «سلوة الأنفاس» ج 2 ص 127.

(4) ترجمته في «سلوة الأنفاس» ج 2 ص 130 ـ 131.

(5) ترجمته في «سلوة الأنفاس» ج 2 ص 128 ـ 130، ومن الأكيد التنبيه على أن مقالة القاضي الحميدي إنما هي تحامل جر إليه السبب الذي وضحه مؤلف الأصل، والواقع أن أبا القاسم ابن إبراهيم كان من جلة علماء وقته، وهذا ما حلاه به مؤرخان معاصران الأول تلميذه أبو العباس المنجور الذي قدمه في فهرسته الكبرى هكذا: =

ومراده ـ رحمه الله وسمح للجميع ـ التوصل إلى ذم سيدي أحمد الزموري بواسطة شيخه مبالغة، لأنه إذا كان شيخه الذي هو الأستاذ الحافظ سيدي أبو القاسم بن إبراهيم حماراً بل أتى بأفعل الدال على المبالغة في الحمرية، فكيف يكون تلميذه المستراح منه، رحم الله الجميع ونفعنا بهما، ولولا الضرورة الداعية لنقل هذه الحكاية ما نقلتها، لما لا يخفى فيها، غير أني رجوت من الحاضرين لسماعها أن يشهدوا بمقتضاها.

ومن ظرافته ـ رحمه الله ـ أنه كان ذات يوم يقرأ حيث ذكر، فإذا هو يقول: انظروا إلى أبي مرة، عجباً يقوده كما يقود البعير، فإذا بقاسم القدومي يسلم عليه في طرف الحلقة، فرد عليه فقال له يا سيدي: إن الشيخ سيدي يحيى يسلم عليك، وقال لك أي يوم تبتدئ فيه القراءة لشتوة ذلك العام، فقال له الشيخ قل له هو الشيخ، ففي أي يوم أراد فعلى بركة الله، فقال له قد قال يوم كذا، فقال له على بركة الله، فانصرف عنه وقال لا إلّه إلا الله، عجباً يقوده كما يقود البعير، ولا شك أنه كان كذلك كان فيه بعض تغفل في أمور الدنيا زيادة في دينه ـ رحمه الله ـ.

وكان الشيخ سيدي عبد الواحد ـ رحمه الله ـ حريصاً على محبة الطلبة مشفقاً عليهم، ويشتري في أول فصل الشتاء عدة عديدة من الحياك ويفرقهم على الطلبة بقبة المدرسة وغيرها، ومن حضر يوم دخول عريف دار قضائه ابن موسى اللمطي عليه بمجلسه المذكور مجروحاً متشكياً بحسون خديم علي بـن عزوز[1]، وأنه

= «ومنهم الشيخ الفقيه الأستاذ النحوي المفسر أبو محمد بلقاسم بن محمد ابن إبراهيم الدكالي... كان من الأساتيذ المعتبرين، عارفاً بعلوم القرآن أداء ورسماً وتفسيراً... وكان ينقل شرح عبد الكريم الأغصاوي على الدرر اللوامع بفصوله، ويطرزه بكلام الأستاذ الكبير أبي وكيل ميمون المصمودي مولى الفخار في التحفة، وكان آية الله عز وجل في ذلك، وينقل عن التفسير كلام فارسي التفسير كلام فارسي التفسير ابن عطية والزمخشري، ويضيف إلى ذلك من كلام الصفاقسي وغيره، وكان مشاركاً في الأدب والتاريخ...».

وعبارة ابن القاضي في «جذوة الاقتباس» ص 319: «الفقيه الأستاذ النحوي الحافظ، كان فقيهاً أديباً لغوياً...»، وانظر «دوحة الناشر» ص 45، ط. ف.

(1) هو الحاجب على ابن الحاجب عزوز بن سعيد الوزكيتي، ورد ذكره في «مرآة المحاسن» ص 30.

الجارح له ، فإذا بحسون المذكور أتى ناظر القرويين سيدي الحسن الدمناتي والقايد مبارك الزرهوني وجماعة من المتخيرين مستشفعين في جريحته، فإذا هو يقول بصوت خفي: أرغبوني أنتم معشر الطلبة أقبل رغبتكم، يعرف قدر الطلبة عنده.

وكان ـ رحمه الله ـ يقرىء مختصر ابن الحاجب الفرعي في زمان المصيف بالأرض بموضع كرسي تفسيره، ويستحضر عليه توضيح الشيخ باللفظ، ولما قدم مولانا أحمد ـ رحمه الله ـ من مراكش عام الثلجة[1] النازلة عليه حوز مكناسة الزيتون، قدم معه جماعة من طلبة مراكش، وكان من جملتهم سيدي إبراهيم الشاوي[2]، وكان يحضر المجلس المذكور مع فقهاء أهل فاس: كشيخنا الحافظ، الفقيه، سيدي عبد العزيز الفيلالي[3]، وشيخنا الدراك، الفهامة، سيدي محمد الشريف التلمساني، والفقيه سيدي عبد العزيز بن القاضي[4]، والحافظ سيدي عثمان الدفدوني[5]، وسيدي محمد بن بكار[6]، وسيدي إبراهيم المذكور، وشيخنا المعقولي، الأصولي، النحوي، الأديب، سيدي أبي القاسم بن أبي النعيم، وسيدي أبي القاسم بن سودة، كل هؤلاء يجلسون بين يدي الشيخ رضي الله عنهم، وتسمع العجب العجاب في تفهمهم، ويقوم الشيخ ـ رحمه الله ـ بجميعهم، وكان من جملة القادمين من الفقهاء معه الفقيه، المعقولي، الأصولي،

---

(1) هو عام 997 هـ حسب «تاريخ الدولة السعدية» لمؤلف مجهول الاسم ـ نشر جورج كولان، المطبعة الجديدة بالرباط: ص 72.

(2) ترجمته في «درة الحجال» رقم 277.

(3) ترجمته في «صفوة من انتشر» ص 102، و «نشر المثاني» ج 1 ص 98 ـ 99.

(4) ترجمته في «نشر المثاني» ج 1 ص 49.

(5) في «نزهة الحادي» طبعة فاس ص 146 في سياق ذكر بعض مقطعات للقاضي الحميدي: «وقال ـ أيضاً ـ في طالب كان يعرف بعثمان الدبدوبي وكان كثير الجدال ما نصه: وساق بيتين اثنين للقاضي المذكور.

وفي نقل «نشر المثاني» ج 1 ص 30 يسمى المذكور علياً الذبذوبي بذالين معجمتين.

(6) رأيت بخط المؤرخ المغربي أبي خليل عبد السلام ابن سودة المري: أنه وقف على ظهير مؤرخ بعام 1013 هـ، وفيه أن الواقف عليه يجب عليه احترام المرابط الخير محمد بن محمد بن يحيى ابن بكار.

أبو عبد الله سيدي محمد بن عبدل[1] رحمه الله، واتخذ للطلبة مجلساً في كبرى الشيخ السنوسي ـ رحمه الله ـ وراء خصة القرويين، حضرها عنده جماعة من الطلبة المعتبرين من أهل فاس، ومن جملة القادمين معه قاضيه الشاطبي[2]، ومفتيه سيدي عبد الواحد الشريف[3]، ولم أر لهما مجلساً بالقرويين حينئذ، وكان قارىء الشيخ في مختصر ابن الحاجب وفي التفسير سيدي إبراهيم المنصوري من سباط عدول القرويين.

وكان ـ رحمه الله ـ حافظاً لفروع التوضيح، وكثيراً ما يغرب عن الطلبة بذلك ويقول: إن هذه المسألة ذكرها في التوضيح في غير بابها في باب كذا وكذا، يعرف هذا كله من لازم حضور مجلسه، ومن عادته ـ رحمه الله ـ في اليوم الذي يكون به غيار دنيوي تجد له قريحة قوية في أقرائه، ويوجب له ذلك قوة لا انتكاصاً، وغالب أمره أنه كان لا يقرأ يوم الأربعاء من أجل حضوره ديوان السلطان، وكان في بعض الأوقات يقدم لديوان السلطان[4] يوم الاثنين أو يوم الأربعاء في زمن الربيع للدار البيضاء[5]، ويرجع من وقته إلى باب المدرسة، ينزل عن فرسه ويبعثها ويدخل إلى الأقراء، ولا يوجب له ذلك كسلا ـ رحمه الله ـ ونفعنا به، ونحفظ من حكاياته في مجالسه ومضحكاته ـ رحمه الله ـ أكثر من هذا، غير أنا ذكرنا المشاهير من ذلك، وبمثال واحد يقتنع، توفي ـ رحمه الله ـ عشية يوم السبت بعد العصر ثامن عشر ربيع الثاني عام ثلاثة وألف، ودفن من الغد بعد صلاة الظهر بروضة سيدي أبي زيد الهزميري[6] خارج باب مصمودة، حضر جنازته مولانا السلطان محمد

---

(1) ترجمته في «الإعلام، بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام» ج 4 ص 263 ـ 266 حيث يذكر أنه يعرف ببوعبدلي.

(2) ترجمته في «درة الحجال» رقم 1338.

(3) ترجمته في «نشر المثاني» ج 1 ص 14 ـ 16.

(4) في «نزهة الحادي» ص 134 أثناء ترجمة أحمد المنصور السعدي: «وقد اتخذ يوم الأربعاء للمشاورة، وسماه يوم الديوان، تجتمع فيه وجوه الدولة وأعيانها، ويتطارحون فيه وجوه الرأي فيما ينوب من جلائل الأمور وعظائم النوازل».

(5) لعل الأصل للمدينة البيضاء وهي فاس الجديد.

(6) توجد قرب روضة الطاهريين برأس القليعة يحيط بها سور قديم من الجهات الأربع، وانظر=

الشيخ[1] رحمه الله، [21] ووقف على قبره حين فرغ من دفنه، وكان يوماً عظيماً خلت الديار من النساء والأولاد فضلاً عن الرجال، لحضور جنازته حتى كاد الناس يقتتلون ازدحاماً، وصلى عليه مفتي الوقت شيخنا سيدي يحيى.

ومن جملة ما حدثنا به ـ رحمه الله ـ في مجلس إقرائه بالمدرسة قرب موته : أنه رأى رؤيا قصها ـ رحمه الله ـ على الطلبة، وذلك أنه رأى بعرصته بالمخفية[2]، شجرة عظيمة علت بها، وبوسط الشجرة قلب مستقيم خارج عنها من أعلاها وعلا عليها، فبينما هو يتأمل حسن الشجرة وقلبها ، فإذا برجلين أقبلا بشاقور وقطعا به ذلك القلب ثم انصرفا، فبدا لهما ورجعا وأخذا في قطع الشجرة من أصلها فقطعاها وانصرفا، قال رحمه الله: فأولت ذلك أن قلب الشجرة هو ولدي محمد وأنه ميت بالقرب، وإني لاحق به بالقرب، فكان كذلك، فلما توفي ولده التاجر أبو عبد الله محمد وجد عليه وجداً شديداً ، وخرج ـ رحمه الله ـ لحفر قبره فحفر ، فحضره وأمر الحافر فحفر له قبر نفسه وهو يمازحه ويقول له : وسع عليّ من كذا، وسع علي من كذا، حتى فرغ من حفره فأدلى رجليه في القبر وبكا بكاءً عظيماً أبكى الحاضرين معه لذلك ثم رجع لداره ، ولولا الإطالة لذكرت سبب موت ولده فقد كان له سبب لا يعرفه إلا القليل، فما بقي إلا قليلاً ولحق به، رحم الله الجميع بمنه وكرمه.

ومن جملة من أدركته حياً من شيوخ فاس مفتي بلاد المغرب في حينه، الإمام، المحقق، المدقق، آخر المحققين بألفاظ مختصر الشيخ خليل، وخاتمة المدرسين فيه، النحوي، الحافظ، اللافظ، أبو زكرياء شيخنا وبركتنا وقدوتنا

= «سلوة الأنفاس» ج 2 ص 55.

(1) هذا لم يكن ـ آنذاك ـ سلطاناً وإنما كان ولي عهده والده أحمد المنصور وخليفته بفاس، ولعل مدلول اسم السلطان لم يكن تحدد حينئذ.

(2) في «نشر المثاني» ج 1 ص 30 لدى ترجمة الحميدي هذا: «والدر التي كانت بيده ذات الأشجار بالمخفية، أدركتها على ملك أولاد القدياري من أهل فاس، وهي الآن عرصة براح مغترسة بالأشجار بيد بعض حفدة سيدنا أحمد بن عبد الله».

وفي «إزالة الالتباس» للمؤرخ أبي خليل عبد السلام ابن سودة المري أن هذه هي التي بها الآن دار عائلة ابن جلون بالمخفية.

سيدي يحيى بن محمد السراج[1] رحمه الله تعالى ونفعنا به، أخرت الكلام عليه لا
لصغر شأنه أو سنه، بل لتأخر موته عمن تقدم، ولإنكارنا فيه، ليقع التخلص من
إلى تتبع كلام المفتي بالاستحقاق، وإلا فهو رحمه الله كان أكبر سناً من سيدي عبد
الواحد ومن سيدي أحمد الزموري، بل ربما قرأ عليه الزموري وحضر مجلسه أيام
قلائل، وكان رحمه الله يقرأ التفسير كما قدمنا، لما مات سيدي أحمد المنجور
انتقل لكرسيه، وبه خرجت ختمة تفسيره رحمه الله، حضر خروجها الخاص
والعام، وكان ـ رحمه الله ـ يقرأ بعد تفريق مجلس تفسيره مختصر الشيخ قرب باب
المقصورة، مسنداً ظهره إلى حائط القبلة من ناحية الخزانة[2]، كان قاربه بها الفقيه
سيدي عبد الرحمن بن عثمان المكناسي، وكان يجلس عن يمين الشيخ: الفقيه
سيدي محمد بن سيدي محمد الشامي المدعو القونصي[3] وبيده تقاييد الشيخ؛
وكان يجلس عن يمين الشامي المذكور الفقيه الحسيب أبو عبد الله سيدي محمد بن
محمد ابن عبد الحليم زوج ابنة الشيخ[4] رحمه الله، وكان بيده الشارح بهرام الكبير
المشرقي خطأ وتفسيراً[5]، المحبس على الفتوى، ومن جملة من كان يلازم هنالك
شيخنا أبو القاسم بن القاضي[6] أطال الله بقاءه للانتفاع، كان يجلس مستند
للسارية المقابلة وجه الشيخ بانحراف يسير لجهة اليمين، وشيخنا أبو القاسم بن
أبي النعيم، وشيخنا أبو القاسم ابن سودة، ولكن حضورهما على قلة، وسيدي
محمد الحسناوي، وسيدي يوسف الشريف الزروالي، وسيدي علي بن أحمد
الفزكاري، وسيدي عبد الرحمن أعراب، وقراءته على الموضع المذكور على

---

(1) ترجمته في «سلوة الأنفاس» ج 2 ص 57 ـ 58، وقد عقد المؤلف الكلالي موازنة بينه وبين القاضي الحميدي في مؤلفه السابق الذكر في المسألة الإمليسية، وهذا هو السراج الأصغر، أما السراج الأكبر فتوجد ترجمته في «سلوة الأنفاس» ج 2 ص 143 ـ 144.

(2) يقصد الخزانة الجديدة التي أنشأها أحمد المنصور السعدي قبلة جامع القرويين المكرم.

(3) في نقل «نشر المثاني» ج 1 ص 51 المدعو بقويضي.

(4) ترجمته في «صفوة من انتشر» ص 102، و «نشر المثاني» ج 1 ص 114.

(5) كذا بالأصل وصوابه تسفيراً.

(6) ترجمته في «درة الحجال» رقم 1342، و «روضة الأس» ص 225 ـ 226، و «صفوة من انتشر» ص 95، و «نشر المثاني» ج 1 ص 117 ـ 120، وورد ذكره في «مرآة المحاسن» ص 163 ضمن أساتذة مؤلفها.

الدوام صباحاً، وفي الشتاء بعد التفسير، ومن عادته ـ رحمه الله ـ أنه إذا أراد البحث على ما عند التتائي في شرحه يقول: ما الذي قال صاحبكم في تلك الحواشي الحسان.

وكان كثير الصياح على من تكلم في مجلسه بكلام غي أو ملحون، سمعت منه غير ما مرة في مجلسه ذلك، إذا تكلم سيدي أبو القاسم ابن القاضي يقول: هذا هو النحو المكناسي[1]، رحمه الله ونفعنا به، ومن جملة الواقع بمجلسه أن كلمه ذات يوم شيخ كبير يسمى محمد الوهراني[2]، فلما سمع كلامه صاح عليه صياحاً عظيماً وقال له: أهذا كلامك، وأنت قيل لي: إنك تقرىء على كرسي الشيخ الأشقر، ومراده: سيدي عبد الواحد الوانشريسي[3]، وكان كثير الثناء عليه رحمهما الله، فقال له الوهراني المذكور: سبحان الله ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور، وسكت عنه الشيخ، وأظن أنه لم يسمع جوابه، وقد وقع له بمجلسه ذات يوم نزاعاً[4] عظيماً مع طلبة المجلس في قول الشيخ في باب اللقطة: كبقر في محل خوف، كان الشيخ يقول التشبيه بما قبله في الأكل فقط، ويغرم [22] القيمة لرب ذلك، والطلبة يقولون التشبيه في الأكل وعدم الغرم، وعظم النزاع في ذلك إلى أن قام الشيخ على ركبتيه، وكاد أن يكسر مفاتح مقصورته بيده يضربه بالأرض، ومن

---

(1) نعلق هنا بما ذكره معاصروا أبي القاسم ابن القاضي عن درجته في النحو، فقد سجل أبو العباس ابن القاضي: أنه واحد زمانه في علم النحو، «درة الحجال» رقم 1342، وحلاه في «روضة الأس» ص 225 هكذا شيخ النحاة بالحضرة الفاسية وثمالهم، وكعبتهم التي يطوفون بها فتنجح في العربية آمالهم».

وقال عنه في «مرآة المحاسن» ص 163: «وكان واحد عصره في معرفة مذاهب النحاة وحفظ أقوالهم».

وفي «الأصليت» لابن أبي محلى، نسخة المكتبة الملكية بالرباط رقم 100:

«وأما علماء فاس اليوم، فالمرجوع إليهم ثلاثة أو أربعة على ما يقال: ففي الفقه القاضي ابن عمران، وفي **النحو شيخنا أبو القاسم ابن القاضي**، وفي القراءة الأستاذ الشعيبي، وفي المعقول التلمساني».

(2) ترجمته في «ابتهاج القلوب» نسخة خاصة، وفي «نشر المثاني» ج 1 ص 89.

(3) ترجمته في «سلوة الأنفاس» ج 2 ص 146 ـ 148.

(4) كذا بالأصل.

عادته لا يجلس للإقراء إلا بمفاتح المقصورة بيده، يشهد بذلك كل من حضر مجلسه.

ـ وكانت بيننا وبينه مواصلة من ناحية عوض والدنا سيدي أبي القاسم بن الفقيه سيدي محمد الطرون[1] سيلف ولد الشيخ رحمه الله، وقد كنا بعد سنة ست وتسعين وتسعمائة بعد موت قائم تيزران[2] استوطنا بجميع أهلنا الحضرة الفاسية، فكان سكنانا بداره، وكان سيدي يحيى يأتي لدار سليف ولده في محافله، فنعرف من سيره وآثاره في عاداته ما لا يعرفه الغير، لولا الإطالة لنقلنا من ذلك ما فيه الشفاء، ولولا أحوجنا الحال لذكر هذه الأشياء ما ذكرنا بعضها ولا كلها، وحيث وقع إنكارنا في نسبتنا إليه فسنضع جزءاً في التعريف به إن شاء الله وفي مناقبه ـ.

ومن عادته رحمه الله في فصل الشتاء إذا فرغ من إقراء المختصر حيث ذكر يمشي لمدرسة العطارين يقرىء هنالك المدونة على الكرسي المقابل وجه الداخل لقبتها، فإذا فرغ يرجع إلى المقصورة ثم يسير إلى مدرسة الحلفاويين يقرىء هنالك مدونة[3] أخرى له عليها حبس، لكن لم أحضر عنده قط، وإنما أتحقق ذلك بالسماع.

ولما توفي سيدي عبد الواحد رحمه الله تولى هو الخطابة في الأعياد بمولانا السلطان، إلا أنه ـ رحمه الله ـ لما قرب أجله وضعف بدنه مات ولده سيدي محمد، فاعترضه ذهول في عقله رحمه الله، حتى كان يأتي للخطبة ولا يجد ما يقول، وكذا في أقرائه آخر الحال، مع أنه رحمه الله له خطب متعددة أنشأها من عندياته لنفسه، وكان يحفظ مختصر الشيخ وسائر تقاييده لا يحتاج فيها إلى نظر، وقد حدثنا شيخنا سيدي عبد العزيز الفيلالي ـ رحمه الله: إن القوة العظيمة إنما كانت له حيث كان بجامع الأندلس، قال: كان يستحضر مسائل أبي الحسن الصغير على المدونة وفروع المتيطي في النهاية، ولا شك أن فتاويه الصادرة منه في أول أمره

---

(1) توجد ترجمة والده محمد في «درة الحجال» رقم 633.

(2) هو ابن قرقوش القائم بجهات بلاد الهبط وجبال غمارة عام 996 هـ، وتيزران موضع في بني خالد من جبال غمارة، انظر «مناهل الصفا» ـ مختصر الجزء الثاني ص 46 ـ 48.

(3) في نقل «نشر المثاني» ج 1 ص 51: «وكذلك بمدرسة الحلفاويين المدونة أيضاً والمختصر على الدوام».

تدل على ذلك دلالة واضحة، وأما فتاويه الصادرة منه أواخر عمره فكانت تارة فتارة، على قدر حاله من كبر سنه، ويذكر أن سيدي محمد الشامي القونصي كان يعينه في ذلك، وقد كان كذلك، وحاصله أني أحقه بعيه واسمه وصفته ومشيته الحسنة وأخلاقه القلقة عند حدوث السبب الموجب لمستحقه في عاداته، وكان رحمه الله قليل المرض في بدنه وقليل الغيبة عن موضع إمامته، وإن حصل له عذر فنائبه في الإمامة والخطبة العدل أبو الحجاج سيدي يوسف المديوني رحمه الله.

ولما توفي ـ رحمه الله ـ كان شيخنا البركة، المحدث، الناسك، المعقولي، الأصولي، أبو عبد الله سيدي محمد القصار بمدينة مراكش، فكتب له السلطان ـ نصره الله ـ الفتوى وجميع أحباس سيدي يحيى، فجاء ـ رحمه الله ـ مصاحباً للفيل الداخل للمدينة الفاسية، فدخل يوم الاثنين سادس عشر رمضان المعظم من عام سبعة وألف، ويوم الجمعة موفى عشرين من رمضان خطب على منبر القرويين، وبقي خطيباً ومفتياً إلى وفاته رحمه الله، وله حكاية في وفاته ليس هذا محلها، وتولى القضاء بعد مدة من وفاة سيدي عبد الواحد شيخنا سيدي علي بن عمران يوم السبت سادس عشر القعدة عام أربعة وألف[1]، ثم توفي الجميع والبقاء والدوام لله الواحد القهار، ولولا الإطالة لأتينا بعزل من عزل وسببه، وموت من مات وتولية من تولى بعده حتى الآن، لكن لم يتعلق الغرض إلا بما تقدم، فمن طالع ما ذكرنا من عدول الفقهاء الأحياء وعلم صدقه فليشهد بمقتضاه، ومن أنكرنا في ذلك مع عدم علمه وحضوره لما نقلناه فقد عذرناه، ومن جحدنا بعد تحقيقه لما نقلناه فالمحاسبة معه بين يدي الله.

مجلة «البحث العلمي» ع 7 سنة 1966

---

(1) هذه الفقرة غير مرتبطة بما قبلها.

ملاحظة: الموافقات بين التاريخين مأخوذة من:

Tables de concordance des éres chrétienne, éthégirienne, Troisième, édition, Editins Techniques Nord-Africaines.

قطعة عن نشاط الرماية الشعبية بالجنوب المغربي

كان من توابع استخدام الأسلحة النارية بالمغرب، أن استحدث في الجيش المغربي فرقة للمدفعية صار أصحابها ـ في العصر السعدي ـ يعرفون بعساكر النار، حيث يعملون في الرماية بالمدافع والبندقيات[1].

وإلى جانب هذا الجهاز الحكومي، ظهرت تشكيلات شعبية في جماعات محلية تتدرب على الرماية بالبنادق، لاستخدامها في الدفاع عن البلاد، وللتكسب بها في مجال الصيد البري.

وقد أصبح لهذه المنظمات الشعبية ـ مع مر الزمن ـ نظام خاص، وصارت لها قيادة عليا تتألف من رئيس يسمى «شيخ الرماة»، ومساعد له يحمل لقب «مقدم»، والاثنان ـ معاً ـ بالإضافة إلى سائر الرماة، يخضعون إلى قوانين يتعارفونها بينهم، وسنعرفها من بعد، وإنما أُشير هنا إلى أن القواعد الأصيلة للرماة، أضيفت لها تقاليد باطلة ابتدعها المتأخّرون منهم، ومن بينها تبادلهم للتحية على طريقة خاصة، وتخليطهم في سند الرماية، ووضع قوانين عرفية يتحاكمون إليها في مخالفات الرماة[2].

* * *

ولا يعرف ـ بالضبط ـ تاريخ ظهور هذه المنظمات الشعبية، وأقدم النصوص

---

(1) توجد تفاصيل عن هذا عند محمد المنوني: «صناعة الأسلحة النارية بالمغرب»، مجلة «دعوة الحق»، السنة الثالثة عشرة، العدد الثامن ـ ص 50 ـ 61.

(2) مقدمة رسالة الحيحي: المخطوطة الآتية الذكر.

ـ في هذا الصدد ـ لا يتجاوز المائة الهجرية العاشرة، حيث وردت إشارات لبعض رؤساء هذه الفرق في شمال المغرب بتطوان، وفي جنوبه بقبيلتي شوشاوة وأحمر.

وقد تحدث الفشتالي في «مناهل الصفا»[1] عن موقعة قام بها سكان تطوان ضد نصاري سبتة بتاريخ الجمعة 22 محرم عام 997 هـ/ 1588 م، وخلال هذا ورد ذكر المقدمين المجاهدين، مع التصريح باسم المقدم أحمد بن عيسى النقسيس التطواني، ولم يكن هذا أول المقدمين المعروفين، وإنما جاءت تحلية والده عيسى بوصف المجاهد المقدم[2]، فيكون هذا أول رئيس معروف للرماة بشمال المغرب، وقد تسلسل هذا اللّقب في عائلة النقسيس الذين استقلوا بتطوان إلى قيام الدولة العلوية.

ومن المقدمين بهذه الجهة أوائل المائة الحادية عشر أولاد أبو الليف وأولاد حسينو[3].

وبعد هؤلاء يلمع اسم رئيس جديد للرماة بالشمال، وهو المقدم الخضر غيلان الجرفطي، وكان مقدماً على الغزاة ببلاد الهبط، ثم استقل برئاسة هذه الناحية إلى أوائل العهد العلوي[4].

ونعود ـ بعد هذا ـ لشرح ظهور هذه المنظمات الشعبية في جنوب المغرب، وقد اشتهر في قبيلة شوشاوة[5] اسم علي الرزيقي تلميذ الشيخ عبد الله الغزواني[6] المتوفى عام 935 هـ/ 28 ـ 1529 م، واشتهر هذا التلميذ كمؤسس لمدرسة الرماية بهذه الجهة.

---

(1) النص المختصر، نشر معهد مولاي الحسن بتطوان ـ ص 49 ـ 50.
(2) تاريخ تطوان للأستاذ الكبير محمد داود ـ ج 1 ص 202.
(3) تاريخ الدولة السعدية لمؤلف مجهول الاسم، المطبعة الجديدة بالرباط ـ ص 95، وفي ص 97 يسمى أحدهم: المقدم محمد الصغير أبو الليف.
(4) الاستقصا ط. مصر ـ ج 4 ص 14.
(5) يقع مركزها على بعد 74 ك، م شمال مدينة مراكش.
(6) انظر عن ترجمته السعادة الأبدية، في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية، ط. ف ـ ج 2 ص 71 ـ 84، وانظر عن علي الرزيقي أو آخر الفصل الرابع من القطعة التي نقدمها.

وفي بلاد أحمر[1] اشتهر الإخوان سعيد وعلي[2] ابنا ناصر الحمري، من أصحاب الشيخ أحمد بن موسى الجزولي السملالي[3]، المتوفى عام 971 هـ/ 63 ـ 1564 م، وإلى هذين الأخوين ترجع مدرسة الرماية الحمرية[4].

وتمتاز مدرستا الجنوب عن مدرسة الشمال، بالالتزام التعليمي، وبالتباعد عن الطموح للحكم، فكان هذا من أسباب استمرار رماية الجنوب، وامتداد تعاليمها إلى العقود الأولى من هذه المائة الهجرية: 14.

وقد صارت بلاد أحمر ـ مع مر الزمن ـ هي المدرسة الأولى للرماية بالمغرب، وانتزعت تقدير الجميع من الملوك وسواهم، وسنعرف عن السلطان العلوي المولى إسماعيل؛ أنه كان يبعث بغلمانه ليتعلموا الرماية على أشياخها في قبيلة أحمر، ثم استمر على هذا السلاطين من بعده حتى أيام المولى سليمان[5]، وفي المائة الثالثة عشرة وأوائل التي بعدها، صار ملوك نفس الدولة يرسلون أبناءهم ليتعلموا وينشئوا في أحمر، حيث كانوا يتدربون هناك على ركوب الخيل والرماية تحت نظر شيوخ حمريين، كما يتلقون من آخرين القرآن والعلوم في دار هناك[6].

ومن بين الجهات المغربية التي انتشرت بها تعاليم المدرسة الحمرية قبيلة بني حسن والغرب، وسنعرف أساتذتها من بعد[7]، وفي سوس اشتهر اسم مقدم الرماة بها: أبي العباس أحمد بن إبراهيم العمري الماسّي، وكان بقيد الحياة أوائل عام 1270 هـ/ 1853 م، وهو من تلاميذ محمد بن موسى الخلاطي الشريف،

---

(1) مركزها هو قرية الشماعية، على بعد 70ك. م شمال مدينة مراكش.

(2) لا يزال مدفن علي بن ناصر معروفاً بمراكش عن يمين الخارج من باب الدبغ. وبهذه المناسبة ترجم له ابن الموقت في السعادة الأبدية ج 1 ص 140.

(3) ترجمته في «الأعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام» ج 2 ص 26 ـ 29: ط 1.

(4) سيرد شرح هذا خلال القطعة التي سنقدمها: أواخر الفصل الرابع.

(5) انظر أواخر الفصل الخامس من القطعة المشار لها.

(6) خلال جزولة لمؤرخ سوس المرحوم محمد المختار السوسي، ج 2 ص 33.

(7) أواخر الفصل الرابع من القطعة المتكررة الذكر.

والأخذ عن الرئيس أبي العباس أحمد بن زعيم[1]، وفي قريب من هذا التاريخ كان يوجد رئيس مذكور يسمى الكبير الإدريسي، وقد كتب ـ بخطه ـ إذناً في مشيخة الرماة للشيخ محمد بن حدو المطيري من آيت بن قاسم، بتاريخ عام 1285 هـ[2].

وقد كان من تقاليد المغرب القديمة أن يقيم الرماة في مختلف جهات المغرب حفلات سنوية يجتمعون فيها تحت أنظار مقدميهم، فيتبارون في الرمي وإصابة الأغراض، ويقيمون لذلك مآدب فاخرة، حتى إذا جاء الاحتلال ونزعت البنادق من الناس، تنوسيت هذه الحفلات بالمرة[3].

* * *

وقد انعكس ـ قليلاً ـ نشاط المدرسة الحمرية على التأليف والنظم، فكتبت موضوعات متعددة في هذا الصدد: بالعربية الفصحى أو الشعر الملحون، ونستعرض هنا أربعة من المؤلفات الفصيحة في الجملة، وكلها لا تزال مخطوطة:

وسيكون أولها: قطعة أثبتها أبو القاسم الفزكاري ـ آتي الذكر ـ أثناء شرحه لقصيدة روضة السلوان لأبي القاسم الفجيجي، وسنعيد الحديث عنها من بعد.

ونذكر ـ الآن ـ الموضوع الثاني الذي يحمل اسم «أحكام التحقيق، وما يدل أهل الرماية على الطريق»، وهو شرح لرسالة وجيزة في آداب الرماية، ومؤلفاهما ـ معاً ـ غير مذكورين، وجاءت صياغة الرسالة في أسلوب وجيز يحاذي طريقة المختصر الخليلي، كما أن موضوعاتها توزعت بين ثلاثة أبواب:

1 ــ باب ما يجب على الإنسان إذا أراد أن يدخل في طريقة أهل الرماية، وهي ثلاثة: النية، والشيخ، وآلات الرمي: من البندقية وما تقوم به من البارود والرصاص...

2 ــ باب ما يجب على الشيخ في حالة تعليمية، وهي العلم، والمعرفة بأحكام الرماية، والمعرفة بصنعة البارود.

---

(1) خلال جزولة ج 2 ص 33.
(2) وثيقة خاصة في حوزة البعض.
(3) خلال جزولة ج 2 ص 41.

3 ــ باب شروط أهل الرماية من الشيخ والمقدم والطلبة المتعلمين.

وقد ألحق بهذا التأليف باب فريد في التعريف بطريقة العمل في الرماية مر بدايتها إلى نهايتها، وصفة تعليمها على الوجه الأكمل.

أما الموضوع الثالث: فهو شبه رسالة تشتمل على منثور ومنظوم في أسلوب مهلهل، وواضعها من سكان مدشر بني عمار من جبل زرهون في حوز مدين مكناس، وهو يسمى نفسه: محمد بن محمد بن عبد الكريم الخمسي العمراني. وقد ضمن رسالته الأوصاف المثالية للأشياخ والمقدمين وسائر الرماة، وحد طريقة تعليم الرماية وكيفية صنع البارود، ويبدو من سياقه أنه عارف بالفن، غير أن ضعيف في الثقافة العربية.

4 ــ وأخيراً: رسالة بأسلوب فصيح، من تأليف محمد بن الحسن الحيحي ثم الزلطني الهلالي، الذي فرغ من تأليفها في الرابع من جمادى الأولى، عا 1295 هـ/ 1878 م، وقد كتبها استجابة لرغبة بعض الرماة، واستند في مصادره إلى الأصول العلمية الصحيحة، كما اهتم بالتنبيه على البدع التي ابتدعها المتأخرو من الرماة، وهو يرتبها على مقدمة وأربعة أبواب:

ــ المقدمة: تناول فيها الرد على بدع الرماة في عصره.

ــ الباب الأول: استعرض فيه أصول الرماية في الإسلام، وما ينبغي للرما أن يعرفوه عن البنادق في تركيبها وعمارتها.

ــ الباب الثاني: في فضل الجهاد وآدابه.

ــ الباب الثالث: في الاصطياد.

ــ الباب الرابع والأخير: في المواعظ، وصدره بالتعريف بالقواعا الإسلامية الخمسة.

* * *

ونعود ـ الآن ـ إلى قطعة شرح روضة السلوان، ونذكر أن مؤلفها يسمي نفسه: أبا القاسم بن الهاشمي بن قاسم بن عثمان الشريف العمراني، الفزكاري دار ومنشأ، وكما علمنا ـ سلفاً ـ فإن هذه القطعة مستخرجة من شرح مؤلفها علي

روضة السلوان للفجيجي، وقد فرغ من وضع هذا الشرح ضحوة يوم الاثنين التاسع من ذي الحجة، عام 1211 هـ/ 1797 م.

ويبدو من أسلوب هذا الشرح أن واضعه عارف بالفقه وبفن الرماية، غير أنه ضعيف في الثقافة العربية، حيث تتكرر في كتاباته تعابير عامية وأخرى ملحونة، كما سنراه في نفس القطعة التي نقدمها، ولا يعرف لحد الآن نسخة كاملة من هذا الشرح سوى مخطوطة المكتبة الملكية، وفيما يظهر فهي مكتوبة بخط المؤلف نفسه، وتحمل رقم 506، والمؤلف يرتب القطعة المتحدث عنها في سبعة فصول:

الأول: في فضل الرماية.

الثاني: في وصف المدفع الذي يعني به ما يسمى بالبندقية أو المكحلة.

الثالث: في طريقة صنع البارود.

الرابع: في صفة الشيخ الذي يعلم الرماية.

الخامس: في كيفية تعليم الرماية على الوجه الأكمل.

السادس: في حكم الاصطياد ببندقية الرصاص...

السابع: في كيفية اصطياد الحيوان البري.

وسنختار من هذه القطعة ما يهم هذه الدراسة لنقدم نصه مع حذف ما لا ينسجم مع الموضوع.

وخلافاً للشرح بتمامه، فإن هذه القطعة تعددت منتسخاتها، ونذكر منها ثلاث نسخ: إحداها تقع ثانية مجموعة بالخزانة العامة كـ 1598، من ص 10 إلى ص 27، والثانية ضمن مجموعة في الرماية في حوزة البعض، والثالثة: نسخة خاصة بها بتر، وبهذا يصير مجموع النسخ المعتمدة من هذه القطعة أربعة، غير أنها متخالفة فيما بينها بالزيادة والنقص، وأتمها هي نسخة المؤلف الواردة ضمن الشرح، على احتياجها في بعض الحالات للمقارنة مع النسخ الأخرى، وقد اجتهدت في الجمع بين المخطوطات المشار لها حتى استخرجت منها النص الذي أقدمه.

وكما أشير له سابقاً فإن هذه القطعة تكررت فيها التعبيرات العامية واللحن،

وإذا اغتفرت هذه الظاهرة للمؤلف، فإن النص يقدم صورة مشرقة لنشاط الرماة الشعبية بالجنوب المغربي.

ففي الفصل الثاني: يعرف الرماة بصفة البندقية التي تصلح للرماية، ويذكر طريقة فحصها في جعابها وزنادها، ويستعرض ـ بهذه المناسبة ـ ثمانية أسماء لثمانية أنواع من البنادق المغربية الصنع، ويلاحظ أن للشعراء الشعبيين فيها قصائد ملحونة في تفضيل بعضها على بعض، كما يسجل أن صنعة المغاربة في الزنا أفضل من صنعة الأوربيين، وأن أحسنه ما كان من عمل مدينتي مكناس وفاس.

ويخصص الفصل الثالث لعرض طريقة صنع البارود من أول مرحلة إلى آخرها، حسبما أخذها المؤلف عن أشياخ بلاد أحمر وغيرهم من أهل الفن، وهو يذكر أنواع ملح البارود المستخرجة من الأرض المغربية، وطريقة تقطيره وطبخها، وصفة سحق البارود.

وفي الفصل الرابع: يذكر صفة الشيخ الذي يعلم الرماية، ويقدم أسماء الرماة الأولين بالجنوب المغربي، كما يأتي بلائحة للأشياخ الذين أدركهم ببلاد أحمر وحوزها، مع ذكر سيرة البعض منهم، ثم يتحدث عن انتشار الرماية من هذه الجهة إلى بلاد الغرب وبني حسن.

أما الفصل الخامس: فيستوسع فيه في التعريف بطريقة تعليم الرماية للراغبين فيها من البداية حتى النهاية حسب المنهاج الذي تلقاه عن الأشياخ ببلاد أحمر.

ثم يأتي الفصل السادس الذي يضمنه المؤلف كيفية صنع الرصاص المكور ثم المنهال الذي يخصه العرف المغربي باسم الرش.

وأخيراً: الفصل السابع في طريقة اصطياد الوحوش البرية.

وهكذا نتبين من هذا العرض أهمية القطعة التي نقدمها في التعريف بهذه الرماية الشعبية في الجنوب المغربي، وخصوصاً في الطريقة التي كان الرماة يسيرون عليها في التعرف على جودة السلاح المعني بالأمر، وفي مباشرتهم صنع البارود والرصاص والرش، وإنجازه بأيديهم في مصانع فردية بسيطة، وأخيراً في المنهاج الذي يتبعونه في تلقين الرماية للراغبين في تعلمها.

وهذه كلها معلومات قيّمة ونادرة، تمدنا بها هذه القطعة التي نقدم ـ فيما يلي ـ نصها انطلاقاً من الفصل الثاني حتى الفصل السابع:

«الفصل الثاني في صفة المدفع ـ أي المكحلة ـ التي تكون بها الرماية، التي هي الآن مكان القوس الذي كان في أول الزمان».

اعلم أن الرماية لا تحصل للإنسان إلا بتحصيل شروطها كلها، فإن اختل شرط من شروطها فسدت، وها أنا أشير إلى ما أمكن لنا من ذلك فأقول:

أول شروطها تحكيم صنعة الجعبة وإقامتها من حديد جيد: من معدن رطب، وحروشة الحديد لا تستقيم معه صنعة دون ذكر الجعبة، ولذلك كانت جعبة الروم تفوق جعبة المسلمين، وما ذلك إلا لكثرة الحديد في بلادهم، ولا يصنعون الجعاب إلا من حديد جيد بالغ الغاية في الرطوبة، فإذا دخل فيها البريم[1] مرة أو مرتين أو ثلاثة صفت مثل الزجاجة، وبرطوبة الحديد وكثرة طبخه تتفاوت الجعاب في الجودة والرداءة، وليس الأمر كما يزعم بعضهم: أن عمل ابُوري وتَاسَدَّ ماض ينفذ من الفاس، وعمل امْلَوَّحْ وأجوان وظهر السطح يوصل إلى البعد، وعمل جوهر الدار، وأمجدام، واعسيلة، يفتت الحجر ويهشم العظم[2]، ووضعوا على ذلك قصائد بالملحون يخيرون بعضهم عن بعض من ظاهرهم[3]، فمن سمع ذلك منهم ظن أن الأمر كذلك وليس كذلك، وإنما المدار على تحكيم الجعبة ورطوبة الحديد وتصفية الجعبة من داخل، واستواء فَمِها مع خزانتها في السعة والضيق، وعدم العتبة وعدم التشقيق والترشيح في الحديد من داخل، فإذا كان قلبها مثل الزجاجة واستوى فمها مع خزانتها في السعة والضيق، بحيث لو وضعت الرصاصة في فمها هبطت هبوطاً مستوياً إلى خزانتها فهي الجيدة، ولا عليك في عملها من

---

(1) يقصد البريمة التي هي آلة الثقب.

(2) استعرض هنا ثمانية أسماء لثمانية أنواع من جعبات البندقية الوطنية، وسيقول النص وشيكاً: إن أسماء الجعاب إنما يسمونها على برادة ظاهرها وفمها من خارج... وانظر التعليق رقم 1 ص 1164.

(3) هذا وارد في قصيدة ملحونة جاء في مطالعها:

يا لرام اسمع ما في الكتب يذكر كيف قالوا ماهرين العلم الفدا

أي نوع كان، لأن أسماء الجعاب إنما يسممونها على برادة ظاهرها[1] وفمها مر خارج، فكل اسم من أسماء الجعاب له برادة مخصوصة من فوق يمتاز بها عر غيره، ومن الباطن كلهم واحد، وجود الجعبة هو من داخل لا من فوق، ولا يفضل المبسوط على الملوي ولا العكس، لأن الحديد إذا طبخ طبخاً جيداً حتى يصير ماء وصار جسداً واحداً لا ينظر إلى تفاوت بعضه بعضاً قبل الطبخ كان ملوياً[2] أو مبسوطاً، نعم إذا لم ينصحب الحديد حتى يصير جسداً واحداً قام ب البارود سواء كان ملوياً أو مبسوطاً.

فإذا عرفت هذا وتوصلت إليه بعقلك علمت أن تقليب الجعاب إنما هو من داخل، وكيفية تقليبها أن يضع مسماراً في الجعبة ليجعله في رأس المدك[3] كالغسال، أو يحدد رأسه مثل الإبرة، ويعوجه مثل السنارة على قدر فم الجعبة ويسمره في رأس المدك، وينزله في فم الجعبة ويهبطه فيها هبوطاً مستوياً إلى خزانتها وهو يحسحس فيها يميناً وشمالاً، فإن كان فيها شق أو تحفير أو عتبة أو حروشة قبض فيها رأس المسمار، وإذا كانت مثل الزجاجة لم يقبض في شيء ولم تلقه حروشة أصلاً، واستواء فمها مع أصلها يستخبره برصاصة على قدر فمها، فإذ وضعتها ونزلت على رأس المدك نزولاً مستوياً بحيث لو اتسع موضع منها أو ضاق تقطنت به وعلمت موضعه، هذا هو التقليب الذي لا يخفى معه عيب، وأما تقليب حدادين المدن بأن يجعل فيها شبراً[4] من البارود ويخرجها، فإن انكسرت فلربها، وإن سلمت فَلِلْمُشْتَرِي، فالحق خلافه، وكذلك تقليب أهل البوادي بأن ينظر ظاهرها، فإن ظهر له فيها شق رجعت وإن لم يظهر له فيها شق فللمشتري، فهو أيضاً خلاف الحق، قال الشيخ خليل: ووجب تبيين ما يكره، والعيب كله يكرهه المشتري، سواء كان لي ظاهرها أو في باطنها، والعيب الذي هو في باطنها أقبح من الذي هو في ظاهرها، وقد سمعت كيف يتمكن من الوصول إليه، وهذا

---

(1) البرادة هنا بتخفيف الراء، وهي ـ بضم الباء ـ ما سقط من الحديد ونحوه عند البرد، والظاهر أن المؤلف أطلقها هنا على شكل برد خارج جعبة البندقية.

(2) يقصد به الحديد قبل بسطه.

(3) تعبير عامي عن المدك بكسر الميم لآلة الدك.

(4) وزن خاص من البارود.

التقليب لا يخفى على العارفين بالصنعة المذكورة، وإنما يردهم عنه قلة دينهم والتسامح في حقوق المسلمين، فلو خافوا الله تعالى لقلبوها ظاهراً وباطناً، وما فيها من عيب وصفوه للمشتري ليدخل عليه أو يرد، لأن الشيء المعيب إذا علم عيبه جاز بيعه، وقول صاحب التحفة:

وكـامـن يبـدوا مـع التعييـر كالسوس لا يرد في الماثور

هو كسوس الخشب وعفن الجوز وهي الغثا، فإن هذا لا يظهر إلا بتعيير المبيع، فلا يرد به، وعيب الجعبة الذي هو باطنها يطلع عليه أهل المعرفة بلا تعيير المبيع، والله أعلم.

وأما الزناد فصنعة المسلمين فيه أفضل من صنعة الروم، وأفضل الزناد ما كان شقراوي: من عمل مكناس أو فاس إذا كمل طلوعه شبراً أو ما يقرب إليه، وأما أقل من ذلك فهو مكتف لا خير فيه، وتكون نقشته متوسطة في القوة، ولا خير في الصعيبة الطلوع والنزول، وأفضلها ما يطلعها ربها بأصبع واحد، ونقشة السبيكة تكون مساوية للأخرى في القوة، فإذا كانت أقوى منها انكسر الحجر، وإن ضعفت عنها هربت السبيكة عن الحجر بسرعة وقلت النار بينهما، وكان محكم البرمة سريع اندفاع الغطاء من صحة المخيط سهل القرص، وكان تركيب جميع ما ذكرنا في السرير تركيباً حسناً بحيث يجعل عين الجعبة متساوية مع طرف البرمة، لا مرفوعة عنها ولا منحذرة، وطرف البرمة مصحوب مع الجعبة لا يدخل بينهما الماء، وعجفة الذراع تكون منحدرة من حد الكلاطة انحداراً حسناً إلى أن تفوت دفعة الدغمة، وترتفع الراية حينئذ إلى أن يشرف قرنها الأعلى على نيشان الخزانة، بحيث إذا وضعت عينك على قرن الراية ظهر لك النيشان الأسفل والأعلى، وطول الذراع يقيسه مالكه بشبره لا بشبر غيره، من نيشان الخزانة إلى رأس الراية: شبر وفتر، والفتر ما بين السبابة والإبهام، وكل شخص يقيس ذلك بيده، ولا يصلح أقل من ذلك ولا أكثر منه، وهذه المدافع[1] التي تستقيم بها الرماية مع بقية الشروط التي سنصفها لك إن شاء الله تعالى.

(1) يقصد بها البندقيات.

الفصل الثالث: في صنعة البارود المحدث في زماننا، قيل أخرجه بعض الحكماء، قيل إنه كان يصن حكمة وقطر الملوحات كلها، فلما قطر ملحة الكهوف وضع منها شيئاً في النار يستخبرها هل تفعل مثل ملحة الطعام أم لا؟ فقبضت فيها النار وخرج منها لسان أزرق مثل نار الكبريت، وقال هذه النار تشابه نار الكبريت فيصلح أن أضيفها لها، فأضافها إليها ودقها دقاً نعيماً واستخبرها بالنار، فاندفعت اندفاعاً قوياً ظن أن لو كانت الجبال فوقها لدفعتها من كثرة قوتها وجهدها، فقال: هذه حكمة أخرى علمها لنا الحكيم العليم، فصار يخوض بعقله ما يصلح بهذه الحكمة، فلما استخبرها ـ مراراً ـ وجد أنها إذا كانت في مكان محصور اندفعت اندفاعاً قوياً أكثر مما إذا كانت في مكان متسع، فصنع لها جعبة من حديد واستخبرها فرءاً منها أمراً عظيماً في القوة، فلما كان يعلم من قبل ذلك أن الحموم تسرع إليه النار، وكانت الناس تزند به النار قبل ذلك، أضاف الحموم إليها ودقها مع الجميع حتى انضجت مع ذلك، فلما استخبرها وجد النار تسرع إلى ذلك أخف من طرفة العين، ومن ثم تفهمت الحكماء وأهل الصناعة حتى صنعوا المدفع، وكان في أول الأمر يخرجون المدفع بفتيلة فيها نار، ثم استخرج أهل الصناعة الزناد تنقدح النار منه[1]...

وها أنا أصف لك صنعة البارود حسبما أخذنا ذلك عن أشياخ أحمر وغيرهم من أهل الفن، اعلم أن أجود الملحة ملحة الكهوف والغيران في رؤوس الجبال الشامخة التي لا ترى مطراً ولا ريحاً فإنها تنبت فيها أسناناً أسناناً، وفي الموضع الذي يهب الريح فيه، يكون التراب فيه مدسماً بها فقط، لا تعرفها حتى تذوقه بلسانك، ولم تظهر للعيان كملحة الغيران الكبار، وأحط من هذه رتبة في الجودة ملحة الغيران التي تهب فيها الرياح والهواء البارد، وأحط منها منزلة التي ينزل عليها المطر في الشتاء ويمحيها، ولا تظهر إلا في الصيف والخريف كملحة

---

(1) انظر عن تاريخ اختراع البارود وتعيين مخترعه:
الترجمة العربية من المصادر التالية: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ليوسف أشباخ: ج 2 ص 58، 346 ـ 347 مع سيديو في تاريخ العرب العام: ص 489 ـ 490، وحضارة العرب لغوستاف لوبون ـ ص 576.

مراكش، فإنهم هناك يجمعون ترابها من الطرقات والمواضع التي لا تنبت الربيع، فيخرجون عند صلاة الصبح فيجدون ترابها مدسماً كأنه هرق عليه زيت، وهو خطوط في الطريق، ويكرطونه بكراطة من حديد، ويجعلون في كل موضع صابة[1] حتى تُحمى الشمس، فإذا سخن النهار غاب ذلك الدسم الذي يرونه، ويصير يأخذ ما جمع أول النهار، وهو أضعف الملحة.

وكيفية تقطير الملحة أن يبنى حوضاً من جير أو طين جيد على هيئة الكسكاس، يكون من أسفله ضيقاً قدر الشبر أو أقل، وفيه ثقبة منحدرة إلى أمام ومن أعلا واسعاً، ويجعل في فم الثقبة أعواداً رقاقاً وعليهم شقف ليقبض التراب من النّزول إلى الثقبة، ويجعل تحت الثقبة قصعة ليقطر فيها الماء، ويجعل التراب حول ذلك على الأرض مكيلاً بمد، ويضيف إليه ربعه من الرماد أو ثلثه، وليس التراب كله واحد، لأن فيه ما يحمل الربع، وفيه ما يحمل الثلث، وفيه ما يحمل الخمس أو السدس، يجربه أولاً حتى يعرف ما يصلح به، ثم يرشه بالماء ويخلطه حتى يكون مثل الطعام الذي تجعله المرأة في الكسكاس، ويتركه ساعة حتى يسري فيه الماء ويلين ترابه ويدخل الماء في جميع أجزائه، ثم يأخذه ويضعه في القطارة المذكورة برفق كما تصنع المرأة الطعام في الكسكاس، ويسوي التراب بيده برفق ويجعل عليه صفيحة صغيرة أو شقفة خفيفة، ويصب الماء على الشقفة صباً معتدلاً حتى يعلو الماء فوق التراب، ويتركه حتى ينشف الماء، ثم يصب عليه الماء ثانياً حتى يعلو الماء أيضاً فوق التراب، ويتركه يقطر في القصعة حتى يقف عن القطر، ويرفع الماء ويجعله في صطلة من نحاس أو قدرة من تراب ويجعل تحته ناراً لينة، فإذا غلا الماء علته رغوة فيخرجها عن سطح الماء بشيء يصنعه بقصد ذلك ويرميه، لأن تلك الرغوة هي أوساخ التراب، ولا يقوي النار عليه لئلا يحرقه، فإنه إن فاتت فيها النار لم تصلح لشيء، ويستخبرها هل طبخت أم لا بأن يضع فيها رأس عود ويقطر منه قطرة على ظفره أو على صفيحة من حديد أو غير ذلك، فإن عقدت أطراف النقطة وبقي وسطها ماء فقد بدأها الطبخ ولم تكمل، وإن انعقدت النقطة كلها فأزِلْها عن النار عزماً، واتركها في موضع لا يهب فيه الريح ولا يحركها أحد،

(1) تعبير عامي يقصد به هنا الحصة من الملح.

فإذا بردت ووضعت أصبعك فيها ووجدتها مثل ماء الوضوء ورأيت أطراف الماعون أرادت الملحة أن تضرب فيهم مثل الدسم، فاستحضر قصعة جديدة لم يقربها طعام أصلاً، واغسلها وضع حولها الماعون، وخذه بكياسة، وميله بلطافة، وصب الماء في القصعة برفق، فإنك تجد في آخر الماء ملحة الطعام تقعدت في الماعون من الماء، لأن ملحة الطعام لا بد لها أن تكون مع ملحة البارود ولا تنفك عنها إلا بهذه الحيلة، لأن ملحة الطعام ثقيلة وتنعقد قبل عقد الأخرى، ولا تنعقد إلا في أصل الماء، فإن لم تزلها بهذه الحيلة بقيت في ملحة البارود، وهي التي يطلق البارود من أجلها مزاريق تحرق حواجب الرامي وتعمي عينه، والبارود الذي بقيت فيه ملحة الطعام لا يصلح في الشتاء، ويحس بالبرودة وهو مخزون، ولذلك كان بارود الروم يخزن في براميل العود السنين الكثيرة، فإذا أخرجوه وجدوه مثل رملة البحر، وليس كذلك بارود المسلين، وما ذلك إلا لتصفية ملحة الطعام، ثم ضع أعواداً رقاقاً على وجه الماء الذي في القصعة لتضرب عليهم الملحة، وضع القصعة في موضع لا تهب فيه الريح، وأحسن طبخ ذلك عند عشية النهار، لتبيت الملحة في القصعة ويبرد عليها الليل، فتضرب ضرباً حسناً، وبالغد أمل القصعة في الأرض حتى ينحدر الماء وتبقى الملحة ضاربة في العيدان وأطراف القصعة، وانصب القصعة للشمس واتركها مائلة تقطر حتى تيبس ولا يبقى بها بلل، فأزلها حينئذ من القصعة واجعلها على ثوب في الشمس.

فإذا أرادت تسحيرها بعد ذلك فاجعل الملحة في زلافة مثلاً، وسوء الملحة مع طرف الماعون، وضعها في الصطلة، ثم اجعل في الزلاقة ماء قدر ما كانت الملحة، وصبه على الملحة من الصطلة، ثم اجعلها على نار لينة، وافعل مثل ما وصفت لك أولاً: حرفاً بحرف، إلا أن الماء الذي ينزل في القصعة عاوده بالطبخ، فإنه يخرج منه ملحة أخرى وهي أقل من الأولى، وشمس الملحة أياماً فإن الشمس تصلحها، وهذا القدر الذي ذكرنا لك في الماء في التشحير هو الوسط، ومن كانت الملحة عنده كثيرة ولم تكن عنده بالشراء وأراد المبالغة في تصفيتها، فيجعل الثلثين من الماء والثلث من الملحة، فإذا وضع الصطلة على النار وغلت الملحة وأزال رغوتها، جاء ببيض الدجاج وفرغ منه بياضه في زلافة وترك أصفره فيها، يفعل ذلك بثمانية أو عشرة، ثم يصب ذلك في الصطلة بعد استخباره الملحة في

الطبخ فوجدها قريبة من الطبخ، كب فيها البياض كما ذكرنا، فإذا غلت الصطلة على البيض انجمعت عليه رغوة الملحة وفيه أوساخ الملحة كلها، فإذا طبخت وأزالها على النار، وتركها حتى تضرب ملحة الطعام في آخرها كما ذكرنا، وأراد أن يحول الملحة إلى القصعة، وضع على وجه القصعة توتو خفيفاً نقياً لا وسخ فيه، وقبضه غيرك من هنا ومن هنا، وفلت الماء على ذلك، فيبقى على الثوب البيض والعشب وكل شيء هو في الملحة، وينزل الماء صافياً، وبالغد أمل الماء عن الملحة بكياسة حتى تبقى الملحة مثل الزجاج وأصفى من ذلك، ثم اجعل في زلافة ماء بارداً، صافياً، وخذ ليقة من صوف نقية وغمسها في الماء المذكور، ثم أمل القصعة على جنبها، وعصر الصوفة على أطراف الملحة في القصعة، وعد من الجهة الأخرى، فينحدر الماء في الملحة ويخرج من أسفل بجميع ما بقي فيها من الوسخ وتبقى الملحة مثل قضبان الفضة، شمسها بعد ذلك وارفعها، هذا ما رأينا الأشياخ يفعلون في ملحة البارود، وفعلناه بعدهم رحمهم الله.

فإذا أردت صفة دق البارود، ففي الصيف والخريف اجعله سباعي، وفي الشتاء والربيع اجعله خماسي أو سداسي، أو خماسي في سداسي، لقلة النار في الأول، ولكثرتها في الأخيرين.

وصفة ذلك أن تزن خمسة أرطال من الملحة مثلاً، أعني بالأرطال الأجزاء، سواء كان الحجر الذي تزن به رطلاً أو أقل منه، وزن رطلاً من الكبريت، واجعل ذلك في مكان، ثم زن ستة أرطال أيضاً ملحة أخرى، وزن أيضاً رطلاً من الكبريت، وذلك كله بذلك الحجر الذي وزنت به أولاً، وضع الكبريت الأولى مع الثانية، والملحة الأولى مع الثانية، فهذا هو الخماسي في السداسي، وإن شئت جعلته سداسي فقط، فستة ملحة والسابعة كبريت، وإن شئت جعلته سباعي فقط، فسبعة ملحة والثامنة كبريت، والذين يبيعون البارود في الأسواق إنما يجعلونه عشاري أو أكثر لغلاء الكبريت عليهم، وقد قيل لنا إن بعضهم كان يحل الكبريت حتى يصير ماء، ويصبها على الملحة ويعركها فيها مثل من يدهن الطعام بالسمن، ويدقها ويكثر فيها الفحم، وهذا من الغش، وما رأينا أشياخ أحمر يزيدون على السباعي فقط.

فإذا أوزنته على أي وزن أردت مما ذكرنا لك، فانظر مهرازاً جيداً، أفضله من حجر الرخام الأبيض، أو من الأسود الأرطب، أو من حجر يصلح للجير، وأما حجر الرمل الذي لا يصلح لطبخ الجير، فإنه يزند النار كثيراً، ويطلق غبرة الرمل، وإن لم يجد الحجر فمهراز العود الذي ليس في ثماره زيت، مثل عود البلوط أو البطم أو الدردار، ويرمي الكبريت في المهراز وحدها إن لم يكن عنده رحا، ويدقها ثم يغربلها بغربال الحرير، ويرد ما بقي للمهراز ثم يدقه ويغربله ثانياً وثالثاً، ويغربلها على جلد مدبوغ لم يقربه الزيت ولا الوسخ، ثم يرمي الملحة في المهراز وحدها، ويفعل بها مثل ما فعل بالكبريت، ثم يضيف الكبريت على الملحة، ويدق الجميع دقاً بليغاً حتى يمتزج بعضهما ببعض، فحينئذ يأتي بوزن[1] وربع من الفحم بذلك الحجر الذي وزن به الكبريت والملحة.

وأفضل الفحم الذي ذكر لنا الأشياخ فحم الدفلة الجديدة النابتة قرب الماء، لا العطشانة أو العود الشارف منها فلا خير فيه، بل يقطع منها العود الجديد البعيد عقدته، ويزيل قشرته ويرشقه، ويزيل المخ الذي فيه في وسطه، فإنه إذا احترق المخ صار مثل التراب، ويجعل ذلك في الشمس ويحرقه على فم حفرة، فما احترق منه سقط في الحفرة، ثم يجعل على الحفرة حجراً أو غيره لئلا يمسه الريح ويصير رماداً، والبلاد التي ليس فيها دفلة يجعله من أمصالح لنطار أو المتنان أو عود الماء، ثم يخرج الفحم ويغسله بالماء من الرماد، ويزيل منه ما لم يحترق، ويجعله في الشمس ينشف من الماء، وحينئذ يزنه: يجعل منه وزنه وربع كما ذكرنا، ويضيفه على ما تقدم ويدق الجميع، وأفضل ما يسقي به البارود الماء وحده. وما ذكروا من سقيه بماء البصل أو ماء السواك أو الماء المطفي فيه حجر الجير، كل ذلك لم يفعلوه الأشياخ المقتدى بهم في هذا الفن ولا أخذته عنهم.

وقلل البارود في المهراز قدر الحاجة، فإن الكثير لا يندق، وإذا كان اثنان يدقان فليضرب الثاني في موضع ضرب الأول في وسط المهراز، لينقلب البارود بعد أن يطلع مع أجنابه، وذلك كله إذا كان الضرب معتدلاً في موضع واحد، ويلثه

(1) الوزنة بالتاء أخيراً: ستة أرطال حسب الوزن المغربي القديم.

بالماء قدر الحاجة، بحيث لا يكون يابساً يطير ولا معجوناً يهرب من تحت رأس المدقة، والإنسان عينه ميزانه، ولا يعد الضربات كما يفعله بعضهم، فإن الضرب ليس كله واحد.

وأما استخباره هل اندق أم لا؟ بأن تأخذ جنوي ماضي، وتقطع من الكورة التي في وسط المهراز تحت المدقة وتنظر فيه، فإن بقي فيه شيء لم يندق ظهر عيون بيض، وإن اندق ولم يبق فيه شيء وقطعت من الكورة شيئاً، وجدت قلبها مثل الكبدة لا نقط فيه، هذا أصح الاستخبار في البارود، والذي يقرب منه في الصحة أن تخرج التلحيق[1] منه في ظلمة الليل، فإن بقي فيه شيء ظهر قطعاً في ظلام الليل، وإن صفا فـي الدق ظهر، وأما في النهار فإنما تظهر خفته فقط، وقد يكون خفيفاً من جودة اللحم وكثرته وهو لم يندق.

فإذا استخبره وقطع منه الشك أنه اندق، ضرب عليه ضرباً رفيقاً حتى يصير كورة في المهراز، ويجعله في غربال من الجلد واسع العيون، ويجعل معه أربعة أحجاراً وخمسة قدر بيضة الدجاج من حجر الوادي مكورة لا حروشة فيهم، ويغربله وهم يتلاطمون في وسط الغربال مع البارود على جلد مدبوغ، ثم يعيده بغربال صغير العيون من الشعر أصغر من عيون الأول، فالغبرة تهبط والبارود يبقى، ورد الغبرة إلى المهراز، وعاودها بدقة أو ثلاثة أو أربعة، وعاوده أيضاً بغربال الجلد كما ذكرنا حتى تكمل عملك، وشمسه في الشمس، هذا ما أخذناه عن الأشياخ من صنعة البارود.

الفصل الرابع: في صفة الشيخ الذي يعلم الرماية، اعلم أن منصب الرماية منصب شريف، ونعمة عظيمة، كما تقدم في الحديث السابق إن من ترك الرمي بعدما تعلمه فقد ترك سنة، وفي رواية فقد ترك نعمة، فإذا علمت أنها من النعم التي يجب الشكر عليها، فعليك أن تبادر إلى شكرها بالنية الصالحة، فهي تعلمها لنفسك، وتعليمها للناس، كما تقدمت الإشارة إلى ذلك، فإذا فسدت نية الشيخ قلّ من ينتفع على يديه، والغالب على أشياخ زماننا فساد نيتهم..

(1) كأنه يقصد القطعة المأخوذة من كورة البارود التي في وسط الهاون.

واعلم أن الرماية لها ثلاثة شروط شرط صحة، لا بد من هذه الشروط للشيخ وللمتعلم، فإن ترك شرط من هذه الشروط بطلت رمايته، وكانت ناقصة البركة، ولا ينتفع أحد على يده:

الشرط الأول منها: النية، فمن لم يكن له نية لم ينتفع بشيء، والثاني: المحبة، من لم يكن له فيه محبة لم ينتفع بشيء، والثالث: التسليم، من لم يكن فيه التسليم ويكون قلبه صافياً على كل أحد، يحب للناس ما يحب لنفسه، لا ينتفع بشيء، ولا ترجى فلاحته.

وقد أدركنا أشياخاً كباراً أخياراً أجلة ببلاد أحمر وحوزها، يعلمون الناس الرماية بنية صالحة، وحالة مرضية، رحمهم الله تعالى ورضي عنهم.

كمثل سيدي سعيد بن محمد الناصري[1]، القاطن فوق زيمة[2] بموضع يقال له رأس عين عريض، وكان ـ رحمه الله ـ خيراً ناسكاً عابداً، مشتغلاً بجهاد نفسه، ممن ترضى أحواله، ويقتدى به في الرماية والفروسية، كانت ترد عليه الوفود لتأخذ عنه الرماية وركوب الخيل.

وكذا الشيخ العابد المحب، السيد أبو عزة بن عبو بن دباج اليريوي، وأخوه السيد محمد بن عبد الله بن دباج، وولد عمهم الشيخ المحب الخير، الشيخ علي المكني ولد منانة، كان يكنى بأمه[3]، وأمثال هؤلاء مما يطول علينا ذكرهم من قبيلة أحمر: من السادات النواصر ومن عامة القبيلة.

وكذا أدركت ـ أيضاً ـ في زاوية سيدي أبي زيد بن إلياس[4] بواد شوشاوة من

---

(1) نسبة إلى الناصريين الحمريين، أخذا مما سيأتي قريباً.

(2) لا يزال هذا الاسم معروفاً بمقربة من الشماعية: «بحيرة زمية».

(3) أعاد المؤلف ـ مرة أخرى ـ ذكر هذا الشيخ في موضع آخر من شرح روضة السلوان عند قول النظم: «فصحة جسم ثم صحة ناظر...»، وهو يقول في هذا: «وقد لازمت في صغري بعض شيوخ الرماية في بلاد أحمر، وهو الشيخ علي بن أحمد اليريوي المكنى ولد منانة، وكان ـ إذ ذاك ـ كبير السن يزيد على الثمانين سنة...».

(4) لا يزال بشيشاوة فرقة تحمل اسم سيدي بوزيد.

قبيلة داوبلال[1]: الشيخ البركة المسن، الشيخ أحمد الرزيفي، كان ـ رحمه الله ـ رجلاً كبير السن، ألف[2] في عمره، وكان يوم الخميس يأتي إلى سوق الخميس قرب ضريح سيدي أبي زيد بن إلياس[3]، ويجلس في طرف السوق، ويأتون إليه الناس يتبركون منه ويدعو لهم بخير، ويأخذون من باروده بقصد التبرك، لأنه كان يصنعه ويأتي به للإخوان المحبين في الرماية، ويأخذون عنه الرماية وصنعة البارود على الوجه الحسن، وكنت ملازماً بزاوية سيدي أبي زيد المذكور، وكنت نزوه في مكانه، ونتحدث معه، ويحدثني بما كان يفعل في حالة صحته وشبابه في صيادة الغزلان وغيرها، ويصف لي كيفية الصيادة وكيف يؤخذ الوحش في حال غرته، ويصف طبائعه، لأن كل وحش له طبع مخالف عن الآخر، فإذا كان الصياد عارفاً بطبائع الوحوش كلها سهل عليه أخذها.

وكان ـ رحمه الله ـ قصير القامة، نحيل الجسم، إذا مشى على الأرض لا تسمع له حساً لصغر ذاته، ورطوبة أعضائه، وكان يحدثني في شأن الصيد وكيفية أخذه بما يبهر العقول، وكان يحضنا على الكياسة والبطر وأخذ الوحش في غرته وغفلته، وكان رجلاً حرطاني، جده سيدي علي الرزيفي من تلاميذ الشيخ سيدي عبد الله الغزواني صاحب القصور بمراكش، مرافق له ومن خيار أصحابه...

وأما رماية قبيلة أهل أحمر فمأخوذة عن الشيخ سيدي أحمد وموسى الشريف السملالي السوسي، كان سيدي سعيد بن ناصر الحمري وأخوه سيدي علي بن ناصر المذكور، من أصحاب الشيخ سيدي أحمد بن موسى المذكور...

وأول من دخل من قبيلة أحمر بلاد الغرب السيد سعيد الحمري البهيسي نزيل حوز زيمة جوفا منها، ودخل الغرب في زمان الباشة لحبيب المالكي[4]، وأخذ عنه

---

(1) تقع ـ اليوم ـ ضمن قبائل الجيش: ناحية مراكش.

(2) تعبير عامي يدل على معاوية نبات الأسنان في سن الهرم بعد سقوطها.

(3) انظر عن ترجمته «جواهر الكمال» للكانوني: القسم المخطوط.

(4) كان يتولى قيادة الغرب أيام السلطان العلوي محمد الثالث، واشتهر اسمه بموقفه البطولي في صد الهجوم الفرنسي ضد مرسىٰ العرائش مفتتح عام 1179 هـ، وورد ذكره في حوادث هذه السنة في تاريخ الضعيف، ثم في «الاستقصا»: الطبعة المصرية ج 4 ص 100.

خلق كثير بالغرب وبني حسن وغيرهما، وتوفي رحمه الله وترك هناك ولده السيد محمد بن سعيد، وهو الآن في بني حسن[1]، ثم من بعده دخل بلاد الغرب رجل من فقراء النواصرة النازلين في بلاد أحمر بغير أن النحاس، يقال له الشيخ ناصر بن عبد المولى الحمري الناصري، وله حالة حسنة، ونية صالحة في تعليم الإخوان الرماية، وله نفس عالية عما في أيدي الناس، ويحض إتباعه على الصلاة، والنية الصالحة برمايتهم، ومحبة بعضهم بعضاً، وهو ـ الآن ـ بالغرب نازل على واد اسبو، وإذا خفا عليك الحمري فانظر أحواله، فإن الحمري لا يكون إلا كثير المحبة، كثير التأدب مع الإخوان، قليل الدعوة، لا يزعم بنفسه في أمر من الأمور، وأشياخ أهل غربنا على خلاف هذا كله، فلذلك قل الانتفاع بهم.

الفصل الخامس في كيفية تعليم الرماية على الوجه الأكمل، قال تعالى: ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً﴾[2]، فعلى العبد أن يلقي زمامه بيد شيخ عارف ناصح لعباد الله تعالى، على وصف الأشياخ الذين تقدم ذكرهم، ويكون عند أمره ونهيه، ولا يختار لنفسه إلا ما اختاره له الشيخ.

وليكن تعليم الشيخ للمريد بالتدريج، كما يعلم الفقيه الصبي في المكتب، فكما كان الفقيه يعلم الصبي ـ أولاً ـ أسماء الحروف: هذا ألف وهذه باء، وهذه ثاء، وهكذا حتى يعرف أسماء الحروف كلها، ويعلمه أسماءهم بالنقط، ويعرف الحروف والهجاء، وحينئذ يعلمه كيف يقرأ، فكذلك شيخ الرماية ينبغي له أن يعلم الناس بالتدريج، فأول يوم يأتيه الرجل يتعلم عنه ويتخذه شيخاً، استخبر أحواله في دينه، وسأله عن صلاته، فإن وجده قليل الدين قليل الصلاة أمره بالصلاة أولاً، ولازمه اليومين والثلاثة، وعلمه كيف يصلي وكيف يتوضأ وكيف يغتسل، فإن أبى أن يصلي وإنما أراد أن يعلمه الرماية فقط، فلا يعلمه ولا يرافقه ساعة واحدة، وإن امتثل أمره وتاب إلى الله من جميع قبيح فعله علمه حينئذ كما يعلم الفقيه الصبي، وإن كان تقدم له مخالطة المكحلة وممارستها بلا شيخ فإنه لا يعتمد على ذلك، وليجعل نفسه كأنه لم يرها قط.

---

(1) لا تزال توجد بقايا اسمية فقط لرسوم هذه الرماية في قبيلة عامر من بني حسن عند نواحي غابة معمورة، قيادة سيدي يحيى.

(2) سورة النحل، آية 78.

فيأمره أن يتوضأ ويتوب إلى الله من جميع هفواته، وينوي أنه أراد بالرماية تحصيل السنة، وليستعين بها على جهاد العدو أو معاش الأولاد إن احتاج إلى ذلك، ويأمره ـ أولاً ـ كيف يقبض المدفع في حال جلوسه وفي حال قيامه المرة بعد المرة، حتى يصير مهما قبضها وحازها إلى صدره نبتت نبتاً حسناً في موضعها كما ينبغي، ثم يطلع له الذراع ويرد له السبيكة ويأمره بقبضها، وبتسريح عينه مع النيشان، وتحريك القرص، فإذا نزل الذراع على السبيكة من غير بارود نظر إليه الشيخ ماذا يفعل برأسه وبعينه، فإن هز رأسه أو طرف بعينه نهاه عن ذلك، وأمره أن يعيد المرة بعد المرة بلا بارود حتى تأنس نفسه بضرب الذراع للسبيكة، بحيث لا يهز رأسه ولا يرمش بعينه، وحينئذ يجعل له تلحيقاً من بارود جيد، لأن التعلم لا يكون إلا بالبارود الجيد الذي وصفنا لك أولاً، ويأمره أن يقبض ويحرك القرص وينظر ماذا يفعل برأسه وعينه، فإن هز رأسه أو رمش عينه نهاه عن ذلك، وأمره أن يعيد، وهكذا حتى تتأنس نفسه بصعود التلحيق مع عينه ولا يرمشها، وحينئذ يعمر له المدفع من بارود جيد عمارة رطبة ويعلمه كيف يعمرها: بأن يصف له قدر ما يجعل من البارود وكيف نزوله، ويأمره بأن يجعل الوساد الأول من ليف أو كاغيط صغيراً، بحيث لا يترك الرصاصة تدخل في البارود فقط، وكيفية نزوله بأن ينشره على فم الجعبة نشراً، ويضع رأس المدك في وسطه، ويهبطه هبوطاً برفق إلى أن يصل إلى البارود، ولا يدك عليه ولا يرفع يده حتى يصل إلى البارود، فإن رفع يده وأعاده سبقه المدك وبقيت الوساد في الوسط، و (إن) وضع الرصاصة على قدر فم الجعبة فالجرّاية لا تمشي مستقيمة، والتي تنزل بالكلفة تهز اليد، وخير الأمور أوسطها، فإذا وصلت إلى البارود لا يدق عليها، ثم يجعل عليها ـ أيضاً ـ وساداً آخر من ليف أو كاغيط قدر الرصاصة يسجنها عن التحرك، والوساد الأول إذا كان قدر الرصاصة يكون بين الرصاصة وبين البارود حائلاً كثيراً مقدار عرض أصبع أو أكثر، فتخرج الرصاصة مرخية لبعدها عن البارود.

ثم يجعل له إشارة: بأن يجعل له أحجاراً خمسة أو سبعة ويركبها بعضها فوق بعض مثل السور، وبعدها خمسة عشر خطوة، ويأمره بأن يقبض كما وصف له أولاً، وأن يجعلها في وسط الحجر، ويحرك القرص برفق ولا ينثره نثراً، فإذا

انهدم الحجر بعضه على بعض اطمأنت النفس وتأنست وطارت الدهشة، فكم من واحد إذا أراد أن يضرب ترى مفاصله كلها ترتعد كالمرتعش، فإن لم تكن الرعدة في المفاصل كانت في القلب لا محالة، ولذلك جعلوا الأشياخ هذه الإشارة على هذه الصفة التي لا يخطاها أحد، وما ذلك إلا لتزول الدهشة، ثم يجعل له ثلاثة أحجار يركب الثالث فوق الاثنين، ويأمره بأن يضرب في وسطهم، ثم يجعل له حجرين واحداً فوق واحد، ويأمره بأن يضربهما عند التقائهما، ثم يجعل له حجراً واحداً ويأمره بأن يضرب في وسطه، وذلك كله في المكان الأول، وينقل له الحجر بخطوتين أو ثلاثة ويأمره أن يضربها، ولا يغفل عنه في كل ضربة ينظر إليه ماذا يفعل بعينه ورأسه أو فساد قبضه، فإن النفس إذا اعتادت شيئاً لا تأمنها من العود إليه ولا تنساه إلا بعد حين، ثم زاد له بالحجر خطوة أخرى في البعد وأمره أن يضربها خطوة بعد خطوة حتى يصل إلى الحد المعلوم عند الأشياخ في بعد الإشارة، وقد قالوا قدر موضع الإشارة هو أن تقدر بعقلك أن الوحش إذا كان هناك ونظرت إليه تبينت لك حبة عينيه في رأسه، وإن نظرت إليه وبان لك رأسه ولم تتبين لك حبة عينه في رأسه فهو بعيد، وضربه مصادفة فقط، وكذلك الإشارة في الموضع البعيد الذي لا يتبين لك فيه عين الوحش فالإشارة فيه بعيدة، وضربها مصادفة فقط، لأن مدار الرماية كلها على تحقيق النظر وتيقن مقابلة فم الجعبة مع الحاجة، والبعد لا تتحقق لك معه مقابلة، ولا ينتفي لك معه شك في المقابلة، وينبغي للشيخ أن يبين للمريد وجوه الخطإ، وإذا اختلفت الأشياخ في عد وجوه الخطإ فمنهم من حصرها في ستة عشر وجهاً، لكون الخطأ إما أن يكون زيادة أو نقصاً أو يميناً أو شمالاً، وفي كل واحد أربعة أوجه، فاضرب أربعة أوجه في أربعة يخرج لك ستة عشر، وبيان خطأ الزيادة انحدار الراية، وتسريح اليد فوق الوزنة، وإظهار ظهر الجعبة جداً، والزيادة في العمارة أكثر من القدر المعلوم، وبيان خطأ النقص رفع الراية، والقبض دون الوزن، والنظر[1].

بح النيشان، ونقص العمارة أقل من القدر المعلوم، وبيان خطا التيامن،

(1) خرق في الموضعين بنسخة المؤلف التي انفردت بهذه الفقرة.

وكذا إذا قبض المدفع[1] بالأصابع منها فقط، أقبضها بالأصابع والكف، وغلّب لحمة الكف مع الإبهام على الجعبة، أو غلب الأصابع على لحمة الكف، ففي الأولى تيمن، وفي الثانية تيسر، وإن قبض بيده في الدغمة فيرفع مرفقه حذو أذنه ولا يحدر يده حذو صدره، فإن في ذلك زيادة ونقصان، والمطلوب أن يكون يده في الدغمة مستوياً معها، ليتمكن من حوزها إلى صدره، وكذا إذا كان جالساً ووضع يده على ركبته فيجعل ذراع يده مبسوطاً وراء شاشية ركبته، ويحوزها إلى صدره، ثم يحقق إبهامه في الجعبة ويسكن نفسه ويحدّر عقله في كل شيء، لئلا تقع له فلط[2] في يده وفي عينه وفي نفسه، فإن كان عقله معه واعياً في أموره كلها أخذ حاجته إن شاء الله لا محالة، وأن يجبذ القرض برفق ولا ينثره نثراً، وإن كان الإنسان عارفاً هذه الأمور كلها فلا بأس يقبض كيف شاء ويضرب كيف شاء، وإنما ذلك للمتعلم لكي يعرف ماهية ذلك، فقد قال صاحب الكلام:

السرير مقود والقرص أعلى الرميا والعقل الواع منها تسحر كل أذهان[3]

فمن كان عارفاً بهذه الشروط واعياً بعقله أخذ ما فيه إن شاء الله[4].

هكذا كانت الأشياخ تعلمنا ببلاد أحمر، ولذل كان السلطان الجليل مولانا إسماعيل يرسل عبيده يتعلمون الرماية على الأشياخ في قبيلة أحمر، وكان يدفعهم لأولاد يرو، وبقيت تلك العادة فيهم يعلمون عبيد الملوك حتى الآن، وكيفية تعليم الشيخ لهم هي التي ذكرنا، وكان لهم وقت معلوم للتعليم، وكان العبد يمكث يتعلم قبض المكحلة الشهر ونحوه، وهم في التعليم متفاوتون كل واحد منهم على قدر عقله وفطانته كالصبيان في المكتب، ولا ينتقل من حالة إلى ما بعدها حتى يتعلم الأولى ويأنس بها، فإذا علمت هذا وتأملت بإنصاف في تعليم أشياخ غربنا وجدت الصواب بعيداً عنهم، والله أعلم.

الفصل السادس في حكم الاصطياد ببندقة الرصاص والبندقة الطينية وحجر

---

(1) القصد إلى البندقية.

(2) تعبير اسباني يؤدي مدلول غلطة.

(3) بياض في نسخة المؤلف مقدار ست كلمات.

(4) بياض في نسخة المؤلف مقدار كلمة واحدة.

الخذف والجلبان والحمص وما يماثل ذلك.

اعلم أن الفقهاء المتقدمين لم يتكلموا على ذلك ولا وجد لهم نص في المسألة، لعدم وجود البارود في زمنهم، واختلف المتأخرون في أكل المصيد ببندقية الرصاص بالحلية والحرمة، والعمل على الحلية، واتفقوا على حرمة المصيد بالبندقة الطينية وحجر الخذف والجلبان وما يماثل ذلك، وفي العمليات الفاسيات ما نصه:

وما ببندق الرصاص صيدا جواز أكله قد استفيد
أفتى به والدنا الأواه وانعقد الإجماع من فتواه..

وقياس الرصاص على البندقة الطينية فاسد، لوجود الفارق، وهو وجود الخرق والنفوذ في الرصاص تحقيقاً، وعدم ذلك في البندقة الطينية، وإنما شأنها الرض والدمغ والكسر، وما كان شأنه ذلك لا يستعمل في الذكاة، لأنه من الوقد المحرم بنص الكتاب، وهو مما يشق على الحيوان، ولا كذلك الرصاص، فلا أسرع ولا أنفذ بسهولة منه، حتى أن المضروب به ربما لم يشعر به في الحين كما هو مجرب للآدمي ومشاهد، ففعله كفعل الحديد الماضي أو أشد، فليس من باب الوقد، إذ حقيقته الضرب بالحجر والخشب والبندقة الطينية وحجر الخذف والجلبان وما يماثل ذلك، وكل أحد يدرك الفرق بين الرصاص وما عداه من هذه الأشياء ضرورة، انظر شارح العمليات، وفيما ذكرناه كفاية.

وإن تشوقت نفسك إلى صنعة الرصاص والرش فأقول والله المستعان: إن الرصاص صنعته بالقالب، وذلك بأن تذوب الرصاص في مغرفة من حديد أو شقفة، بأن تجعله على جمر وتغطيه بجمر آخر، فإن لم تغطه من فوق فلا يذوب بسرعة، وحين يذوب تفرغه في القالب.

وأما صنعة الرش فتأخذ الزرنيخ الأصفر وتدقه دقاً نعيماً جيداً، ثم تذوب الرصاص في مغرفة من حديد تكون لها فم كفم الفتاشة التي تكون فيه الفتيلة والسيالة خارجة في المغرفة، فإذا ذوبت الرصاص فيها كما ذكر، فارفع بأصبعيك

السبابة والإبهام شيء[1] من الزرنيخ المدقوق واجعله في الرصاص المذوب، وحركه بقرن المعز المحروق رأسه شيئاً قليلاً، واملأ قصعة من الماء واجعلها تحت أيديك وأنت جالس على موضع عال، وضع يدك الذي فيه المغروف على ركبتك، وميل المغرفة لجهة السيالة بعد أن تجعل صوفة على رأس عود، وغمسها في الماء البارد الذي في القصعة وضعها على السيالة لتبردها، فإن الرصاص المذاب إذا وصل إلى السيالة الباردة بالماء تحبب بسرعة، وخرج عن السيالة حبوباً حباباً ونزل في الماء، ويكون بين سيالة المغروف والقصعة أقل من ذراعاً[2]، وإن كان أكثر فلا بأس، لأنه كلما نزل في الهواء تحبب، وإن لم يتحبب ونزل على الطول فزده الزرنيخ فإنه هو الذي يقطعه ويحببه، فإذا أخرجته من الماء فاختر[3] ما خرج منه على الطول، وعاوده بالتذويب وزد له الزرنيخ، ولا تغفل عن تبريد السيالة بالماء، فإنها إذا لم تكن باردة فلا تنجب[4] في الشهوة، وإذا لم تجد المغروف من الحديد فانظر حجرة رطبة وحجراً آخر مثل ذلك يكون على الطول مثل يد المهراز، ثم طرق الرصاص قضيباً قدر المخيط، واجعل القضيب المذكور على خشبة وخذ خدمي[5] من الحديد ماضي وضعه على طرف القضيب واضرب عليه بحجر، ثم نقل الخدمي قدر الحبة من الرش واضرب عليه، ثم نقله أيضاً، وهكذا حتى تأتي على آخر القضيب، واحذر في تنقلك حتى لا يكون واسعاً ولا ضيقاً، واجمع الحبوب وضعهم على صفيحة من الحجر واسعة، وخذ صفيحة أخرى أصغر من السفلى بحيث تأخذها بيدك، وضعها على الحبوب وهي في يدك، ثم دورها مثل الرحا حتى يخرج كله من بينهما، ثم اجمعه وعده كما ذكر حتى يخرج أيضاً، ثم عاوده ثلاثاً، فإنه يتكور على أحسن ما ينبغي، ويكون رشاً جيداً أفضل من رش الماء، إلا أن فيه كلفة عن رش الماء.

الفصل السابع: في كيفية اصطياد الوحوش وأخذها في حال غرتها ومعرفة طبائعها.

---

(1) كذا.
(2) كذا.
(3) كذا، ولعل أصل التعبير: فاختبر.
(4) أصل التعبير: تتحبب.
(5) كأنه يقصد به قطعة من الحديد.

اعلم أن الوحش هو بعض من الحيوان البري، وهو الأبي الانقياد النافر من التأنس طبعاً، وأجناس الوحوش كثيرة لا تحصى ولا تنحصر، وها أنا أصف لك ما نعرفه منه، وأبتدي بوصف الغزالة التي هي أفضل الوحوش، واعنت الشعراء بذكرها، وتمثيل صفة المحبوب بصفتها، كما قال الشاعر في صفة محبوبته:

لها مقلـة كحلاء نجلاء خلقة كان أباها الظبي أو أمها المها

والظبي الغزالة، والمها نوع من الغزال أيضاً يسكن الصحراء أزين من الغزال المعروفة، وبياضه أكثر من حمرته، وفي الغزال ثلاثة أنواع على ما نعرفه فيها.

الأول: الصين، والثاني: الدامي، والثالث: المها.

أما الصين فهو النوع الكثير في الغزال، وصفته الحمورة، وله خط أكحل في جنبه من وسط كتفيه إلى خاصرتيه، وله قرنان واقفان، وأذناه واقفان أيضاً، ومسكنه الفضاء المتسع القليل الشعاب، ولا يأمن في دخول الموضع الذي يكون كثير الأشجار الذي لا ينظر فيه المكان البعيد، ويألف بعضه بعضاً حتى يجتمع في جلب منه المؤون، فإن طردت ذهبت كلها إلى جهة واحدة متتابعة: واحدة في أثر الأخرى.

وللرماة في صيادتها طرق شتى: الطريقة الأولى: هي أن الموضع إذا كان فيه فجاجاً وإعراضات، فإن الرامي إذا رأى الغزال ترعى في موضع استخبر الريح هل هو ذاهب لناحيتها أو هو يأتي من عندها، فإن كان الريح يأتي من عندها مقابلاً له فإنه يأتي إلى فج في الغائب منها ويجمع حجرين أو ثلاثة أو شيئاً على قدر ما يستتر وراءهم، ويمتد وراءهم حتى تصل إليه وهو ينظر إليها برفق وظرافة بحيث لا يرى منها إلا قرنيها، فإن جاءت إليه يصبر حتى تقف على رأسه ويضربها، وإن تركته وجازت إلى فج آخر تأخر وجاز في الغائب وصار يتعرض لها لذلك الفج الذي ذهبت إليه، ولا يغفل عن استخبار الريح هل هو ذاهب من عنده إليها أو يأتي من عندها إليه، فإنه لم يكن في الوحوش أَشمَّ منها لرائحة بني آدم، وشم الرائحة من مكان بعيد وتنفر منها أكثر مما تنفر من رؤية عينها، ولذلك كانت الغالب عليها ـ إذا كانت في مكان ترعى ـ لاتذهب إلا لجهة تهب منها الريح، لتكون في مشيها

مأمونـة، فإن رآها الرامي ذاهبة لجهة الريح أمر صاحبه أن يظهر لها من تلك الناحية ليردها عنها ويتعرض لها هو للجهة الأخرى، وإن كان وحده ظهر لها هو بنفسه من جهة الريح حتى يردها عنها ويسير في الغائب ويتعرض لها في الجهة الأخرى، وهكذا.

الطريقة الثانية: يقال لها: حوز الدور، وهذه الطريقة تكون في الفضاء الذي لا فجاج فيه أصلاً، وتكون في أرض مستوية متسعة جداً، فيذهب مع الرماة فارس، وكل رامي بيده شطبة أو قبضة من الربيع قدر ما يخفي وراءها، فإذا رأوا الغزال عن بعد اجتمعت الرماة كلهم وراء الفارس صفاً واحداً بحيث إذا نظرت الغزال لا ترى إلا الفارس، ولا يذهب إليها، بل يجعلها عن يمينه أو عن يساره، ويجعل نفسه كأنه سالك إلى بلدة أخرى، ولا يذهب الفارس إلا على الجهة التي يهب الريح إليها، فإذا قابلها وضع أحد الرماة شطبته في الأرض وامتد وراءها عزماً، بحيث لا يصد الفارس حتى لا يبقى له أثر ولا خبر، ثم يمشي الفارس والرماة معه قدر إشارة، ويمتد رامي آخر ثم يمشي قدر ذلك أيضاً ويمتد آخر، وهكذا حتى يمتدوا عن آخرهم، فإذا بقي وحده دار من ورائها، وقرب إليها وهو راخي العنان لفرسه كأنه لم ينظر إليها وهي لا تحظى إلا الفارس، فإذا جاء من ورائها وقرب إليها شوت لجهة الرماة، وأجرى عليها لتمشي وهي ترعى وهو يحاوتها بكياسة، حتى تقف على رأس الرماة ويخرج البارود فيها.

هكذا رأينا أشياخنا في بلاد أحمر يفعلون معها، في موضع يقال له المعيدر بين ضريح سيدي شيكر وواد شوشاوة، في موضع كقاع القصعة لا ينبت ربيعاً إلا ما قل، وتجتمع الغزلان إليه من كل مكان، ولا تأمن على نفسها إلا فيه.

وأما في وقت طراقة الغزال فإن الرماة إذا رأوا الغزال تعرضوا لها حتى يقربوا منها وهي لا تراهم، وامتد الرامي من وراء ساتر وهي مشورة إليه، فإذا قربت انبر لها مثل نبرة العتروس، فإذا سمع العتروس النبرة جاء إليها طائراً حتى يقف على رأسه ويتكلم فيه البارود.

وأما في وقت الولادة فيقرب منها أيضاً وهي لا تراه، ويصيح إليها كصيحة ولدها الصغير حين يقبضه الذئب، فإذا كان فيها من لها ولد جاءت طائرة لا تعقل

حتى تقف على رأسه ويتكلم فيها البارود.

وأما الدمى فهو قليل، فإن وجدته لم تجد منه أكثر من أربعة أو خمسة، ولا يسكن إلا في الشعاب والغابة والكدى، ولا يدخل الغابة الملتفة الأشجار، وإنما يكون في الغابة الخفيفة الأشجار، وهو حيوان كبير الذات قدر العجل الذي ولدت عليه أمه، وصفته على صفة الصين، إلا أنه يميل إلى الصفورة، وله جيد ـ أي عنق ـ طويل، وله قرنان واقفان، وأذناه مرخيان مع ذقنه كبار، وهو حذور أكثر من الصين، وإذا نفر من بني آدم خرج من تلك البلاد كلها، ولا يقف عن الهرب، وصيده بالختلة فقط مع مراعاة الريح.

وأما المها فمسكنه الصحراء، وليس هو في غربنا ولا نعرف له حالة.

وأما القنية ففي حياة الحيوان سماها الوبر، وليس هي في كل بلد، وإنما هي في بلاد الأندلس وما والاها من الغرب من واد ورغة إلى بحر الأندلس، ولم تكن في بلاد غير ما ذكرنا إلا ما سمعنا أنها ببلاد حوز اليمن، وصفتها الصهوبة على لون الأرنب، إلا أن أذنها أقصر من أذن الأرنب، وهي كحلة العين، قال في حياة الحيوان: إن فيها حياء إذا نظرت إلى بني آدم استحيت، ولا تفر في النظرة الأولى حتى تكرر النظرة، وهي تسكن في الغيران وتلد فيها، وصيادتها بطرق شتى: تصاد بالرش والرصاص، وتصاد بالكلاب والشبك، وتصاد بحيوان ـ إذا دخلت الغيران ـ يقال له النمس، خلقه الله علة لها.

وهو حيوان صغير أحمر اللون يميل إلى الصهوبة، طويل الذات، قصير الرجلين واليدين، على خلقة الحيوان المسمى فارة الخيل، إلا أن النمس أكبر منه، وهو إبله الحيوان، لأنه إذا خرج إلى الفلوات لا يعيش ولا يأكل لعدم معرفته مصالح نفسه، وكلما وجد من حيوان غيره ترامى فيه، ولا يخاف على نفسه من شيء، ولا يكون عند ربه إلا مربوطاً، لأنه إذا انطلق من رباطه لا يعود إلى موضعه ولا يعقل على مكانه، فإذا انطلق وغفل عنه ربه بقي يسيح في الخلا حتى يموت: إما جوعاً أو يقتله حيوان أكبر منه، والأنثى منه إذا احتاجت على التعشير ولم يأتها ربها بذكر ماتت، وعلامة احتياجها إلى ذلك انتتاف شعر رأسها وبطنها، وتلد الثمانية والتسعة والعشرة، فإن ولدتهم كان ربها محتالاً: عنده صوف موجودة

وحنا معجونة، فالذي تلده يدهنه بالحناء ويلفه في الصوف، وهي تفتش عليهم وترضعهم واحداً بعد واحد، وأكلها الطعام بالأدام أو بالحليب.

وفي هذا الحيوان عجائب لم توجد في غيره، ويتخذه الناس لصيادة القنية، إذا دخلت في غار أدخلوه وراءها، فإذا شم رائحتها دخل عليها في قعر غارها وترامى عليها، ولا يعضها إلا من رأسها ووجهها وتخرج هاربة منه، ورب النمس يجعل على فم الغار شبكة من خيط قنب، فإذا خرجت القنية وقعت فيها وقبضها، فإن بقي شيء رجع إليه وأخرجه حتى لا يترك في الغار شيئاً، والتي منعت الخروج قتلها وخرج، فإذا أرادوا الاصطياد به جعلوه في ماعون من الوظيفة على قدر جرمه، وفمه ضيق قدر ما يدخل فيه، ويجعل في عنقه خيطاً ويخرجه من أصل الماعون، ويربط في علاقة الماعون ويحمله ربه في يده، وتؤخذ القنية أيضاً بحيلات شتى.

وأما الأرنب فإنها مثل القناية خلقة إلا أنها أكبر منها، ورجلاها أطول من يديها: على هيئة اليربوع، ويدها اليسرى أقصر من اليمنى، وأذناها طوالاً، ولها غرة بيضاء بين عينيها، ولا تلد إلا واحداً أو اثنين: على وجه الأرض ولا تدخل الغيران، وتصطاد بالكلاب وبالباز، وفي لحمها زهومة، ومشوية بالزيت والكامون أفضل من مطبوخة، بخلاف لحم القناية فإن لحمها جيد: يصلح مطبوخاً ومشوياً.

وأما اصطياد الذئب فأكثر اصطياده بالكلاب السلوقية، ويوصد بالرصاص، ويؤخذ بحيلة يقال لها خشبة الهند، تجعل في طريقه وتغطي بتراب وتسوي مع الأرض حتى لا يراها، فإذا وطىء عليها قبضته من يده، وله حيل غير هذه يطول علينا تتبعها.

وأما اصطياد الضربوب والعامة يقول له الدرب، وهو والقنفود جنس واحد، إلا أنه أكبر منه، وشوكه أطول من شوك القنفود، وهو قدر المعزة، وطول قوائمه الأربع قدر عرض أربعة أصبع أو خمسة، ويسكن الغيران ويلد فيهم، واصطياده بالكلاب يدخلون عليه في الغار ويخرجونه فيها كرهاً، ويحارب الكلاب بشوكه، فإذا مس الكلب رأس الشوكة التصقت فيه، وصارت تدور في لحمه وتدخل حتى تغيب أو يلقاهم عظم تقف فيه، وقد يموت منها إذا صادفت مقتلاً، ولا تلتصق فيه

إلا إذا مسها كمثل شوكة النحلة، والكلب الضاري عليه يحتال عليه لا يأخذه إلا من الرأس الذي لا شوك فيه.

وأما القنفود فصيادته بالليل فقط بالكلاب يشمون رائحته، فإذا وجده الكلب نبح عليه وجاء ربه فيأخذه، ولا يخرج بالنهار، ويسكن الغيران، ولحمه ولحم الدرب جنس واحدة، وجلدته أفضل من لحمه، فيحلق الشوك بخدمي، ويشوط الزغاب الباقي بعد الحلق، ثم يسخن ماء حتى يغلي ويأخذ منه بمغروف ويصب عليه ويكرطه بخدمي فيزول بذلك أثر الحرق والوسخ ويبقى جلده أبيض، وجلده ظهره غلظها عرض أصبعين، وهي أفضل ما يؤكل فيه، وأكثر شحمه في جلده، ومثل ذلك يفعل بالقنفود.

وأما اصطياد الأسد فيكون بالرصاص، يجلسون له الرماة على طريقه حتى يأتي ويضربونه، أو على فريسة، وبعضهم يحفر حفرة قدر جلوسه ويسطحها بخشب ويجعل التراب عليها ويترك باباً صغيراً قدر ما يرى الفريسة، فإذا ضربه وترامى عليه لا يلحقه، ومن جلس على وجه الأرض لا يضربه إلا بين عينيه أو وراء أذنه فإنه يتكمش في موضعه، وإن ضربه في غير هذين الموضعين ترامى عليه قطعاً، وإن كان يموت في الحين، وله حيلة يؤخذ بها من غير ضرب، وأكثر من يفعلون به ذلك قبلية من قبائل البرابر يقال لهم غمرة[1]، يحفرون حفرة كبيرة يكون في طول فمها اثنا عشر ذراعاً أو أكثر، وعرضها ثلاثة أذرع أو أربعة، ويغرقونها نحو ثلاثة أقدام، ويضيقون عرضها من أسفل حتى يختمونها على قدم واحد، بحيث إذا سقط فيها الأسد قبضته الحفرة من أكتافه، ولا يصل رجله إلى قعرها، ويجعلون على فمها أشطاب الغابة بحيث لا تظهر له، ويحوزونه إليها، فإذا سقط فيها احتالوا عليه حتى يجعلون في أرجله أحبالاً، ويصنعوا صندوقاً على قدره ويرفعونه في الهوى ويضعونه في الصندوق ويغلقون عليه، بعدما يجعلون في أجناب الصندوق مسامير خارجين إلى داخل، فكلما تحرك ضربته المسامير وسكن في الصندوق ولا يتحرك ويأتون به إلى الملوك.

والضبع يصطاد بالرصاص، يجلسون له الرماة في طريقه، وإن وجد في غار دخل رجل عليه ومعه حبل متين، فإذا وصل إليه... ليس هو هنا، فإذا دخل معه

(1) منازلهم حوز فاس.

الرجل في الغار خاف الضبع منه، ونزلت عليه الذلة والمسكنة، وقبض رجله الأخير وربط فيه الحبل وربط في الآخر حبل وخرج الرجل، فإذا وصل إلى أصحابه قال لهم اجبذوه فيجبذونه حتى يخرج نصفه عن فم الغار، ويمر رجل يده على ظهره ويقبضه بأذنيه ويربطونه، وهو أذل الوحوش، ولحمه جيد الأكل، وما يسمع عن العامة من أكل لحمه أو مخه ليس بصحيح، وفي لحمه دواء كثير محل بسطه كتب الطب.

وأما أوذل فهو شبيه بالقط إلا أنه أكبر منه خلقة، أحمر اللون، أكحل العينين، واقف الأذنين، له شعر طوال في رأس أذنيه، بحيث إذا أقبل عليك ونظرت إليه من بعد ظننت أن في رأسه قرنين، وله أظفار كالأسد، ويضرب بهما من حاربه، ويسكن الجبال الخالية والغابة الكثيرة الأشجار، وهو أصم لا يسمع شيئاً، وأعطاه الله من النظر ما يكفيه عن السمع، وقد تحققنا من عدم سمعه لكثرة اصطيادنا له، والله أعلم.

فإن صادفته كلاب الصيادين ونبحت عليه طلع على الأشجار وصارت الكلاب تنبح عليه من الأرض وهو على الشجرة حتى يأتي الصياد فيضربه برصاص، وفي بعض الأيام قبضته في خشبة الهند، قد كنت نصبتها للذئب على فريسة فجاء أوذل إليها وقبضته الخشبة من يده، ولحمه أبيض كلحم الدجاج.

ومثله الحيوان المسمى الترسول، وهو على هيئته وقده وطبعه، إلا أن جلده مثل جلد النمر نقطة كحلاء ونقطة حمراء ديبية.

ومثل هذين في الخلقة والطبع حيوان يقال له ابن الأبشر، وهو أكبر منهما ذاتاً، أقل من الضبع وأكثر من الذئب قدر السلوقي الكبير، ولونه على لون الذئب، ورأس كرأس الأسد، وأظفاره كذلك، وقد شاهدناه ـ أيضاً ـ قبض في خشبة وحارب من جاء إليه فلم يقبضه إلا بعد كلفة كبيرة وهو في الخشبة.

وأما الخنزير المحرم الأكل بنص الكتاب العزيز، ففي اصطياده لأجل اللهو والفرجة فقط والعبث، ورد النهي عن النبي ﷺ في قتل الحيوان عبثاً كما نهى عن تعذيب الحيوان وعن قتله لغير منفعة، ولقوله تعالى: ﴿ولا تعثوا في الأرض

مفسدين﴾، وهل النهي محمول على الكراهة أو الإباحة قولان لمالك وابن عبد الحكم.

وهذا حيث قصد اللهو والفرجة فقط، وأما إن قصد تمرين نفسه على الشجاعة والإقدام على ما تنفر النفس منه والبطش والزعامة والقوة، فيكون حينئذ اصطياده مستحباً.

وقد حضرنا غزوة المليلية وغزوة سبتة فما رأينا أشجع وأعرف بحرب العدو من الصيادين للخنزير، ويأتي من قول الناظم:

إذ الحرب خدعة وكيد فربما تحيل بالقنص الدهات التابع

فبهذه النية الصالحة صار اصطياد الخنزير مستحباً مرغباً فيه، لأن بحسب النية تعرض للاصطياد من حيث هو الأقسام الخمسة، وهي الوجوب والندب والتحريم والكراهة والإباحة، وسيأتي تفصيل ذلك عند قول الناظم:

وإن سافر الصياد فالقصر جائز... إلى آخر البيتين.

وأما اصطياده فيكون بالرصاص ويكون باللقاف، وهو على صفة الرمح وحديدته كبيرة تزن الثلاثة الأرطال مهندة ماضية الجانبين والرأس، وطولها ذراع، وفي طرف جعبتها ثقبة من الجانبين، فإذا ركبها في عودها أدخل المجعاب في ثقبة الجعبة المذكورة وجعب العود حتى يخرج من الثقب الآخر، ويجعل فيها مسماراً يخرج من كل جانب قدر عرض أصبعين، وعوده أغلظ من هراوة الفاس، وطوله تسعة أشبار أو عشرة، فيصطادون به الخنزير يتعرضون له في طريقه، فإذا جاء مطروداً تكلم له وندە عليه حتى يأتيه فيلقاه بذلك اللقاف ويضربه في تركته حتى لا يقبضه إلا المسمار الذي في الجعبة، فيبقى في يده يطلع إلى السماء وينزل إلى الأرض حتى ينقطع منه الجهد ويموت، وإن تكلم له ولم يأت إليه وهرب منه رماه عليه من بعد، فإن صادفه قتله.

وانظر ـ رحمك الله ـ من كانت عادته صيادة الخنزير باللقّاف ويلقاه وهو مطروداً غيظاناً مهما فتح عينه ابن آدم أتى إليه، كيف يزعم هذا الرجل بنفسه ويلقاه يحاربه حتى يقتله، فهل ترى أشجع من هذا، وكيف يتأخر هذا عن حرب العدو

وتأخذه دهشة عند ملاقة الصفوف وهو بين أقرانه، وما ذلك اليوم عنده إلا يوم عيد ويوم فرح وسرور، ويجتمع له من العقل والشجاعة أكثر من كل يوم، فبهذه النية يكون مأجوراً في اصطياده الخنزير، والله أعلم.

وأما الطيور فأفضلها لحماً وأكثرها غذاء وأسهلها صيادة الحبارى، وهو طائر معروف، أما التعريف به وكيفية صيادته بالباز فذكرها الناظم، وقد يأتي لنا الكلام عليها عند قول الناظم:

أصيد الأراني بالبراني واعتني بصيد الحبارى ليس صيد اليرابع

وفي ذلك الموقع يحسن لنا الإتيان بجميع ما نعرفه من صيد البر طائراً كان أو غيره، لكونه قال:

فما ذو جناح كالحبارى لقانص وفي الطير كالكروان ما قد يضارع

وصية تعليمية لأبي حامد الفاسي

مقدمـــة:

دأب عدد من أعلام الأدباء على تدوين توصيات يتجهون بها ـ في مناسبات متنوعة ـ إلى أبنائهم أو أسرهم، ومع مر الزمن تنوعت أساليب هذا اللون من الأدب، فكانت الوصايا القصيرة والمطولة، وجاءت ـ مرات ـ منثورة، وتارة منظومة.

وكما هو واقع المشرق: ساهم الغرب الإسلامي ـ بالأندلس وشمال إفريقية ـ في كتابة توصيات تهتم بالتوجيه للعناية بالعلوم، والدعوة للأخذ بمحاسن الأخلاق: في السلوك الشخصي، وفي العلاقة مع الغير، فضلاً عن وصايا أخرى تهدف إلى الجانب الأخلاقي بمفرده.

ويكون من المناسب أن نقدم ـ بين يدي الوصية الفاسية ـ عرضاً سريعاً لعشر من وصايا الغرب الإسلامي، بدءاً من:

1 ــ وصية ابن صمادح: الرئيس الأندلسي: محمد بن أحمد التجيبي السرقسطي، المتوفى عام 419/1028.

وقد أوصى بها ابنيه، ولا تزال غير معروفة، وإنما جاء وصفها عند ابن عبد الملك المراكشي[1]: «ووصيته لابنيه ـ معاً ـ من أنفع الوصايا وأجمعها لمعظم آداب الدين والدنيا، وأصدقها شهادة بوفور علمه، وحضور ذكره، وجلالة معارفه ورئاسة نفسه».

(1) «الذيل والتكملة» نشر دار الثقافة في بيروت: السفر الخامس رقم: 1232.

ولم يسم هذا المصدر الابنين المقصودين بالوصية، غير أن ابن الأبار[1] ذكر ـ عرضاً ـ وصية ابن صمادح لابنه معن[2]، فأفاد باسم أحد الولدين، على أنه لا يستبعد ـ إزاء إشارة التكملة ـ أنه وقع غلط نسخي في نص الذيل والتكملة، فيكون أصل تعبيرها «ووصية لابنه»، ثم حرفها الانتساخ إلى «ابنيه معاً».

2 ــ وصية أبي الوليد الباجي: سليمان بن خلف بن سعد التجيبي القرطبي، المتوفى ـ بالمرية ـ عام 474/1081[3].

كتبها برسم ولديه، واهتم فيها بالجانب التعليمي والخلقي معاً، فجاء تصنيفها ـ حسب المؤلف ـ في قسمين: فيما يلزم من أمر الشريعة، وفيما يجب أن يكونا عليه في أمر دنياهما، ويجريان عليه بينهما.

منها مخطوطة بالاسكوريال رابعة مجموعة رقم: 732، وأخرى خ. ع، ق 37 ضمن مجموع، وقد حققها وقدم لها عن المخطوطة الأولى الدكتور جودة عبدالرحمن هلال، ونشر ذلك في «مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد»: بالعدد الثالث من المجلد الأول سنة ـ 1374/1955: ص 17 ـ 46: تقديماً ونصاً.

3 ــ وصية أبي الفضل بن شرف: جعفر بن محمد بن أبي سعيد الجذامي القيرواني نزيل الأندلس، والمتوفى عام 534/1140[4].

أوصى بها ابنه محمداً[5] حين خرج عنه ـ مسافراً ـ إلى غرب الأندلس.

---

(1) ط. مجريط رقم: 1523.

(2) ترجمته في «التكملة» ط. مجريط رقم: 1158، حيث تلاحظ مخالفة في سياق آباء والد معن عما ورد بترجمته من الذيل والتكملة.

(3) في تقديم وصية الباجي ترد تحليلات لمحتوياتها، وبعض مصادر ترجمته في «معجم المؤلفين» 4/261 ـ 262.

(4) ترجمته عند ابن بشكوال في «الصلة»، نشر السيد عزت العطار رقم: 298، ثم عند ابن سعيد في «المغرب في حلى المغرب» نشر دار المعارف بمصر رقم: 508.

(5) ترجمة في «المغرب في حلى المغرب» رقم: 509.

وهي مخطوطة في مكتبة ابن يوسف بمدينة مراكش ثالثة مجموع رقم: 337.

4 ــ وصية ابن دافال التسولي: عيسى بن عمران المكناسي ثم الوردميشي، التلمساني، نزيل مراكش وقاضي جماعتها، والمتوفى ـ بها ـ عام 578/1182.

راسل بها ولده لمّا كان يطلب العلم بفاس، فحثه على الاجتهاد في الدراسة، والحفاظ على السيرة الحسنة، ويحتفظ بنصها ـ الوجيز ـ كل من ابن أبي زرع[1] وابن القاضي[2].

5 ــ وإلى هذه التوصية النثرية، وضع القاضي ـ المنوه به ـ وصية شعرية نظمها في مرضه الـذي توفى فيه، يوصى بها أكبر أبنائه وسائرهم، في قصيدة مطولة اشتملت على حكم وآداب، وورد نصها بترجمة ناظمها في الذيل والتكملة[3].

6 ــ وصية ابن سعيد الأندلسي: موسى بن محمد بن عبد الملك العنسي الغرناطي المتوفى ـ بالإسكندرية في طريقه للحج ـ عام 640/1243[4].

وصى بها ابنه علياً لما أزمع السفر من الإسكندرية إلى القاهرة، فحضه فيها على السلوك اللائق في تصرفاته الشخصية، وفي علاقاته مع مختلف الطبقات، ويحتفظ المقري بنصها كاملاً: شعره ونثره[5].

7 ــ وصية العبدري: محمد بن محمد الحيحي، كان بقيد الحياة عام 688/1289.

وقد بعث بها إلى ولده من القيروان وهو في وجهته الحجازية: في قصيدة

---

(1) «روض القرطاس» ط. ف 1305 هـ، ص: 193.
(2) «جذوة الاقتباس» نشر دار المنصور بالرباط رقم: 576.
(3) مجلد الغرباء الذي لا يزال مخطوطاً خ. ع، د 1784: ص: 77 ـ 79.
(4) ترجمته في «نفح الطيب» المطبعة الأزهرية المصرية: 1/484.
(5) نفح الطيب: 1/493 ـ 498، خلال ترجمة علي ابن سعيد التي استغرقت من هذا المصدر ص: 446، 502.

حثه فيها على محاسن الأخلاق[1].

8 ــ وصية أبي حيان الأندلسي: محمد بن يوسف بن علي النفزي الغرناطي نزيل القاهرة، والمتوفى ـ بها ـ عام 745/1345.

وفيها ينصح أسرته ـ لما نزل بمصر ـ بترك الفضول، والاتزان في معاملة أصناف الناس، وهي واردة ـ بنصها القصير ـ في نفح الطيب[2].

9 ــ وصية لسان الدين ابن الخطيب: محمد بن عبدالله بن سعيد السلماني اللوشي ثم الغرناطي، المتوفى عام 776/1374[3].

كتبها لأولاده، ونهج فيها نهج أبي الوليد الباجي في وصيته، حيث يحتفظ المقري بنصها كاملاً[4].

10 ــ واسطة السلوك في سياسة الملوك: وهو اسم الوصية التي كتبها ـ في مؤلف مطول ـ أبو حمو الثاني: موسى بن يوسف بن عبد الرحمان الزياني عاهل المغرب الأوسط، والمتوفى عام 791/1389.

ألفه برسم ولده أبي تاشفين الثاني، حتى يسترشد به لما يخلف والده، فلذلك غلب عليه الطابع السياسي، وللكتاب مخطوطات عديدة، ونشر في تونس سنة 1279 هـ وبالآستانة: 1295 هـ[5].

---

(1) «رحلة العبدري» نشر جامعة محمد الخامس 1968، ص: 72 ـ 74، وهي مصدرة بترجمة المؤلف من عمل محقق الرحلة الأستاذ محمد الفاسي.

(2) 1/607 خلال ترجمته بهذا المصدر ص: 589 ـ 618.

(3) كتب لنفسه ترجمة ذاتية ختم بها كتاب مختصر الإحاطة نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة: 4/438 ـ 637.

(4) «نفح الطيب» 4/419 ـ 426. «أزهار الرياض»، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة 1/320 ـ 336.

(5) أورده سركيس في معجمه ع 113، وألف في أبي حمو الثاني: محمد بن عبدالله بن عبد الجليل التنسي التلمساني كتابه: «راح الأرواح. فيما قاله أبو حمو وقيل فيه من الأمداح»، حسب «البستان» لابن مريم: المطبعة الثعالبية بالجزائر ص: 248.

وكتب ترجمته من المعاصرين الدكتور عبد الحميد حاجيات، بعنوان «أبو حمو موسى الزياني: حياته وآثاره»، نشر الشركة الوطنية بالجزائر سنة 1394/1974. =

والآن: ينتهي بنا المطاف إلى الوصية التي نقدمها، وهي من وضع أبي حامد محمد العربي بن أبي المحاسن يوسف بن محمد ـ فتحاً ـ الفاسي الفهري المتوفى عام 1052/1642[1].

وتشير افتتاحيتها إلى أن كاتبها خاطب بها أبناءه حين قدموا لفاس بقصد الدراسة، غير أن هذا التصدير خلا من تسمية البنين المشار إليهم، فإذا رجعنا إلى المصدر المهتم نتبين أن أبا حامد أنجب أربعة أولاد، حيث يذكرهم في «عناية أولى المجد[2]»، بين الأخذين عن والدهم هكذا:

«وأخذ عنه بنوه الأربعة: العلامة أبو نصر عبد الوهاب[3]، والشيخ المحدث أبو الحجاج يوسف[4]، والعلامة الأديب الألمعي أبو فارس عبد العزيز[5]، والأستاذ الماهر أبو محمد عبد السلام»[6].

فيكون هؤلاء ـ كلهم أو جلهم ـ هم المعنون بتوجيه والدهم.

والوصية منقولة من خط المسناوي: محمد بن أحمد بن محمد الدلائي

= ويلاحظ أنه يرد بهذا المصدر ص: 187. «ليس لدينا نص يثبت ـ يقيناً ـ تاريخ تأليف كتابة واسطة السلوك»، غير أنه يوجد بين المخطوطات العديدة لوصية أبي حمو: اثنتان يحملان تاريخ تأليفه: خ. م 1784 و 11016، وقد ورد بآخرهما أن مؤلفه ابتدأه في 3 جمادى الأولى عام 766 هـ، وكله في أوائل رجب من نفس العام.

أما مخطوطاته الأخرى بالخزانة المنوه بها فمنها ذوات الأرقام التالية بين تام وناقص 287 ز 546 ز 836 ز 1157 ز 1459 ز 6711 ز 7670 ز، وهذا الأخير مبتور الأول ويبتدىء أثناء الباب الأول، وهو بخط عبد الرحمان سقين، فرع من كتابته عشية الثلاثاء 1 شوال 977 هـ.

(1) ترجمته في «سلوة الأنفاس» 2/313 ـ 315.
(2) المطبعة الجديدة بطالعة فاس: ص 31 ـ 32.
(3) ترجمته في «سلوة الأنفاس»: 2/324 ـ 325.
(4) ترجمته بنفس «المصدر» 2/325.
(5) ترجمته في «عناية أولي المجد»، ص: 33 ـ 34.
(6) ترجمته بنفس «المصدر» الأخير، ص: 42.

الفاسي[1]، نقلها عنه اثنان من الأعلام المقيدين: أولهما محمد المدني بن علي الملقب بالكومي ابن جلون الفاسي المتوفى عام 1298/1880[2]، فأثبت نص الوصية ـ بخطه ـ في كناشته[3] نقلاً عن خط المسناوي.

والثاني أبو حامد العربي بن محمد السوسي الساموكني، المتوفى عام 1329/1911[4].

نقلها من خط المسناوي بواسطتين، وكتبها ـ بخطه ـ في كناشة رفيقه الطاهر بن محمد بن إبراهيم السوسي الإيفراني[5]: ص 227.

وعن هذه الكناشة نقلت ـ أولاً ـ نص الوصية، ثم وجدت نسختها الثانية بالكناشة الفاسية.

ويلاحظ أن الوصية ـ في النسختين معاً ـ خالية من تاريخ كتابتها، غير أن ذلك لا يعدو أن يكون بين عامي 1019 و 1036 هـ، ففي التاريخ الأول وقع احتلال الأسبان لمدينة العرائش: في 4 رمضان، فأعقب ذلك بلية نزح ـ بسببها ـ عن فاس جماعة من أعلامها[6] بينهم أبو حامد الفاسي جاء في ترجمته من سلوة الأنفاس[7]: «وكان قد خرج من فاس فاراً من فتنة العرائش، فجال في المغرب إلى أن أدركه الحمام بثغر تطوان».

ثم كان عام 1036 هو تاريخ وفاة أبي زيد عبد الرحمن بن محمد الفاسي: ليلة الأربعاء 27 ربيع الأول[8]، وسيرد بالوصية حث كاتبها لأبنائه على الأخذ عن

(1) ترجمته في «سلوة الأنفاس» 3/44 ـ 47.
(2) ترجمته بالمصدر ذاته 2/363 ـ 364.
(3) خ ـ ع، ك 2676: ص 33 ـ 34.
(4) ترجمته في المعسول 9/43 ـ 86.
(5) ترجمته بنفس المصدر 7/69 ـ 230، وكناشته كانت في حوزة فقيد العلم المرحوم محمد المختار السوسي، حيث اطلعت عليها وانتسخت منها الوصية الفاسية نحو عام 1380/1960.
(6) انظر التفاصيل في نزهة الحادي ط. باريس ص: 197 ـ 199.
(7) 2/315.
(8) حسب ترجمته في «سلوة الأنفاس» 2/302 ـ 306.

أبي زيد المنوه به، مما يدل على أنه ـ آنذاك ـ لا يزال بقيد الحياة.

* * *

أما أسلوب الوصية فهو يحتذي ـ على العموم ـ وصيتي الباجي وابن الخطيب: من جهة الاهتمام بالجانب التعليمي والخلقي معاً، غير أن أبا حامد الفاسي يتوسع في عرض المواد والكتب الدراسية، ويهتم بترتيب الاشتغال بها، ويشير للقدر الذي يدرس من كل علم.

وبجانب الدراسة المعمقة، ينصح بالاعتناء بالسماع لرواية صحيحي البخاري ومسلم، ويخص على أخذ الإجازة لاتصال السند.

هذا فضلاً عن منهجية خاصة في التوجيه لبعض الأخلاق.

وهكذا: فإن الوصية ـ المنوه بها ـ تساهم في توضيح نظم الدراسة والتربية بالمغرب صدر العصر الحديث.

ومن هنا فهي تساند ثلاث مؤلفات موضوعية عرفت من قبل، وكتبت ـ متدرجة ـ في الفترة ذاتها، وهي:

1 ـ «الرسالة المجازة في أحكام الإجازة»: تأليف أبي الحسن علي بن ميمون الإدريسي الغماري، المتوفى ـ في لبنان ـ عام 1511/917، وهي تختزن قطعاً تلقي الأضواء على سير الدراسة بالقروين في العهد الوطاسي[1].

2 ـ «تنبيه الصغير من الولدان..»: تأليف أبي سالم إبراهيم بن عبد الرحمن بن عيسى الكلالي نزيل فاس، والمتوفى بها ـ عام 1637/1047.

وهذا الكتاب ـ بدوره ـ تدفن به قطعة تصف الدراسة بالقرويين أيام المنصور

---

(1) حلل هذه القطعة محمد عبد الحي الكتاني في «مجلة المغرب»: السنة السادسة بالعدد ا عام 1356/1931.

ثم نشر نصها وقدم لها محمد الفاسي في مجلة «الرسالة المغربية»: السنة الأولى بالعدد 11 سنة 1362/1943.

السعدي[1].

3 ـ «**مختصر الأفاريد**»: كتيب صغير لمؤلف مجهول الاسم من مدينة تازا كتبه عام 1070 هـ، حيث اهتم فيه بحياة فريق الطلاب المجاورين بالمدارس العلمية، فيتناول ـ حسب الأعراف المرعية بينهم ـ آداب سلوكهم في الحياة اليومية، ومع الرفقاء، وإزاء الأساتذة، وفي معاملات العموم... وقد تكرر نشره بالمطبعة الحجرية الفاسية[2].

* * *

وإلى هنا حيث اقتربنا من عرض النص، نذكر بنسختيه الاثنتين، ونشير إلى أن العمدة لدينا هي النسخة السموكنية، وأضيف لها من الكناشة الفاسية بعض التصحيحات، مع زيادات قليلة وضعت بين قوسين، هذا إلى وضع الفروق بالهوامش، فيشار للنسخة السوسية بحرف: س، وللفاسية بحرف: ف.

ونظراً لقلة الفروق لم توضع في حاشية على حدة، وأدمجت مع التعاليق الأخرى في ذيل الصفحات، حيث يثبت في أعلاها نص الوصية الذي نقدمه فيما يلي:

---

(1) نشر نصها وقدم لها محمد المنوني في مجلة «البحث العلمي»: العدد 7 سنة 85 ـ 1386 / 1966، ص: 241 ـ 266.

(2) لمزيد التعريف بمختصر الأفاريد، انظر محمد المنوني: «لمحات عن سير الرياضة البدنية في التعليم المغربي القديم»، مجلة «دعوة الحق»: العدد الخامس والسادس «مزدوج»، السنة 15، ص: 139 ـ 143.

وأيضاً: محمد المنوني: «موضوعات مغربية عن نظم التعليم الأصيل» مجلة «الرسالة التربوية»: العدد الأول: ص: 74 ـ 77.

وصية أبي حامد الفاسي لأبنائه

أول ما أوصيكم به تقوى الله العظيم في السر والعلانية، والإقبال على ما يعني، وملازمة الصلوات في الجماعة، والاشتغال بالعلم، والاستكثار منه ما استطعتم.

وليكن جل عنايتكم بالأهم فالأهم، والعلم كله مهم، والأهم علم الشريعة، ولا تؤخروا (تعلم)[1] مسألة لغد وهو يمكنكم اليوم، ولا تحقروا شيئاً من العلوم، لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون[2].

فخذوا في علم النحو واجتهدوا في تحصيل مهمات قواعده، والألفية[3] كافية في ذلك، فأتقنوها حفظاً وفهماً، فإن النحو مفتاح علوم هذه الأمة العربية، ويلتحق به علم التصريف، ومن توابعه علم العروض والقافية، للاحتياج في بعض مسائله إليه.

وحصلوا علم العقائد[4]، فإنه أصل هذا الدين وأساسه، ثم إن تبين[5] لكم شيخ محقق فاقرؤوا عليه علم الكلام.

وإن أمكن تحقيق الفلسفة الإسلامية فلا بأس، فإنها تكسب العقل نفوذاً،

---

(1) الزيادة في نسخة ف.

(2) إشارة للآية الكريمة الواردة في سورة الزمر: 10.

(3) ألفية ابن مالك حيث عرف بمؤلفها ونشراتها سركيس في «معجم المطبوعات» ع 233 ـ 234.

(4) في نسخة ف: الاعتقاد.

(5) في نسخة ف: سنى.

والفكرة قوة، والكلام سعة، والعبارة ضبطاً، والنظر سداداً، والناظر جرأة، وهي خادم للناظر في أي علم[1]، وأهم تآليفه[2] علم المنطق، وقد قال الشيخ ابن عرفة: «من لم يعرف المنطق لا يوثق بعلمه»، وهو علم متداول يتيسر طلبه، فاعتنوا به.

وخذوا من علم الحساب القدر الذي لا بد منه في الفرائض والهيئة وغيرهما، وكتب القلصادي[3] كافية في ذلك، وهو مقصود لغيره، فلا تطلبوا منه إلا القدر المحتاج إليه في غيره، ولا تجعلوه مقصوداً في نفسه فتوغلوا فيه إيعالاً[4]، فيشغلكم عما هو أهم منه.

وخذوا من علم النجوم القدر الذي يحتاج إليه في المواقيت والقبلة من العبادات، وفي فصول السنة من العادات، والمتداول في ذلك رجز أبي مقرع[5]، فإن أمكنكم قراءته وقراءة روضة الجادري[6] فافعلوا، ولا عليكم ـ حينئذ ـ في فهم يسارة ابن البناء[7] إن تيسر لكم[8]، وقد قضيتم منه غاية الإرب، ولم يبق ـ بعد

---

(1) في نسخة ف: .... علم استعمل.

(2) في نسخة س: وأهم ما فيه، وفي ف: وأهمها فيه، وما أثبتناه تصويب.

(3) للقلصادي مؤلفات متعددة في الحساب، وكان المتداول منها لدراسة هذه المادة هو «كشف الأسرار عن علم حروف الغبار»، حيث نشر بالمطبعة الحجرية الفاسية وغيرها، وذكره سركيس في «معجمه» ع 1520.

(4) في س: أيضاً، وما أثبتناه هو الوارد في ف.

(5) كان هو المتداول في الدراسة الابتدائية للمواقيت قبل ظهور أرجوزة «المقنع» للميرغيتي، ولعبد الرحمن الجادري ـ آتي الذكر ـ شرح على رجز أبي مقرع صدره بترجمة مختصرة لناظمه، حسب مخطوط خ. م. 4585 ضمن مجموع، مع مخطوط خ. غ. ق: 1087 ضمن مجموع:

(6) «روضة الأزهار في علم وقت الليل والنهار»، أرجوزة للأسلاك الوسطى في هذه المادة، وهي منشورة بالمطبعة الحجرية الفاسية ضمن شرحها للباعقلي. وترجمة «ناظمها في سلوة الأنفاس» 2/157 ـ 158.

(7) اسمها الكامل: «اليسارة في تقويم السيارة»: رسالة صغيرة في مادة تعديل الكواكب، مذيلة بجداول موضوعية، وحسب موضوعها تأتي دراستها بعد تحصيل رجز أبي مقرع وروضة الأزهار، ومن اليسارة مخطوطات واحدة منها خ. م: 10145.

(8) في ف: إن يسرت لكم.

ذلك ـ إلا ما تركه أولى وأوجب.

أما علم الطب فأرجوزة ابن سينا[1] كافية في[2] ذلك، فلا أظنكم تجدون من تقرؤنه عليه.

ومن المهمات اتقان حفظ كتاب الله تعالى، وتحقيق أدائه ورسمه وضبطه، وأخذ ذلك عن أمثل من تمكنكم القراءة عليه، وفهم كتاب الخرازي[3] وابن بري[4] في الضبط والرسم.

ولا تشغلنكم الصفراء والحمراء[5] عن تحصيل ما هو أهم: من إعرابه وتفسيره وأحكامه، فإن تيسر لكم حضور تفسيره على شيخنا وإمامنا السيد عبد الرحمان فتلك الغنيمة إن شاء الله (تعالى)[6]، ومن أحسن التفاسير التي أحب لكم مطالعتها وتفهمها تفسير ابن جزي، ولا أقبل قول من يخالف في ذلك[7].

---

(1) انظر عن مخطوطات ألفية ابن سينا وطبعتها وترجمتها وشروحها: الأب جورج شحاتة قنواتي في كتابه: «مؤلفات ابن سينا»، نشر دار المعارف بالقاهرة: ص 172 ـ 175.

(2) في ف: فيه.

(3) هو الخراز ناظم أرجوزة «مورد الظمآن في رسم أحرف القرآن» على قراءة نافع، وقد ألحق به أرجوزة في ضبط المصحف الشريف، سماها: «عمدة البيان. في رسم ما قد خط في القرآن»، وكلاهما مخطوطتان متداولتان، وترجمة ناظمهما في «سلوة الأنفاس» 2/114 ـ 115.

(4) هو ناظم أرجوزة «الدرر اللوامع في أصل مقرأ الإمام نافع»: وقد تكرر نشرها ـ بتونس ـ ضمن شرحها للمارغيني. باسم النجوم الطوالع: «حيث ختم الشرح بترجمة الناظم».

(5) قال الداني: «والذي يستعمله نقاط أهل المدينة ـ في قديم الدهر وحديثه ـ من الألوان في نقط مصاحفهم: الحمرة والصفرة لا غير... وعلى ما استعمله أهل المدينة من هذين اللونين ـ في المواضيع التي ذكرناها ـ عامة نقاط أهل بلدنا قديماً وحديثاً.»: «كتاب المحكم في نقط المصاحف»: المطبعة الهاشمية بدمشق: ص 19 ـ 20.

فكأن الوصية تشير لهذا المعنى أو نحوه، مما يفضى إلى الإيغال في الاشتغال بالرسم القرآني وما إليه، على حساب ما هو أهم منه.

(6) الزيادة من نسخة ف.

(7) اسم تفسير ابن جزي: «التسهيل لعلوم التنزيل»، وهو منشور، وقد نوه به أبو الربيع الحوات، وذكر أن لشيخه محمد التاودي ابن سودة حاشية عليه في أحسن وضع، حسب=

ولا بد من معرفة علمي المعاني والبيان وتوابعهما، فبذلك يطلع على أسرار الكتاب المنزل، وحديث النبي المرسل، وتلخيص القزويني[1] فيه الشفاء، لا سيما بشرحه للشيخ سعد الدين[2].

واطلبوا الإجازة من شيخنا سيدي عبد الرحمان فيما أجازه[3] فيه شيخنا القصار[4]، وفيما له هو من تأليف ونظم[5] ونثر، وإن قدر لكم أن تسمعوا عليه صحيحي البخاري ومسلم فبخ بخ.

ولتجعلوا الفقه ـ مع ذلك كله ـ جل بضاعتكم، صارفين إليه أعظم اهتمامكم، فلا بد من حفظ الرسالة[6] والمختصر[7] وفهمهما إن شاء الله (تعالى)[8]، فإن وقع إشكال في مسألة أو انغلق عليكم فهمها، فلا يكون حظكم فيها[9] الاقتصار عنها وتوليتها ما تولت، بل تتبعوها[10] بسؤال من له معرفة، بالفن، ومطالعة الدواوين والكتب[11] حتى يقع الشفاء، ولا تحتقرُنّ من تسأل، فبذلك أوصانا شيخنا إمام وقته السيد محمد القصـار رضوان الله عليه.

= مخطوطة «الروضة المقصودة» عند الباب الثاني.

ويعد ـ حالياً بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ـ الأستاذ علي محمد الزبير من اليمن رسالة ماجستير عن «ابن جزي الكلبي ومنهجه في التفسير».

(1) تلخيص المفتاح أورده سركيس في معجمه ع 1509:

(2) له شرحان على تلخيص المفتاح: مطول ومختصر، حيث أوردهما ـ معاً ـ سركيس في معجمه ع 637 ر 638:

(3) في نسخة ف: في جميع ما أجازه.

(4) في نسخة ف شيخنا سيدي محمد القصار، وترجمته في الإعلام للمراكشي 4/ 227 ـ 233. الطبعة الأولى.

(5) زيادة الواو من نسخة ف.

(6) الرسالة القيروانية واردة في معجم سركيس ع 32 ـ 33.

(7) المختصر الخليلي أورده سركيس ع 836.

(8) الزيادة من نسخة ف.

(9) في نسخة ف: في ذلك.

(10) في نسخة ف: تتبعها.

(11) في نسخة ف: وبمطالعة الكتب والدواوين.

ثم لا يكن بحثكم ذلك شاغلاً عن تحصيل غيرها، فقد جعل الله لكل شيء قدراً، ومن أحسن ما يسلكه الطالب ـ إن كانت له أهلية النظر، وقابلية الفهم، وحصل له استعداد ـ معرفة أدلة المسائل من الكتاب والسنة والإجماع، ومأخذها من هذه الأصول، حتى يلحق الفرع بالأصل، بحكم[1] الربط والوصل.

ومعرفة قواعد إمامه التي بنى عليها أصوله وفروعه، وحينئذ لا بد له من معرفة أصول الفقه، وجمع الجوامع (لابن السبكي)[2] محصل لما فيه الكفاية منه، ومن معرفة القواعد المذهبية، وفي إيضاح المسالك للونشريسي[3] من ذلك ما يكفي، وقد نظمه ابنه[4] سيدي عبد الواحد في أرجوزة[5] وزاد عليه، ونظم القواعد ـ أيضاً ـ الزقاق[6]، ومن قصد إلى ذلك يتتبع مظانه[7]: كقواعد القرافي[8] والمقري[9] (وغيرهما)[10].

* * *

ثم ليكن قصدكم في ذلك[11] التقرب إلى الله تعالى مخلصين له، ولا تدنسوا صفو قصدكم بشوب غرض دنيوي، فإن الدنيا أحقر من أن تقصد بأشرف المطالب، وفائدة العلم العمل، وليس فيما سوى الله ـ تعالى ـ (لعاقل)[12] أمل،

---

(1) في نسخة ف: محكم.
(2) الزيادة من نسخة ف، وانظر عن جمع الجوامع معجم سركيس ع 1003.
(3) منه مخطوطات: واحدة منها خ.م 8522، وأخرى في خزانة وزان رابعة مجموع رقم: 680.
(4) في نسخة ف: ولده.
(5) في نسخة ف: قصيدة، ومنظومته هذه منها مخطوطة خ. م 6155.
(6) في أرجوزة باسم «المنهج المنتخب إلى قواعد المذهب»، وهو منشور بالمطبعة الحجرية الفاسية: ضمن شرح المنجور عليه.
(7) في نسخة ف: ومن ذلك من قصد تتبع مظانه.
(8) أنوار البروق من أنوار الفروق انظر سركيس ع 1502.
(9) تعرف قواعده باسم الكليات، ومنها خطوطة جيدة خ: ع: ق 1032 غير أنها مبتورة الأخر، وأخرى مصورة على الشريط رقم 1444.
(10) الزيادة من نسخة ف.
(11) في نسخة ف: في جميع ذلك.
(12) الزيادة من ف.

وإنما الأعمال بالنيات إلى آخره[1].

فأصلحوا نيتكم ما استطعتم، والتزموا التقوى وعمل البر، فإن ذلك ذخر ونجاة[2] في الدنيا والآخرة.

وتحلوا بحلل الأخيار جهدكم، فتخلقوا بتعظيم ما عظمه الله (تعالى)[3]، والتواضع، والحياء، (والوقار)[4]، والسكينة، وكرم النفس، والإغضاء، والصفح، وغض البصر عما لا يليق النظر إليه، والعفاف، وحسن العشرة، ولين الجانب، ونزاهة النفس، والتنزه عن سفساف الأمور وما يخل بالمروءة، واكتساب الصفات الحميدة[5] ما أمكن.

وإياكم والكبر وأضره في التعلم، والبطش، واتباع الشهوات، ومن أضر الأشياء صديق السوء، فإن صديق السوء يردي، والطباع تسرق الطباع، وقالت العامة: كن مع من تكون فمثله[6]، ومع من رأيتك شبهتك.

وإياك أن ترضى بصحبة ساقط

ولا تصحب من لا ينهضك حاله، ولا يدلك على الله (تعالى)[7] مقاله.

فإن كنت في قوم فصاحب خيارهم، وإذا صحبتم الأخيار، فالزموا الأدب والوقار، وإياكم والاستغراق في البسط والاعتماد على الدالة[8] فإن ذلك يزرع الضغائن، ويثير الكمائن، ومن مازح الناس استخفوا به وكان محمولاً على خفته،

---

(1) في نسخة ف: وإنما لكل امرىء ما نوى، بتكملة الحديث الشريف، وهو متفق عليه بين البخاري ومسلم وغيرهما.
(2) في نسخة س: ونجدة.
(3) الزيادة من ف.
(4) الزيادة من ف.
(5) في ف: المحمودة.
(6) في نسخة ف: «مع من تكون فمثله» بإسقاطكن.
(7) الزيادة من ف، والفقرة، ـ كاملة ـ من الحكم العطائية.
(8) في س النذالة.

والطبيعة داعية للمزاح، فليكن في الكلام، بقدر الملح من الطعام[1].

وعدوا كلامكم من عملكم، وأصلحوا من عملكم ما استطعتم، وانشغلوا[2] بما يعنيكم، فمن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه[3]، واعرفوا حق أهل محبة آبائكم، فإن من بر الرجل إكرامه أهل ود أبيه[4].

الاختصارات التي استخدمت هي:

ط. ف: المطبعة الحجرية الفاسية.

ع: عمود.

خ. ع. د: قسم حرف الدال من الخزانة العامة بالرباط.

خ. ع. ك: قسم حرف الكاف من الخزانة العامة بالرباط.

خ. ع. ق: قسم حرف القاف من الخزانة العامة بالرباط.

خ. م: الخزانة الحسنية بالرباط.

مجلة «كلية الشريعة» ع 5 سنة 1980

---

(1) في ف: في الطعام.

(2) في س: وأشغلوا.

(3) حديث شريف عند الإمام أحمد والترمذي وابن ماجة. وغيرهم.

(4) إشارة لحديث مسلم في كتاب البر: أن أبر البر صلة الولد أهل ود أبيه، وجاء في نسخة ف أثر الفقرة الختامية التي نعلق عليها: «انتهى ما تعلق به الغرض منها ويعني الوصية».

وصف مغربي للقسطنطينية
في أواخر القرن الثامن عشر
تقديم

يهتم هذا التقديم بالتعريف بالسفير المغربي ابن عثمان، ورحلته: «إحراز المعلى والرقيب...»، حيث يقتبس منها هذا النص الذي نقدمه عن وصف القسطنطينية أيام السلطان العثماني عبد الحميد الأول.

إن الرحالة المنوه به ينحدر من أسرة ـ بمدينة مكناس ـ عريقة في العلم وخطة التوثيق منذ بدايات العصر السعدي، واسمه ـ كاملاً ـ محمد بن عبد الوهاب ابن عثمان، وبمدينة مكناس كان مولده أواسط ق. 12 / 18 على وجه التقريب، وبنفس البلدة كانت دراسته للعلوم والآداب حتى برع في المادتين، وبرز في ميدان الكتابة والشعر، فيصفه الأمير عبد السلام بن السلطان محمد الثالث[1] بأنه كان فقيهاً أديباً حسن البديهة قوي العارضة، وله قصائد أعذب من الزلال، وأقطع عن السحر الحلال.

ثم يصفه ابن زيدان بـ «الفقيه العلامة الأديب الأريب..» وبـ «الشاعر المفلق النقاد، الكاتب البليغ...»[2].

وهكذا نتبين أن المترجم كان على جانب مهم من الثقافة، وخصوصاً في الناحية الأدبية، وذلك ما عرج به إلى بساط الأمير علي بن السلطان محمد الثالث، فانقطع إلى مجالسه الأدبية[3] ثم عينه السلطان محمد الثالث لقراءة الكتب بين

(1) «اقتطاف الأزهار من حدائق الأفكار» مخطوط خ. س ت١٠٦: مسودة المؤلف.
(2) «إتحاف أعلام الناس» المطبعة الوطنية بالرباط: 4/159.
(3) «اقتطاف الأزهار» مصدر سابق.

يديه، ومن هذه المهمة رقاه إلى منصب كاتب فوزير[1]، على أن وظيفته البارزة ـ في البلاط العلوي ـ هي السفارة عن السلطان محمد الثالث.

وكانت سفارته الأولى عام 1193/ 1779، حيث بعثه مخدومه سفيراً إلى إسبانيا لدى الملك كارلوس الثالث، وفي هذه الوجهة ألف رحلته «الإكسير في فكاك الأسير»، وهي الوحيدة التي نشرت من رحلات المترجم الثلاث، بتحقيق الأستاذ محمد الفاسي، حيث جاءت في جزء من قطع متوسط يشتمل على 249 ص: نصاً وفهارس عدا المقدمة، وصدرت عن المركز الجامعي للبحث العلمي سنة 1965.

ثم كانت السفارة الثانية عام 1195/ 1781، ذهب فيها إلى مالطة ونابلي، وعنها ألف رحلته: «البدر السافر لهداية المسافر إلى فكاك الأسارى من يد العدو الكافر».

لا تزال مخطوطة في نسختين من حجم صغير: إحداهما في الخزانة العامة بالرباط: قسم حرف الحاء رقم 52: 164 ص، والثانية بالخزانة الحسنية رقم 12523 تشتمل على 136 ورقة.

السفارة الثالثة رشح لها المترجم أواخر عام 1199/ وعنها ألف رحلته، «إحراز المعلى والرقيب...»، وهي التي نقتبس منها وصف الآستانة أيام السلطان العثماني عبد الحميد الأول.

وأخيراً: كانت وفاته ـ بمراكش ـ أول عام 1214/ 1799.

وقبل التعريف بهذه الرحلة يكون من المناسب التمهيد بكلمة عن علاقات المغرب بتركيا.

يصعد تاريخ العلاقات بين المغرب والعثمانيين إلى أواخر العصر المريني[2]، حتى إذا جاءت دولة السلطان العلوي محمد بن عبدالله بلغت ـ أواخر

---

(1) «إتحاف أعلام الناس» مصدر سابق: 4/159 ـ 160.

(2) «دائرة المعارف الوجدية»: 2/567.

ق 18/12 عصرها الذهبي، وذلك ما يترجمه الزياني بهذه الفقرة: «وكان رحمه الله ـ عالي الهمة، يحب الفخر ويركب سنامه، ويخاطب ملوك الترك مخاطبة الأكفاء، ويخاطبونه مخاطبة السادة، ويمدهم بالأموال والهدايا، حتى علا صيته عندهم، وحسبوه أكثر منهم مالاً ورجالاً»[1].

وضرب العاهل المغربي الرقم القياسي في موالاة العثمانيين، فدعا للسلطان عبد الحميد الأول وهـو يلقي ـ خطبة عيد الأضحى عام 1198/ 1784[2].

وفي إطار هذه العلاقات الأخوية أوفد السلطان العلوي إلى البلاط العثماني عدة سفارات تبتدىء من عام 1175/ 1762، فعام 1179/ 1765 فعام 1180/ 1766، فعام 1200/ 1785، فعام 1203/ 1789، فضلاً عن سفارات أخرى لم يحدد تاريخها[3].

وكانت سفارة عام 1200/ 1786 هي التي ذهب فيها ـ سفيراً إلى تركيا والحجاز ـ محمد بن عبد الوهاب ابن عثمان، يرافقه ثلاثة: صهر السلطان، مولاي عبد الملك بن إدريس العلوي، والكاتب عمر لوزيرق، وشيخ الركب النبوي، الحاج عبد الكريم ابن يحيى.

وإلى جانب السفارة لدى السلطان عبد الحميد الأول: كلف الرحالة بالتوجه ـ بعد ذلك ـ إلى الحرمين الشريفين لتوزيع الهدايا الملكية على أصحابها.

وقد غادر مدينة الرباط ـ حيث كانت إقامة السلطان ـ يوم فاتح محرم 1200/ 1785، ونظراً لعدم مساعدة البحر في هذا التاريخ تأخر سفر الوفد من المغرب مدة طويلة، ثم كان وصولهم إلى ميناء القسطنطينية يوم 4 شوال 1200/ 1786، وفي 27 من الشهر ذاته كان ابن عثمان يؤدي السفارة إلى السلطان عبد الحميد الأول.

---

(1) «البستان الظريف» للزباني، مطبعة المعارف الجديدة ـ الرباط 1/483.

(2) المصدر: 1/455.

(3) المصدر: 1/395، 399، 401، 455، ومواضع أخرى، مع «إتحاف أعلام الناس» مصدر سابق: 3/306 ومواضع أخرى.

ومكث ـ بعد هذه المقابلة ـ بالعاصمة العثمانية مدة طويلة في انتظار خروج الركب التركي إلى الحج يوم 29 رجب 1201/ 1787، وبهذا فإن ابن عثمان أقام بالقسطنطينية من 4 شوال 1200 هـ حتى يوم 29 رجب 1201 هـ، أي قرابة عشرة شهور، وهي مدة كانت كافية ليستوعب السفير وصف عاصمة الأتراك: معمارياً واجتماعياً واقتصادياً... وهو الوصف الذي نمهد له بهذا المدخل، حيث يوجد ضمن الرحلة التي دون بها ابن عثمان ارتساماته عن الآستانة والجهات التي مر بها[1].

وكما أشير له سلفاً: فإن الرحلة تحمل اسم «إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب»، لا تزال مخطوطة في نسختين في الخزانة الحسنية بالرباط، الأولى تحمل رقم 5264، وتشتمل على 348 ص، مقياس 210/ 150 مم، مسطرة 17، مكتوبة بخط مغربي مجوهر دقيق مليح مجدول ملون، وخال من تاريخ النسخ واسم الناسخ.

والثانية تحمل ـ بنفس الخزانة رقم 12307، خطها شبيه بسابقتها، وتشتمل على 330 ص، مقياس 204/ 123 مم، مسطرة 17.

وهي مصدرة بثلاثة تقاريظ منظومة في بحر الكامل، ومكتوبة بخطوط أصحابها حسب الأسماء التالية:

1 ـ محمد العربي بن إسماعيل الناصري: بتاريخ جمادى الأولى عام 1210 هـ.

2 ـ موسى بن محمد المكي الناصري: دون تاريخ.

3 ـ شاعر لم يذكر اسمه ولا تاريخ نظمه.

ومن الجدير بالملاحظة أن النسختين معاً مكتوبتان تحت إشراف المؤلف، وذلك ما يشير له وجود خط الرحالة بهما.

إن النسخة الأولى هي التي اعتمدناها أكثر، وإليها رجعنا في استخراج النص الذي يصف القسطنطينية أيام السلطان عبد الحميد الأول، حيث يوجد بها متفرقاً بين

---

(1) التفاصيل في الرحلة التي تقدم لها.

ص 24 إلى ص 29، ثم من ص 38 إلى ص 59، ومن ص 88 إلى ص 91، وحذفنا ما بين ذلك من الفقرات الخارجة عن وصف القاعدة العثمانية.

ثم اجتهدنا في تصحيح هذه القطعة، وعلقنا عليها بالتوضيحات اللازمة، وأخيراً قام بترجمتها إلى الإنكليزية الرفيق الصديق المحترم د. محمد ابن عبود.

النـــص

«ذكر القسطنطينية العظمى التي فاقت حواضر الدنيا ترتيباً ونظماً»

إن قلت بلد، اتكالاً على مالها من التخصيص في القلب والخلد، فقد أضعت حقها، ويبقى الاحتمال في أن يكون هناك ما هو فوقها، وإن قلت مدينة واقتصرت، فلا منعت دخول غيرها ولا حصرت، وإن قلت إقليم، فقد يشتمل على عمران وخراب، وبحران وسراب، والحق أعلى، وتأدية الحقوق من إخسارها[1] أولى، وما رأيت ما يؤدي وصفها ومعناها، وما اشتمل عليه أقصاها وأدناها، إلا ما أجابني به بعض أحبار النصارى الذين بها مستوطنون، وبحضرتها من القديم قاطنون، حيث قلت له: ما أعظم هذه المدينة، فقال: لا يقال أنها مدينة، هذه الدنيا، والحق قال، إنما هي الدنيا حقيقة، ففيها من الأمور الدنيوية ما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين، فلا يمكن أن تسأل عن شيء غريب إلا تجد منه سوقاً، فهي محشر الأمم، ومحط الرحال، وبحر العمران، وغاية القصّاد، والمورد العذب للوراد، لا يوقف في وصفها على حد، ولا يتناهى في مآثرها ومحاسنها على عد. (فلها المساجد التي بهرت، وبالتدريس وطلاب العلم ازدهرت، التي في بديع شكلها وحسنها ورونقها لا تضاهى، ولها الأسواق العامرة بالأشياء الغامرة[2] لا تتناهى، (فالأولى أن نقتصر في الخبر على كلام النصراني الحبر، إلا أن بردها عاصف، وقرها لا يصفه واصف، لا يرده دثار، ولا موقد نار، فهي إناء للثلج المصبوب، فتنبو عن المضاجع من قرها الجنوب، وكثيراً ما يقع في ديارها

(1) يقال أخسر الرجل وقع في الخسران، ومصدر أخسر إخساراً.
(2) غمر الماء كثر.

وأسواقها حريق النار وألهوب، لأن بيوتها من الخشب المجلوب، ولله من قال:
وناهيك بها حسنة تعد من الذنوب، (وسبب انتقالهم إلى الخشب عن البناء بالحجارة، وإن كان قريباً بعضه من بعض في العمل والإجارة: شدة ما يقع بأرضهم من الزلازل التي لا تبقي ولا تذر، وانتقال من موت لآخر، واجب في الشرع ومقرر، فهي على ما هي به من الخيرات موصوفة، جنة بالمكاره محفوفة، (وكفاها شرفاً وفخراً، ما حازته دون غيرها قنية وذخراً: قبر أبي أيوب الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ، وكونها موطن جهاد، وقراع للعدو وجلاد، منها تجهز الجيوش والكتائب، وتشحن السفن والمراكب، وتفرق الجرايات[1] والإعانة والرواتب، جعل الله لها من حفظه وكلاءته لزيماً يرافقها، وأجرى القدر بما يوافقها، (وقبر أبي أبواب خارج عن المدينة بربطها[2] وعليه عمارة كثيرة، وقد توجهنا إلى زيارته مراراً، فنركب البحر في زورق ونتوجه إليه، لأن المسير في البر بعيداً من أجل كبر هذه الحاضرة وعظمها، فدخلنا مدفنه المبارك، فإذا قبة حافلة مشتملة على ذخائر من الأواني الفضية، والمنارات والحسك العظام لوقد الشمع، وما أشبه ذلك، وزرنا قبره المبارك وتبركنا به، رضي الله عنه ونفعنا به ولله الحمد، وبإزائه مسجد تقام فيه الجمعة.

(وهذه المدينة مؤسسة عند مجتمع البحر الرومي[3] مع البحر الأكحل[4] الذي يسمونه بلغة الترك قَارَدنِزَ[5]، انعطف البحر معها فانعطفت معه العمارة متصلاً بعضها ببعض، وهناك يرسون المراكب،، وفي العدوة الأخرى الشرقية وهي «الغلاطة»[6] مثل ما بالقسطنطينية من العمارة، واستمرت كذلك إلى أن دخلت مع

---

(1) تطلق الجراية على ما يناله الجندي كل يوم.
(2) لعل أصل التعبير: بربضها، والربض ما حول المدينة من بيوت ومساكن.
(3) هو البحر الأبيض المتوسط.
(4) تعبير عامي عن البحر الأسود.
(5) شكلها المؤلف بفتح القاف والراء والزاي مع كسر النون.
(6) يقول محمد بيرم الخامس وهو يصف القسطنطينية: «وقد وضعت البلد على سفح ثلاث جبال يفصل بينها الخليج، أما قسم منها فيفصل بينه وبين غيره الخليج الكبير، وهذا القسم هو المسمى بأسكودار الواقع في قارة آسيا، والقسمان الآخران يفصل بينهما فرع من هذا=

مجاز البحر الأكحل، وهو ضيق كثير[1] تقطعه كورة المدفع، وعليه قلاع كثيرة محصنة بالمدافع مقابل بعضها ببعض من الجانبين، والديار والأسواق عامرة، إلى أن انتهى ذلك البغاز[2]، (وقد مررت ذات يوم لرؤية ذلك فركبت زورقاً وسرت قريباً من الشاطىء نحواً من ثلاث ساعات كلها عمارة: ديار وأسواق، وغلبني البحر ورجعت، لأن ذلك المجرى ضيق كثيراً، والماء خارج من البحر الأكحل إلى البحر الشامي كأنه السبيل لا يقف له شيء لشدة جريه، فقد كنا في بعض المواضع منه لا يقدر الملاحون على المسير فيه بالمجاذب، فنكتري أناساً في البر معتدّين لذلك، فيجدبون زورقنا بالأحبال حتى يجوزونا ذلك الموضع، وقد فعلنا ذلك في مواضع متعددات، وكذلك السفن الكبار لا يقدرون على المجاز منه إلا على هذا الوجه، فتراهم يطول مكثهم حيث يريدون الدخول إلى هذا البحر، وأما الخروج منه إلى البحر الشامي فهو سهل لكثرة جري الماء.

والسلطان ـ نصره الله ـ له داران أحديهما في العدوة التي فيها اسطنبول[3]، ويسكنها في فصل الشتاء، والأخرى في العدوة الأخرى في مقابلتها، ويسكنها في فصل المصيف، وهذه الحاضرة ـ بما أضيف إليها ـ على البحر كالأثافي: فالقسطنطينية، وقبالتها الغلاطة شرقاً، والأسكدار قبلة[4]، (وأما ما بها من الخيرات تفصيلاً فشيء لا تفي به عبارة: أما الفواكه والخضر الصيفية والخريفية فلا تنقطع أبداً، فالتفاح والكمثري والبطيخ والدلاع والعنب: موجود فيها السنة كلها، حتى تظهر الفاكهة الجديدة، (وأما اللحوم ففي وقت البرد والشتاء والثلج يكون

= الخليج داخل في قارة أوربا، إلى أن يتصل بجدول يعرف بكاغدخانة، فالقسم الشرقي من القسمين يسمى بغلطة، والقسم الغربي يسمى باستانبول: «صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار» 5/42.

وقد رسم هذا المصدر غلطة باللام وليس بلام الألف، وكذلك جاء ذكرها في المنجد مشكولة بثلاث فتحات: «غَلَطَه»، وكذلك كتبها المؤلف ص 32.

(1) مقتضى العربية أن يقول كثيراً.

(2) يكتبه المؤلف دون واو خلاف الصواب في رسمه بإثبات الواو.

(3) لتحديد موقع اسطنبول يرجع إلى التعليق رقم 6 ص 1209.

(4) هذا التحديد يطابق وصف بيرم عند التعليق رقم 6 ص 1209.

اللحم فيها أسمن ما يكون، وفيها الغنم الشعيبية ذوات الذيول.

ومن أغرب الغرائب أن الأسعار لا تتبدل فيها دائماً: فالخبز والدقيق واللحم بسعر لا يزيد ولا ينقص على كثرة ما بها من الأمم، وأغرب من ذلك أن الجميع مجلوب إليها في البحر، ولو ترى مرساها، وكثرة من يغشاها، وما بها من ازدحام الوارد والعمارة: لعلمت مقدار هذه الإمارة.

وأما الفلائك التي يعبر الناس فيها من ناحية إلى أخرى فقد سألت ذات يوم بعض الملاحين كنا راكبين في زورقهم عن عدد الفلايك؟ فقال: لا أدري إلا أنهم حسبوهم في زمن السلطان مصطفى ـ رحمة الله عليه ـ فوجدوهم نحو ثمانين ألفاً، وتعددت الروايات بمثل ذلك، فبهذا الاعتبار، يظهر لك مقدار هذه.

وأما مساحة أرض القسطنطينية خاصة: فقد مررت بوسطها من باب لآخر بقصد الاختبار، فقطعتها على مسير ساعتين بسير المراكب المتوسط، وقد درت بسورها من جهة البرّ: من البحر إلى البحر في مسيرة ساعة وربع، وما يلي البرّ منها إلا قليل: نحو الربع، وثلاثة أرباعها ـ بالتقريب ـ موالية للبحر، ويدل على ذلك قطع مساحتها طولاً في مسيرة ساعتين، لأنه ثلث المدينة العظيمة المقدار، فإن التفتت إلى من دخل إليها أو خرج، فحدث ولا حرج، فالسفن ترد عليها كأنها القوافل، جالبة لمتاع الدنيا حوامل، ولكل إقليم مرسى معينة لا ترسى مراكبه إلا بها، لتكون معزولة من أجل الكثرة عند طلابها.

وأما أسواق ثياب الحرير والملف والفضة والذهب والأحجار والسلاح: فشيء لا يكيف، أما السوق الذي يسمى بالمغرب القيصرية إذا افترق الإنسان عن صاحبه فلا يمكن أن يجده، إلا أن يتلاقى به على غير ميعاد لكبره وكثرة انعطافاته والازدحام وآفاته.

ومن حضارة هذه المدينة وحسن ترتيبها: إن سوق كل نوع من السلع والحرف معزول عن غيره، ولا يتعاطون أهله إلا تلك الحرفة، حتى أن ما ينقى به صمغ الأذان له سوق معلوم، لا يصنع أصحابه إلا ذلك، وليقس على ذلك، وحتى

الحشرات لها سوق معلوم: يتوقد[1] عليها أهل الطب.

وأما مساحة أرض القسطنطينية خاصة: فقد مررت بوسطها من باب لآخر بقصد الاختبار، فقطعتها على مسير ساعتين بسير الراكب المتوسط، وقد درت بسورها من جهة البرّ: من البحر إلى البحر في مسيرة ساعة وربع، وما يلي البرّ منها إلا قليل: نحو الربع، وثلاثة أرباعها ـ بالتقريب ـ موالية للبحر، ويدل على ذلك قطع مساحتها طولاً في مسيرة ساعتين، لأنه ثلث الدائرة، لأنه إذا كان مساحة ربع منها ساعة وربع، فيكون في جميع أرباعها خمس ساعات، وهذا بالتقريب، وثلث ذلك ساعتان إلا ثلث، ونحن سرنا ساعتين، فيحتمل أن يكون في ناحية البحر أكثر من ثلاثة أرباع، ومع كبرها فلها ثلاثة أسوار، ومن ورائها الحفير، ولها من الأبواب لناحية البرّ سبعة، وقبالة كل باب قنطرة مضروبة على الحفير.

ولها من الأبواب لناحية البحر أربعة وعشرون، ومن المراسي أربعة وعشرون، خارج كل باب مرسى، وهذا من غير العدوة التي فيها الغلاطة واسكدار، وأرضها قليلة الماء، فجل أجناتها تسقى بالدواليب والغرب[2].

. . . ومن غرائب القسطنطينية مسجدها الأعظم العتيق المسمى أياصوفيا[3]، وهذا الاسم وضعه عليها النصارى في القديم سموها على امرأة صالحة عندهم، وكانت عندهم بيعة من أعظم البيع، فطهرها الله من شركهم ورجسهم، وصيرها مسجداً جامعاً لإقامة دينه القويم، ولتلاوة كلامه القديم.

شكل بنائه غريب غير معهود في مساجد المغرب ولا الأندلس، لأنه قبة واحدة في غاية الضخامة والارتفاع، والجميع من الرخام، مشتمل على ما تحار فيه العقول من الصنائع والنقوش الرائعة، والاختراعات الفائقة، تقصر عن وصفه العبارات والتقريرات والإشارات، وبه خزانة الكتب الجامعة، والأنوار اللامعة، فهو مأوى للأولياء، وكناس الأصفياء الأتقياء.

---

(1) في مخطوط 5264 = يتوقف وهو الصواف (ص 30).

(2) شكلها المؤلف بفتح الغين وسكون الراء، والمراد بها الدول العظيمة.

(3) صوفيا اسم أميرة، وأيا بفتح الهمزة والياء معناه سيدة جليلة، حسب كتاب «غرائب الاغتراب» ص 108.

طول القبة ثلاثماية وخمسة وعشرون قدماً، وعرضها مائة وثمانية وثلاثون قدماً، وعن يمين القبة ومسارها سقف على أعمدة عظام من الرخام منحط عن أعلى القبة، يصعد إليه ويشرف منه على المسجد، مساحة كل ناحية سبعة وخمسون قدماً، وذلك من حساب المسجد معد للصلاة، وقد صعدنا إلى فوقي سقف المسجد فوجدنا هنالك بيتاً في زاوية من زواياه كان متعبداً للكفار الذين كانوا هنالك، ولا زالت في حيطانه صورهم إلى الآن، وأمام البيت قبر أم قسطنطين بانية المسجد المذكور، وهو معروف عندهم إلى الآن.

وخارج باب القبة بلاطان كبيران على قدر القبة هما من حساب المسجد أيضاً، مفصولاً بينهما وبين القبة بجدار مفتحة فيه أبواب للبلاطين المذكورين، عرضهما خمسون قدماً، ومكتوب عن يمين المحراب وشماله بخط غليظ بالأبيض في لازوردية[1] آية الكرسي[2]، وعن يمين المحراب وشماله شمعتان كأنهما في الطول والغلظ أعمدة حقيقية، رأيت بإزاء كل واحدة سلماً يصعد فيه إلى إيقادها بنحو سبع عشرة درجة، فتوقدان عند صلاة المغرب ويطفيان، ويوقدان أيضاً عند صلاة العشاء والصبح حتى يفرغ من الصلاة، وهكذا السنة كلها، ويوقدان في شهر رمضان حتى يصلي الناس التراويح، وعند رأس كل سنة يجعلون في رمضان شمعاء آخر ويحملون ما بقي من الآخرين إلى دار السلطان بقصد التبرك، وهكذا مساجد القسطنطينية كلها، يجعلها لها مثل هذا الشمع على هذا النسق، ومكتوب في وسط أعلى القبة ﴿الله نور السماوات والأرض﴾ إلى ﴿ذُرِّيٍ﴾[3] بخط غليظ بالسواد، وتحت ذلك منحدراً إلى ناحية القبلة «بقية الآيات إلى أن ترفع»[4] ومكتوب في سائر زواياها اسم الجلالة بذوب الذهب بخط غليظ، واسم النبي ﷺ والخلفاء الأربعة والحسنين رضوان الله تعالى عليه أجمعين: كل اسم في زاوية، وغير ذلك من الآيات القرآنية، وبها من المصابيح عدد كثير، فالوقادون الذين

(1) اللازورد معدن أجوده الصافي الشفاف الأزرق الضارب إلى حمرة وخضرة.
(2) الآيتان 253، 254 من سورة «البقرة».
(3) أول الآية 35 من «سورة النور».
(4) بقية الآية 35 وأول الآية 36 من سورة «النور».

يوقدون مصابيحها عشرة: كل واحد يوقد ناحية، وصحنها مفروش بالرخام الأبيض، في وسطه بركة ماء عليها قبة من شبابيك الصفر دائرة بها أنابيب كثيرة، فمن أراد أن يتوضأ أو يشرب يفتح الأنبوب ويقضي غرضه ويغلقه.

وقد دخلنا من الصحن المذكور إلى قبة مدفون فيها السلطان مراد أحد ملوكهم وزوجته وأولاده.

ومن أعظم المساجد بهذه الحاضرة مسجد السلطان أحمد والد السلطان عبد الحميد الموجود في وقتنا هذا، وهو بقرب أياصوفيا، مبني كله من الرخام الأبيض الناصع، أية في العظم والضخامة، مبني على شكل مسجد أياصوفيا المتقدم الذكر: قبة واحدة في وسطه، وحواليها ـ بلاطات، وقد رفعت هذه القبة على أربعة أعمدة من الرخام الأبيض أيضاً، سعة كلّ ربع من أرباع كل عمود أربعة وعشرون قدماً، والأعمدة المذكورة مستديرات الشكل من غير أركان، مشرّفات الصنعة، ومساحة عرض القبة فيما بين الأعمدة ـ والأعمدة خارجة ـ ثمانية وسبعون قدماً، ومن فوق البلاطات التي حوالي القبة مقاعد مشرفات على المسجد في غاية اللطافة وغرابة الشكل، معدة للصلاة من حساب المسجد، وحيطان المسجد كلها مرصعة بالزليج الفائق، وأما منبرها فعجب، وكله من الرخام الأبيض، ما شئت من توريق أنيق، وترصيع نصيع، ومكتوب في زوايا القبة وفوق المحراب آيات قرآنية بذوب الذهب، فقد رسم فوق المحراب: ﴿كلما دخل عليها زكرياء المحراب وجد عندها رزقاً﴾[1] وهذه الآية مكتوبة في جميع محارب هذه المدينة، وتحته ﴿فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب﴾[2]، ومن فوق الجميع قرب السقف: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة﴾ إلى ﴿ولا هم يحزنون﴾[3]، ومكتوب في وسط القبة من أعلاها: ﴿إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا﴾ الآية[4].

---

(1) من الآية 37 من «سورة آل عمران».
(2) أول الآية 39 من «سورة آل عمران».
(3) الآية 276 من «سورة البقرة».
(4) رقم 41 من «سورة فاطر».

وفي دائرة أسفلها: ﴿الله نور السماوات والأرض﴾[1] الآية، ومكتوب في الأعمدة الأربعة المرفوعة عليها القبة دائرة بكل عمود مثل الحزام بذوب الذهب بخط غليظ في الأخصر: ففي العمودين اللذين يليان القبة. ففي الأيمن منهما ما نصه قال تبارك وتعالى ﴿إنما يعمر مساجد الله﴾ إلى ﴿المهتدين﴾[2]، وفي الأيسر ما نصه قال تبارك وتعالى: ﴿الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها﴾ إلى ﴿أجل مسمى﴾[3] وفي العمودين الذين في الجوف: ففي الأيمن ما نصه قال تبارك وتعالى: ﴿لمسجد أسس على التقوى﴾ إلى ﴿المطهّرين﴾[4]، وفي الأيسر: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب﴾ إلى ﴿يرشدون﴾[5]، وفي العمودين الأخيرين المذكورين أنابيب ماء بغلقها ترسل عند الحاجة إليها لشرب أو وضوء، ومرسوم في زوايا المسجد آيات قرآنية مناسبة لحال المسجد، مثل قوله تعالى: ﴿ومن يسلم وجهه إلى الله﴾ إلى ﴿الوثقى﴾[6]، ومثل ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء﴾ إلى ﴿شطر المسجد الحرام﴾[7]، وغير ذلك من الأي، وقد جعلوا عن يمين المحراب وشماله أبواباً متعددات كباراً بشبابيك الحديد، ومن داخلها أبواب من الزاج لإدخال الضوء ورد الريح والقر، ومن دونهم أبواب من جيد العود المرصع بالصدف، وقد أحاط بالمسجد سور آخر بينه وبين المسجد براح كبير من الجهات الأربع والمساجد في الوسط، جعلوا فيه من ناحية قبلة المسجد بستاناً يرى من داخل المسجد من تلك الشبابيك المذكورة أكسبه مظهراً حسناً، وفي أحد الأرباع المذكورة في جدار المسجد سقايات لها أنابيب بأغلاقها، قبالة كل أنبوب دكان من الحجر لأجل أسباغ الوضوء، وحول الجميع مدارس ياوي إليها طلبة العلم مؤونتهم من أوقاف المسجد رحم الله بانيه، وقد توجهنا لزيارة قبر السلطان أحمد

(1) رقم 35 من «سورة النور».
(2) الآية 18 من «سورة التوبة».
(3) من الآية 2 من «سورة الرعد».
(4) من الآية 109 من «سورة التوبة».
(5) الآية 185 من «سورة البقرة».
(6) من الآية 21 من «سورة لقمان».
(7) أول الآية 113 من «سورة البقرة».

(بائي) المسجد المذكور، وتربته بإزاء مسجده، وعلى ضريحه قبة دائرتها مقدار م كتبت فيه سورة الملك[1] إلى قوله تعالى: ﴿سيئت وجوه الذين كفروا﴾، وباقي السورة كتب بخط أرق من الأول في ثلاث سطور أو أربع رحمة الله تعالى عليه.

ومن أعظم مساجد هذه الحاضرة: السليمانية، وهو مسجد السلطا سليمان، وهو على الشكل المذكور وان اختلفت صنعتهما، فيجمعهما كونهم من قبة واحدة وحواليه براح كما ذكر، وهو أكبر من مسجد السلطان أحمد.

ومن ألطف مساجد القسطنطينية وأكثرها تأنقاً مسجد السلطان عثما ويسمونه العثمانية، وإن كان صغير الجرم فهو غريب الشكل عديم المثل، صلي فيه الجمعة مراراً، كله من الرخام كغيره. وفيه عمل رايق، وصنع فائق، فهو يثني على بانيه، بلسان تناهيه، ما شئت من طيقان في أعلاه ووسطه، مغلفات بصفائح الزاج على ألوان، مكتوب فيها أسماء الله الحسنى وآيات من القرآن، ومكتوب عند انتها ارتفاع جدران القبة وعند الأخذ في انعطاف البناء لأجل استعمال القبة كالحزام: سورة الفتح[2] من أولها إلى آخرها بخط غليظ جداً بذواب الذهب في سواد، وانتهى آخراً بسورة عند الابتداء وهذا مقدار دائرتها.

ومن أبهى مساجدها: مسجد علي باشا، كان وزيراً على عهد السلطا محمود، ـ فهو قيد البصر، وفذلكة الحسن، والعمل كالعمل.

وكذلك مسجد السلطان مصطفى رحمة الله عليه من هذا النمط وإن كان أصغر من هذين المسجدين بقليل، وقد صلينا فيه رحمة الله على بانيه ودخلنا ضريحه، وهو بقرب مسجده، فإذا تربة تحدث في القلب خشوعاً وانكساراً، مكتوب على بابها ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾[3]، وفوق الباب من داخل القبة ﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾[4]، ومكتوب في دائرة القبة بسم الله الرحمن الرحيم ﴿فإذا مس الإنسا ضرّ دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا﴾ إلى ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم﴾

(1) هي السورة 67 من «المصحف الشريف».
(2) هي السورة 48 من «المصحف الشريف».
(3) أول الآية 185 من «سورة آل عمران».
(4) آخر الآية 2 من «سورة الحشر».

إلى ﴿إنه غفور رحيم﴾[1]، وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً إلى ﴿خالدين﴾[2] صدق الله العظيم، ﴿سبحان ربك رب العزّة﴾ إلى آخرها[3].

وأما ما في هذه المدينة من خزائن الكتب المعتبرة التي لا يوجد مثلها في سائر البلاد فشيء لا يفي به تقرير ولا يؤدّيه تعبير: كل مسجد له خزانة، وهناك خزائن أخر من غير المساجد، ويظل الجميع مفتوحاً والقيم حاضر، ومن أراد أن يطالع أو ينسخ يظل هنالك حتى يقضي غرضه، ولا تخرج ورقة من هنالك.

وعدد مساجد الخطبة في القسطنطينية على ما أخبرني به بعض الناس بعد البحث وعلى ألسنة الناس: شيء لا يقبله عقل: مائتا مسجد من غير مساجد الملوك وهم نحو العشرة، وفي الغلاطة وأسكدار وغير ذلك نحو الخمسين، وأخبرني بعضهم أن عدد الحمامات داخل سور أسطمبول خاصة مائة وسبعة وسبعون، وباسكدار والغلطة وقاسم باشا عشرون.

ومن أعظم مساجد القسطنطينية وأشهرها وأكبرها وأكثرها عمارة وقراءة ومجالس وطلبة ومدارس: مسجد السلطان محمد خان الفاتح، نعني فاتح القسطنطينية رحمة الله عليه، فشكل بنائه على مثال أياصوفيا، وهو كله من الرخام الفائق، وفيه صنع رائق، وصحنه كلك مفروش بالرخام، دائرة به سقائف على أعمدة عظام من الرخام أيضاً، مكتوب أعلى جدار المسجد مما يلي الصحن: حديث «ستفتح القسطنطينية ونعم الجيش جيشها، ونعم الأمير أميرها»، لكن أياصوفيا أكبر من الجميع إلا أن مسجد السلطان محمد أكثر مساجد القسطنطينية قراءة وطلبة، فقد كنت أتكلم ذات يوم مع بعض مدرسيها، فأخبرني أن عدد مدارس هذا المسجد ست عشرة مدرسة، وجميع ما بها من الطلبة يقبض المئنة والجراية اليومية أو الشهرية من أوقاف المسجد الذي جعل له السلطان بانيه رحمة الله عليه وتقبل منه، فإذا دخلت إلى هذا المسجد فلا تكاد تسمع من جلبة أصوات المدرسين، فحلق المجالس متصل بعضها ببعض، وجل قراءتهم علم المنطق

---

(1) الآيات 46 ـ 50 من «سورة الزمر»، على بعض خلل من المؤلف في سياق الآية.

(2) الآية 70 من «سورة الزمر.

(3) الآيات 180 ـ 182 آخر «سورة الصافات».

والنحو والتصريف وعلم المعاني والبيان، هذا الغالب وغيره نادر.

ومن طلبة هذا المسجد تخرج المدرسون فيه وفي غيره في سائر المملكة العثمانية، ويترقون بعد ذلك إلى مرتبة القضاء على المراتب التي أذكرها بعد إن شاء الله، فهو أول المراتب، ولهم في ذلك ترتيب، وقانون تجيب، رأيت أن أذكره وأبتدأ بأعلى مراتبه فأقول: أعلا المراتب العلمية رتبة المشيخة الإسلامية ويسمى صاحبها بشيخ الإسلام ومفتي السلطنة العلية، وليس له مدة معينة إن شاء السلطان عزله في مدة قليلة وإن شاء أخره مدة كثيرة كالوزير الأعظم، وهو يشاركه في أمور عظيمة من أمور الدولة، فلا بـد من انضمام رأيه فيها، ويتوقف على إشارته جميع الخدمات العلمية في المماليك: كالوعظ والتدريس ونحوها، والإشارة أن يكتب من كان شيخ الإسلام ويوقع في عرض حال[1] طالب إحدى الخدمات المذكورات تنفيذ ذلك ولا بد للوزير الأعظم من أن ينفذها فلا ترد أصلاً.

ويتوقف على إشارته توجيه المناصب للموالي[2] التي أذكر بعد هذا إلى[3] منصب قاضي عسكر، ويعطى من بيت المال له حين نصبه في كل شهر نحو سبعماية وألفي قرش، ويعطى له أيضاً بإشارته من الدولة العلية قضاء أو قضاءين بطريق أَرْبَهَ لَقْ[4] المعني يصرف مستفادها في علف دوابّه، ويبقى له ذلك منصوباً أو معزولاً، وليس هذا بمنصب لكن يشبهه فيوليه من يختار وإن أراد عزله ويكون المولى نائباً عنه في ذلك القضاء فيجري الأحكام الشرعية فيه، وما يحصل من أجرة الوثائق الشرعية يأخذ النائب منه خمسه ويدفع أربعة أخماس للمنوب عنه في كل شهر، وفي هذا الزمان يولي صاحب أربه لق إلى من شاء مقطوعاً محصوله في كل شهر بكذا، ومقدار ما يحصل لشيخ الإسلام مما يسقونه أربه لق زيادة على منصبه في كل شهر: ألفا قرش أو أزيد منه إلى ثلاثة آلاف فإذا مات شيخ الإسلام

(1) عرض الحال عند الكتاب الأتراك: كتاب يرفع إلى والي الأمر تظلماً أو استجلاباً لنعمة.
(2) يقصد الذين تلي رتبهم رتبة شيخ الإسلام.
(3) هكذا، وصحة العبارة تقتضي حذف إلى، وقد ذكر الزياني رتبة قاضي عسكر وما بعدها في سياق أوضح مما عند ابن عثمان، حسب «الترجمانة ص 111 ـ 112.
(4) يشكلها المؤلف بفتح الهمزة وسكون الراء وفتح الهاء واللام وسكون القاف.

أو عزله السلطان يتولى مشيخة الإسلام من يريد السلطان ممن هو دون هذه المرتبة وهو قضاء عسكر بروم ايلي[1]، رتبة قضاء عسكر بروم ايلي ومعناه قاضي القضاة فيها، ويسمى صاحبها قاضي العسكر بروم ايلي وفي يده تولية قضاء البلدان التي فيه على مراتبهم المعينة إلى من هو أقدم زماناً في كل مرتبة منها، وفي يده أيضاً تولية بعض الخطط مثل الإمامة والخطابة والتأذين، وهو يقضي بنفسه بين العساكر بالشرع في المحل الذي فيه السلطان، ويقسم مخلف الموتى على الورثة على فرائض الله في بروم ايلي، ويمكث سنة واحدة ثم يعزل، ويتولى مرتبته من هو أقدم زماناً ممن هو دون هذه المرتبة، فهي من المناصب المناوبة، فإذا عزل يعطى له أربه لق أيضاً مقطوعة ألفا قرش: اثنان أو أقل بقليل.

رتبة قضاء عسكر أناضولي، وعمله مثل عمل من فوقه في المرتبة لكن عمله في ديار أناضولي، ويتولى مرتبته إن مات أو عزل من هو أقدم ممن دون هذه المرتبة، فإذا عزل يعطي له أربه لق أقل مما فوقه، وقد تقدم معنى أربه لق.

رتبة قضاء القسطنطينية، يقضي بين أهل القسطنطينية ويقسم بين الورثة مخلف موتاهم، لكن في البلد خاصة من غير العسكر، ويصل إليها من هو أقدم ممن دون هذه المرتبة، ويعطى له بعد عزله أربه لق أقل ممن فوقه إلى خمسمائة قرش عن كل شهر، والمعزولون منها عددهم اليوم نحو العشرين، ويصل إليها من هو أقدم ممن دون هذه المرتبة، وهي رتبة قضاء البلدان الأربعة، وهي أدرنه، وبروشه، والشام، ومصر، ويعطى للمعزول عنها أربه لق من ثلاثمائة إلى أربعمائة قرش، ويصل إليها من هو أقدم ممن دون هذه المرتبة، والمعزولون منها نحو ثمانية رجال.

رتبة قضاء الخرج وبلدانه ثمانية، القدس الشريف، وحلب الشهماء ومدينة أبـي أيوب الأنصاري التي بجوار القسطنطينة، ويكينشهر فنار، وسنانيك، وغلظة، وازمير، واسكدار، فللمغزول عنها أربه لق من خمسين قرشاً ومائة إلى ثلاثمائة قرش، والمعزولون منها الآن نحو الأربعين رجلاً، ويصل إليها من هو أقدم ممن دون هذه المرتبة وهي رتبة المدارس السليمانية.

---

(1) هي الرومَلِّي: الاقليم الشامل تراقياً ومكدونياً وغيرها...

رتبة المدارس السليمانية فيها خمس مدارس بناها السلطان سليمان الغازي رحمه الله ويصل إلى إحداها من هو أقدم ممن دون هذه المرتبة، ولكل مدرس فيها نيف وخمسون قرشاً في كل شهر من وقفه، ودون هذه المدارس الخمس مدرستان بناهما السلطان محمود، ويقال لكل منهما خامسة السليمانية، ووظيفتها مثل وظيفة السليمانية، ويصل إليها من هو أقدم ممّن دونها.

مرتبة موصلة[1] السليمانية، وفي هذه المرتبة نحو خمس وأربعون مدرسة، وظيفة بعضها خمسة وأربعون قرشاً إلى ثلاثين، ويصل إليها من هو أقدم ممن دونها.

مرتبة لحركة التمشلي، وفيها مقدار خمسة وثلاثين مدرسة، ووظيفة بعضها في كل شهر نحو العشرين قرشاً، ومع التمشلي في هذه الرتبة مقدار ثلاثين مدرسة، ووظيفة بعضها في كل شهر: نحو الخمسة عشر قرشاً.

رتبة الصحن، وفيها ثمان مدارس فقط، بناها الفاتح السلطان محمد خان رحمه الله، ووظيفة كل واحد لمدرسها في كل شهر نحو الثلاثين قرشاً.

رتبة موصلة الصحن، وفي هذه الرتبة مقدار ثمانين مدرسة لبعضها بقعة، والبعض اسم بلا بقعة، وفي بعضها وظيفة والبعض من غير وظيفة وإن كانت ففي كل يوم أربعون درهماً أو أقل.

رتبة حركة الداخل، وفي هذه الرتبة مقدار ستين مدرسة لبعضها بقعة ولبعضه اسم بلا بقعة، ومنها ما له وظيفة ومنها ما لا وظيفة له، وعلى فرض وجود الوظيفة فتكون من نحو العشرين درهماً في كل يوم، لأنه لا يطلب في هذه المرتبة إلا الرتبة.

رتبة الداخل، وفي هذه المرتبة مقدار خمسين مدرسة، ووظائفها وبقاعها مثل ما سبق.

رتبة حركة الخارج مثل ما قبلها.

رتبة الخارج مثل ما قبلها، وقبل هذا لا يكون أحد من العلماء مدرساً إلا من كان منهم ملازماً.

والملازم هو من اشتغل بالتدريس سبع سنين فإذا وقع الامتحان يدخل فيه،

---

(1) القصد أنها مضافة للسليمانية، حسب «الترجمانة» ص 112.

فإن امتاز عن أقرانه في حسن القراءة يعطى ـ بإشارة شيخ الإسلام ـ من قبل السلطان ورقة يكتب فيها أنه أوذن له في أن يدرس في المدرسة الفلانية، وتسمى تلك الورقة (رؤوساً) رؤوساً، ولا يعقد مجلس الامتحان إلا عند انحلال مدارس عديدة من رتبة الخارج، وانحلالها بطريق أن يخرج أقدم مدرسي السليمانية بأحد المناصب الثمانية المذكورة قبل، ويتولى مدرسته التي خرج منها من هو أقدم زماناً ممّن دونها، وهكذا إلى رتبة الخارج فتنحل حينئذٍ إحدى المدارس في رتبة الخارج، وتسمى هذه الحركات من الخارج إلى السليمانية سلسلة، وطريق إن كان المرء ملازماً أن يدخل ممتازاً عند الامتحان إلى حجرة من الحجرات التي هي ثماني عشرة حجرة على الترتيب الذي اقتضاه الامتحان، وهذه الحجرات هي التي اشتملتها المدرسة التي بناها السلطان أبو يزيد بن الفاتح رحمه الله واشترط تدريسها لشيخ الإسلام، ثم يخرج منها بالملازمة في كل ستة أشهر اثنان أقدمان في الترتيب المذكور، ويدخل في حجرتها اثنان آخران بعد الامتحان، وهكذا فالملازم من كان في يده ورقة الملازمة الذي يكتبه له قاض عسكر روم ايلي بأن صاحب هذه الورقة قبل للملازمة بإشارة شيخ الإسلام لكونه مستعداً للعلوم، وتسمى هذه الورقة ورقة الملازمة، ولكون المرء ملازماً طريق أخرى طوينا ذكره خوفاً من الملل، وما ذكر هو القانون القديم في الدولة العثمانية، وفي هذا الزمان لا يخرج إلا في حق الغرباء وفي حق من لا شفيع له، ثم المدرس يحتاج في كونه قاضياً بأحد مناصب المخرج إلى مرور مقدار ثلاثين سنة، وفي كونه قاضياً بعسكر روم ايلي إلى مقدار خمسين سنة، وقد حررت هذه المراتب العلمية من بعض الأفاضل من علماء الروم وأحد قضاتها وفضله مشهور معلوم يقال له صدفي مصطفى، وقد كانت بيني وبينه معرفة واتصال، ترامي على معرفتنا من حسن أخلاقه ذات يوم ونحن بمسجد السلطان محمد، ودعاني إلى منزله ولم يجعل لنا فسحة في التخلف وأحضر جمعاً من الطلبة وأطعمة كثيرة، وزارني في منزلي بعد ذلك فتأكدت بيننا وبينه المعرفة، فمما خاطبته به ذات يوم وقد أصابني ألم فلم يأت لعيادتي ما نصه:

يا واحد الناس في علم وفي شرف ... وأفضل القوم في ذات وفي سلف
وتحفة ظهرت ما أن يعادلها ... شيء نفاستها أربت عن التحف
وبحر علم طما فما تنقّصه ... الوراد كلّا ولا اغتراف مغترف

ومعدناً لنفيس الدرّ من أجل ذا سمّيت يا ذا المعالي مصطفى صدفي
ما لي أراك تخلفت على علن عن وصل حبّكم بربكم ووفي
وقد مضت مدة من قبل ذا ولكم عافية الله وهو ذو ضنى متلف
أبقاكم الله لا تحصى مآثركم وذكركم دائماً يرسم في الصحف

فكان جوابه مجيئه بنفسه معتذراً بعدم علمه.

ومما يدلك على ضخامة هذه الحاضرة أن حرّاسها المتفرقين في أسواقها وأزقتها ليلاً ونهاراً لئلاَّ يتخاصم أحد مع أحد أو يظلمه أو يأخذ متاعه، فلو ترى أصحاب الدكاكين ينزلون من دكاكينهم وهي مشحونة بالسلع والأمتعة ولا يغلقونها، ولا يضيع منها شيء، فأخبرت أن عدد الحراس المذكورين المعينين لهذه الخدمة أربعون ألفاً مناوبة نصفهم يقوم بهذا الوظيف مدة والنصف الآخر مد مفرقين في الأسواق والأزقة في كل وجه وناحية فلا يكاد الإنسان يغيب عنه فإذاخلف الإنسان جماعة استقبل أخرى، وعليهم قواد كل قائد مكلف بحصة منه محدود له طرف من البلاد، وله موضع يقعد به بحيث إذا وقع في موضعه شيء فه المؤاخذ به، ويطاف على الحراس المذكورين بكرة وعشية بطعامهم وشرابهم. ولهم راتب زائد لما لا بدّ لهم من ضروریاتهم، ومن أجل هذا فلا تجد في هذ المدينة على كبرها وعظمها غوغاً ولا جلبة أصوات ومن أظهر شيئاً من ذلك يقبضونه ويؤدبوه، ولو لم يكن هذا العسكر مفرقاً على هذه الكيفية لأكل الناس بعضهم بعضاً والبلاد مختلطة بجميع الأجناس.

ومما يدل على ضخامة هذه الدولة الرواتب التي تفرق على العساكر، فقد حضرنا ذات يوم على تفريق الراتب على العسكر فرأينا ما يدل على عظم هذ الدولة وضخامتها، وذلك أن يوم التفريق اجتمع العسكر خارج باب دار السلطا بكرة وأحضر المال في قبة يقعد بها الوزير تحت شبّاك يشرف منه السلطان بحيث لا يرى، وتأتي قواد العساكر على الترتيب بعضها يتلو بعضاً ومع كل قائد جماعة من العسكر، فيتقدم القائد ومعه الكاتب بزمام أصحابه فيأخذ ما ينوب أصحابه على ثلاثة أشهر، وذلك بمحضر الوزير والدفتردار ومعناه صاحب دفتر مال السلطا وإحصائه والسلطان يشرف على الجميع واستمر التفريق على هذه الكيفية، كل قائ

يأخذ واجب أصحابه وتحمله الجماعة التي أتت معه في أكياس من الجلد ويتوجه بذلك إلى موضعه ويتولى تفريق ذلك على أصحابه، وقد بقينا هنالك ننظر تفريقهم، ونحصي ما خرج بمحضرنا فكان جملة ذلك ـ بعد تقدير سكتهم بالريال المعروف عندنا ـ ستمائة ألف ريال كبير، وطال بنا المقام وتوجهنا من هنالك، وأخبرنا من تخلف من ورائنا أنه خرج من المال بعدنا مثل ما حضرنا وزيادة، فيصير جملة الراتب على كل ثلاثة أشهر ما يزيد على المليون، وينوب في السنة ما يقرب من خمسة ملايين، والمليون عشرة مائة ألف ريال، وهذا ـ والله ـ أمر عظيم، فالحمد لله الذي أرانا يسرّ المسلمين وينكي الكافرين في دولة من دول الإسلام صانها الله تعالى، وألبسها من جلالته جلالاً، وقهر بها جموع الكفرة وأذاقهم بسيوفهم قهراً ووبالاً ونكالاً، فالله تعالى يصونها من الخلل، ويباعد عنها أهل الرجس والنجس والغدر في القول والعمل، ويحفظ قدم سطوتها من كل زلل، بفضله وطوله.

وعندهم من القواعد المقررة والقوانين المسطرة أن يصنع السلطان طعاماً يحضره يوم تفريق الراتب على العسكر، ويحضره قبالة المكان الذي يفرق فيه المال، والسلطان حينئذٍ من الرجا والخوف، لا يستقر فؤاده في جوف، لأن من عادتهم إذا حضر الراتب ليفرق على العسكر وذي المناصب والرواسب وأحضر الطعام كما سبق به الإلمام، فإن بادر العسكر لأكل ما تهيأ، ولم يظهروا انحرافاً ولا ليأ، فما أبرك ما أعطى وما هيأ، وإن امتنع العسكر من الأكل جهار، أيقن السلطان بالعزل نهاراً، وضاقت عليه الدنيا سواراً، وبلغت الروح التراقي وأعجز ذلك الراقي ولم يغن عنه حميم ولا نديم كدابغة وقد حلم الأديم، وينصبون من اتفقوا عليه قبل ذلك للخلافة، والعزل بعد الولاية من أعظم آفة، ويجعلون المعزول في موضع المولى في دار يسمونها القفص، يتجرع بالعزل كل غصص، فقلق الخليفة يوم تفريق الراتب على العسكر، كأنه يوم نكير ومنكر.

ويدل على ضخامة هذه الدولة دار ضرب سكتها، فقد دخلناها يوم تفريق الراتب المذكور لأنها بقرب دار السلطان، فرأينا ما يسر، فمن آلات الطبع المسمات بالدولا عشرون، ومن ضخامة هذه المملكة أن السلطان ـ أيده الله ـ زوج ابنة أخيه السلطان مصطفى رحمه الله من أحد كبراء دولته وحضرنا هناك يوم

زفافها، فاجتمع الناس على طبقاتهم، ووجوه الدولة على مراتبهم، بباب دار السلطان، وكان يوماً مشهوداً، وأنشأ الناس في الشوارع المتسعة والأسواق مراتب ومقاعد من الخشب عن يمين المار وشماله بقصد أن يقعد الناس عليها لرؤية زفاف ابنة السلطان، فامتلأت تلك المقاعد كلها على طبقاتها بكراء معتبر، فقد أخبرني بعض أصحابنا أن امرأة اكترت مقعداً من المقاعد المذكورة بأربعين ديناراً، وامتلأت حتى الدكاكين والحوانيت والأسطحة من باب دار السلطان إلى دار زوجها، فكان الناس يتسابقون لكراء المواضع في تلك المقاعد، حتى امتلأت وامتلأ الفضاء، ولما قرب الزوال خرجت أولاً من باب دار السلطان الخيل راكبا عليها فرسانها متتابعين على أربعة صفوف، وبعد أن نفذت الخيل تبعهم العسكر الرجالة أفواجاً أفواجاً على مراتبهم وطبقاتهم واختلاف هيئاتهم، ثم تلاهم المعلمون وأهل الصنائع والحرف في هيئة عجيبة وأهل[1] صنعة حاملون معهم آلات حرفتهم ليميزوا بها وقد اتخذوها من الفضة أو الذهب: كل معلم يجعل آلت في حزامه، وإنما اتخذوها من النقد ليشهدوا بها المشاهد مثل هذا اليوم بقصد الزينة لأن هذا أمر مقرر لديهم مشهور، ومعلوم ومذكور، ثم تلاهم أعيان الدول على انفراد كل واحد في مركب عظيم من خدمته وأتباعه، وحفدته وأشياعه: الأول فالأول على الترتيب، ثم أتى في آخر القوم الوزير الأعظم وشيخ الإسلام في مركب عظيم من الرجالة حافين بهم، وبعدهما أقفاص من الذهب مملوءة يواقت وأحجاراً نفيسة من شوار ابنة السلطان، وبأثر ذلك عبر الدار راكباً على فرسه حاملاً للمصحف الكريم بقصد التبرك يقدمه أمام العروس، وبعده الكدش الذي فيه العروس مرصع بالذهب في غاية الزينة تحفُّ به ستة من الخيل، أمامه اثنان من عبيد الدار أحدهما حامل خرجا أمامه على فرسه مملوءاً دنانير ينثرها على من يمرّ به يميناً وشمالاً، وخلف الكدش اثنان من عبيد الدار أيضاً وتلا كُدش العروس ما يزيد على السبعين كدشاً قيل إنها حاملة للجواري التي أعطى السلطان ابنة أخيه بقصد خدمتها: في كل كدش عدة منهن، ولما انتهت الأكداش في سيرها متتالين ردفتهم جماعة من أهل الطبول والمزامير وما شاكل ذلك راكبين على خيولهم،

(1) سقط هنا كلمة كل.

واستمر ذلك الجمع الغفير إلى أن وصّلوا العروس إلى بيتها وأقعدوها مجلوة فوق تختها، وقد أخبرت أنهم قدروا أواني الفضة التي أعطى السلطان ابنة أخيه من جملة جهازها سبعة وثلاثين قنطاراً بالوزن المغربي الآن، ومن الحسك الذهبية خمسون، وأما الفرش والستور والبسط وغير ذلك فلا نطيل به وليقس على ما قبله.

وقد حضرنا في هذه المدينة في الموسم النبوي ولهم اعتناءً به إلا أنهم ربما يتجاوزون يوم الموسم لغرض للإمام في ذلك فتجعلون الموسم في غير محله؛ كما وقع ونحن هناك، فقد كانت ليلة الموسم ليلة الثلاثاء فتجاوزوها إلى ليلة الأربعاء، فأوقدوا جميع منارات القسطنطينية، وفي صبيحة يوم الأربعاء الثالث عشر من ربيع النبوي اجتمع الناس بمسجد السلطان أحمد وتوجهنا في جملة الناس مغلسين وصلينا به الصبح، ثم جعل فراش ملاصق للمحراب وعن يمينه وشماله، لكن الفراش الذي بباب المحراب أعلا، ثم أتت فقهاء البلد وعلماؤها وأخذوا مجالسهم، والعادة أن يكتب الوزير إلى الفقهاء والأعيان يستدعيهم إلى حضور الموسم، ثم أتى صهر السلطان على ابنة أخيه فقعد على الفراش، ثم أتى شيخ الإسلام فقعد أمام المحراب في المرتبة العليا بعد أن قام له جميع الناس، ثم أتى الوزير الأعظم فقام له شيخ الإسلام وجميع الناس فقعد حذاء شيخ الإسلام في المرتبة العليا وقعد جميع أرباب الدولة وأعيانها على مراتبهم عن يمين الوزير وشيخ الإسلام والقضاة الكبار عن يساره وبقية الفقهاء أمامه، وبعد ذلك أتى السلطان فقعد في موضع معين له عال وبه يصلي الجمعة يصعد إليه من خارج المسجد فيشرف على المحراب، وله شباك محيط به بحيث يرى الناس هو وقبيله، من حيث لا يرونهم، وفتح منه طاق ثم أغلق الشارة للسلام على الحاضرين فقام جميع من في المسجد إجلالاً له، ثم صعد رجل على كرسي وأخذ يقرأ في مديح المصطفى ﷺ بلغة الترك، ثم نزل فخلع عليه خلعة ودفع بيده كيس ثم صعد ذلك الكرسي رجل آخر فقرأ مثل الأول ثم نزل فخلعت عليه خلعة ودفع له كيس ثم صعد أخر ففعل وفعل معه مثل ما تقدم، ثم تناوب ثلاثة رجال آخرين كرسياً آخر لعلهم أصغر مرتبة ممن تقدم ففعلوا مثل الأولين وأعطوا من الخلع والأكياس مثل ذلك، وفي خلل هذا المديح طيف بالطيب والبخور في المسجد بعد أن وضعوا ذلك أمام الوزير وشيخ الإسلام، ثم أوتي بموائد كثيرة فيها أنواع الحلاوات والأشربة على ألوان مختلفات،

ووضعت أمام الوزير والفقهاء وأكابر الدولة وأعيانها، ثم فرق على القوم ثمر ورد من المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام بقصد التبرك، ثم أن من العادة عندهم أن الحجاج حين يقفلون من الحج ويصلون إلى الشام يقدمون بين أيديهم سفيراً بالإعلام للسلطان بأحوال الموسم وأحوال الركب وما وقع فيه وحيث يرد فالغالب عليه أنه يرد على القسطنطينية قبل العيد بأيام فيقيم بداره إلى أن يكون يوم الموسم المذكور فيلبس ثياب السفر ويتوجه إلى المسجد الذي يقع فيه الموسم كأنه قدم حينئذٍ، ومن العادة أيضاً عندهم أن الذين يقرأون المديح حين يصلون في المديح إلى ليلة مولد النبي ﷺ مثل قول البوصيري رضي الله عنه (ليلة المولد الذي كان للدين سرور بيومه وازدهاءً) يقوم السلطان والناس جميعاً إجلالاً له ﷺ وفي ذلك القيام يدخلون سفير الركب النبوي بالمكاتب فيؤديها إليه ويخلع عليه خلعة ويجزل عطيته وينصرف، وعلة دخول هذا السفير في ذلك وقت القيام هو أن السلطان لا بد أن يقوم لأخذ الرسائل: البراوات المشتملة على أخبار الحرمين الشريفين والركب، ولعله يتلكى أن يقوم للسفير أو يقوم قياماً ثانياً فيرصدون به قيامه لمولد النبي عليه الصلاة والسلام ويدخلونه عليه فيه ليكون قياماً واحداً، وبعد أن فرغ الناس وتطيبوا وأكلوا وشربوا وطربوا كسّروا الأواني جميعاً بعد أن أراقوا من دمها نجيعاً، لكن استنكرت عليهم تكسير الأواني وعدم التفاتهم إلى ضيوفهم فإنهم لم يدعوهم إلى شيء مما تناولوه ولا بعثوا به إليهم مع رؤيتهم إياهم وحضورهم معهم في مسجد واحد وإنما كانوا يكرمون أنفسهم جبر الله تعالى حالنا وحالهم وجعل فيما يرتضيه قصدهم وآمالهم فإن السلطان نصره الرحمن منحجب عن العامة قاطبة، ورجال دولته منهمكون في الدنيا الكاذبة، فاعتكفوا على هوى النفس المتّبع وابتلوا بشدة الطمع مع الرضى على النفس ورؤية تفضيل جنسهم على كل جنس والتنافس في كثرة الاتباع والشمخ بالأنف فلا يسلمون إلا إشارة بمد الباع[1] ، بينهم وبين هذا الجنس العربي تباين كلي وتنافر قولي وفعلي لا يجنحون إليهم بحال، وألفتهم أياهم كادت أن تكون من المحال، أنقذهم الله تعالى من هذه البلوى، وسلك بهم مسلك التقوى.

(1) في القاموس وشرحه: «والباع قدر مد اليدين وما بينهما من البدن.

ومن ألطف متنزهات القسطنطينة موضع يقال له كاغيد خانة[1] ، مسمى باسم قرية هنالك بينها وبين الموضع المذكور مسيرة نصف ساعة، فهي أمامه على ربوة كان يصنع فيها الورق، الكاغيد في ماضي الزمان فسمي باسم ذلك المكان، وخانة عندهم بمعنى الدار كأنه يقال دار الكاغيد إضافة مقلوبة، وهكذا سائر اللغة التركية يقدمون المضاف على المضاف إليه والموصوف على صفته، ثم إن السلطان أحمد أبا السلطان عبد الحميد الموجود الآن أتى بوادي كان ماراً بناحية أخرى وحفر له مجرى إلى البحر من ناحية أبي أيوب الأنصاري وصرفه إليه، وجعل عليه مقاعد من الرخام على أشكال وأخراص متعددات من الرخام أيضاً على متن الوادي من إحدى العدوتين إلى الأخرى كالجسر يعبر عليها وهي تجري بالماء مقبوض بعضها في بعض بصفائح الحديد، وفي إحدى ناحيتي الوادي مجال كبير دائرة به الخشب مغروسة في الأرض، وفي داخله مهاريس لإخراج النبل بقصد تعلم الرماية والتدريب والمران، وكثيراً ما يتوجه السلطان إلى التنزه والتفرج هنالك، وكذا سائر الناس على شاطىء الوادي، فله منظر عجيب، حافتاه مبنيتان بالبناء وهو في غاية الاستقامة وحواليه أشجار، فيجتمع هنالك في زمن الربيع والصيف خلق كثير يركبون في الفلاك الصغار ويطلعون مع الوادي إلى الموضع المذكور، حتى النساء والصبيان، فالرجال في ناحية، والنساء في ناحية. . .

رجع إلى هذه الحاضرة القاهرة

فمن عظمها أن الأسواق التي تعمر في سائر البلاد يومان في الجمعة مثل الخميس مثلاً أو الأحد عامرة فيها على سائر الأيام كل يوم في ناحية من نواحيها، وتعمر أمام المساجد لأن لكل مسجد من مساجد هذه الحضرة براح كبير متسع دائر بالمسجد من جهاته الأربع والمسجد بوسطه منعزل، وفي هذا البراح يعمر السوق معلوم عند أهل البادية والحاضرة محل عمارته في كل يوم، فيقصده الناس.

ومن عوائد هذه المملكة الميمونة أنه إذا ازداد عند السلطان مولود ينادي

(1) انظر التعليق رقم 6 ص 1209.

المنادي بالمدينة جميعها ويعلم بازدياده وباسمه ويسأل له الدعاء، وقد ازداد عند هذا السلطان ونحن عنده وذلك في سابع صفر من سنة إحدى ومائتين وألف ابنة وسماها صالحة سلطان وأصبح المنادي ينادي كما ذكر، وفي هذه السنة أنشأ السلطان عبد الحميد نصره الله وأيده الحرب بين عدو الدين الموسكو بسبب تمرده وطلبه بلداً من بلاد المسلمين أراد أن يتملكها[1]، وقد سافرنا من عندهم وهو أيده الله مشتغل في التأهب والاستعداد وسد الثغور وبعث العساكر برّاً وبحراً لقتال العدو الكافر نسأل الله تعالى أن يرزقه النصر والظفر، على من تولى وكفر، بجاه سيد البشر، وقد قلت في ذلك قصيدة ورأيت أن أرسمها، وقد بلغهم خبرها فسرّو بذلك، وهي هذه:

كتائب النصر قد أتت لكم تنصر ... تزف أعلامها راياتها تنشر
لعلّها فرصة أتى بها القدر ... أمكن من ذي العدا الله فلتشكر
لدولة صيتها في الأرض قاطبة ... فالبحر يعزى لها والبدو والحضر
قد طال ما طاعنت وضاربت في العدا ... وملكوا الأرض والطغاة قد قهروا
لا غرو أن لهم في الدفع سابقة ... عن دين أحمد ما أربحه متجر
والله أكرم أن أولى الجميل فلا ... يقطعه منّة فالفضل لا يحصر
فكم فتوح ترادفت على نسق ... لذي الملوك التي فخارها أشهر
خلائف من بني عثمان من لم يدن ... بطاعة لهم عرفانه نكر
فقد أطاعهم حتى الوصول لها ... في قنن للربى شواهق وكر
خلفهم باطشة عبد الحميد الرضى ... ملّكه الله ما دارت به الأبحر
توّجه الله من جلاله عندما ... لم يأذن الشرع فيه أنه منكر
إن الجهاد لهم سيماً تميزهم ... عن الملوك فلا جبن ولا خوّر
فسيفه صاحب للفتح ثم كذا ... عزمه والنصر الفان إذا ينفر
هيّأ له الله من جندي السّما عسكرا ... فجيشه في الوغا جيشان إذ يذكر
يا أيها السيد الكاهيّة اللذبدا ... في عصرنا زينة تغبطه الأعصر

(1) الإشارة إلى حرب العثمانيين مع الروس، حيث انتصر الأتراك على الأسطول الروسي سنة 1788م.

قـــل للـــوزيـــر أدام الله دولتـــه ... ميّســراً أمــره يجــري بــه القــدر
لاعـدم الملـك مـن عليـاكـم أبـدا ... وزارة سعـدهـا تبـدو لـه غـرر
فكـن علـى ثقـة فـالله نـاصـركـم ... ومـــن يكـــن نـــاصـــراً لله ينتصـــر
نعـم ويمنحكـم رقـاب شـرذمـة ... أهـل الضـلالـة إذ أنعمـه كفـر
ايـه وتخلـس ديـار الكفـر أجمعهـا ... فـالفتـح يقـدمكـم النصـر والظفـر
دان لـك الـدهـر بـالله العظيـم فمـا ... تشـا مـن ذا الـورى إليـه يبتـدر
فمن قريب ترى مسكوف يرفل في ... قيـد الحـديـد ولا حصـن ولا وزر
عنهـم بمغـن فتيـلاً إذ تحيـط بهـم ... عسـاكـر فتكهـا فـي الحـرب لا ينكـر
مقلـديـن سيـوفـاً غيـر نـابيـة ... عـن الضـريبـة لا تبقـي ولا تـذر
معتقليـن رمـاحـاً طعنهـا فـي الـوغـا ... هلكـى ومخلـوجـة شهـب لهـا شـرر
رجومها حرقت شياطين الكفر قد ... ولّـت هـربـاً علـى أدبـارهـا تـدحـر
والخيـل تنحـطّ كـالعقبـان مسـرعـة ... فـرسـانهـا آلفـت لحـم العـدا تجـزر
عصائب الطير في الجوّ لها عسكر ... يتلـو عسـاكـركـم جيـش العـدا تخـرر
كـأنمـا الحـرب نـادتهـا وقـد صنعـت ... وليمـة الجفلـى فهـي لهـا تحضـر
جـوانـح أيقنـت أن العـدا جيّـف ... لهـا فـأبـرزت المخلـب والمنشـر
والسيـف بـدّدهـم والسبـي قيّـدهـم ... وكلهـم بلبـاس الـذلّ مـدّثـر
ورحتـم بعـزيـز النصـر خـوّلكـم ... إيّـاه ربّ العلـى وحظّكـم أوفـر
دمتـم فـدامـت لهـذا الـديـن بهجتـه ... معـزّزيـن لـه وسعيكـم يشكـر
ليهنـك الفـال إن الفـال قـد حبّـه ... رسـولنـا المصطفـى وذاك مشتهـر
صلـى عليـه إلـه العـرش مـا سجعـت ... ورقـا ومـا عطّـرت أسحـارهـا الـزهـر

جبر الله حالنا وحالهم، وبلغهم من هذه الوجهة الجهادية من الفتح مرادهم وآمالهم، بجاه النبي وآله.

ولأهل هذه المدينة اعتناء كبير برجب وشعبان فيعظمونهما تعظيماً كثيراً، ويتصدقون على الفقراء والمساكن وتسرج منارات المدينة كلها والمساجد، ويحتفل الناس بذلك احتفالاً كبيراً، وكذلك ليلة السابع والعشرين منه.

«سجل الندوة» زغوان ـ تونس 1981

تقييد في التعريف بأسرة البيجري «فريق مكناس»

تأليف محمد بن محمد بن عبد السلام البيجري
تقديم وتحقيق محمد المنوني
برسم تكريم العميد د. محمد حجي

مـــدخـــل:

تهدف هذه المداخلة إلى تقديم عمل من قطاع التاريخ الأسروي، فيعرف مؤلفه بنخبة من قبيل البيجري: الأسرة التي قدمت لمكناسة بضعة أعلام واكبوا القرن الثامن عشر.

وأولاً: نتسائل عن طبيعة لقب الأسرة، وذلك ما يجيب عنه مؤلف الرسالة عند افتتاحيتها: «ونسبنا هذا إلى بيجرة قرية أو مدينة صغيرة بقرب غرناطة»: ص 1، ومن الملاحظ أن هذا الاسم غير وارد عند ابن الخطيب[1] ضمن المسرد المطول للقرى المجاورة لغرناطة، على أن هذا المصدر وهو الإحاطة، لم يستوعب في مقدمته جميع قرى المنطقة، وذلك ما يدفعنا إلى التوجه لحاضر الجهة ذاتها، حيث يوجد بها إلى اليوم، قرية تعرف باسم «بوكور»[2] شمال غربي غرناطة، فهل تعتبر هذه محرفة عن اسم بيجرة التي ينتسب لها القبيل موضوع بحثنا؟ وأياماً كان الحال فإن المعنيين بالأمر متشبثون بأندلسيتهم، وقد أكدها

(1) مطبعة الشركة المصرية للطباعة والنشر ـ القاهرة 1/125 ـ 133.
(2) المصدر 1/127: تعليق 8.

المنشور الإسماعيلي عن بيوتات مكناس[1]، فتأتي به هذه الفقرة: «أولاد البيجري أندلس من غرناطة». والأسرة بعد هذا عربية المنتمى، فيقول المؤلف في ذلك: «وأما القبيلة فَمُضر، إذ يوجد في بعض عقودنا القديمة: فلأن بن فلان البيجري الأندلسي المضري» ص 1، وهذا يعني تصاعد نسبتهم إلى العرب العدنانيين، اعتباراً بأنهم يرجعون إلى مضر بن معد بن عدنا، وبالمضري وقع المؤلف في بعض إجازاته[2]، غير أن عدداً من الذين ذكروا أفراداً منهم لا يخططونهم بالمضرية، على أن الأصل أن الناس مصدقون في أنسابهم بشرط ذلك[3].

ولم يحدد المؤلف تاريخ نزوحهم إلى المغرب، كما أنه لم يرفع مسلسل آبائهم إلى الجد القادم من الأندلس، ولو ذكر ذلك لأمكن الاستنتاج ـ على وجه التقريب ـ لتاريخ انتقالهم للمغرب.

وإزاء هذا الغموض، يلاحظ أن المؤلف لم يشر إلى ظروف محنة حفزتهم لمفارقة وطنهم الأول، ولم يذكر أنهم وقدوا في هجرة جماعية، مما قد يفيد أن وصولهم للمغرب كان قبل سقوط غرناطة.

وإلى هنا يقول المؤلف عن استيطانهم بالمغرب: «ولما خرجنا من الأندلس كان نزولنا ـ أولاً ـ مع أهل بيتنا بفاس البيضاء في دار بالعيون... إلا أن جدنا لم يطل مكثه معهم، بل انتقل إلى مكناسة الزيتون فاستوطنها» ص 1.

ومن هنا نتبين أن أسرة البيجريين توزعت سكنى القادمين منهم بين فاس ومكناس، وبذلك ذكرهم بين أسر فاس عبد الكبير بن هاشم الكتاني في كتابه:

---

(1) يوجد نصه ـ كاملاً ـ عبد ابن زيدان في الأصل المخطوط من «المنزع اللطيف»، وخلت النسخة المطبوعة من ذكر هذه الأسرة.

(2) القصد إلى إجازته لمحمد بن عبد الواحد ابن الشيخ الأموي المكناسي، ضمن مجموعة إجازات «خاصة».

(3) شرط ذلك أن لا يكون في ادعاء النسبة الشريفة، قال التتائي في شرحه الكبير للمختصر الخليلي: «وأما لو ادعى شخص أنه شريف فينبغي أن لا يصدق» يعني إلا بحجة مقبولة، ونحوه للزرقاني في شرحه لنفس المختصر 6/105.

«زهر الآس في بيوتات فاس»[1]، «ثم عبد السلام ابن سودة في «إزالة الالتباس عن قبائل سكان مدينة فاس»[2]، كذلك وردت ترجمة أحدهم في «سلوة الأنفاس» [3] نقلا عن سلوك الطريق الوارية.

وعن فريق مكناس: تبينا ـ سلفا ـ ذكرهم بين سكان هذه المدينة ضمن المنشور الإسماعيلي.

ولا يزال في حي زقاق القرموني ـ بنفس المدينة ـ زنقة تحمل اسم «درب البيجري»، غير أن الكاتبين بهذا الاسم صحفوه ورسموه بالزاي بدل الجيم.

وعن المركز العلمي للقبيل يقول المؤلف: «ولم يزل هذا البيت البيجري ـ والحمد لله ـ مستوراً بالعلم، موفور الحظ فيه والقسم...» ص 12.

ولبيان مصداقية هذا نشير إلى الذين ترجموا أو ذكروا أسماء من الأسرة، وفيهم عبد الله الفاسي في «الاعلام بمن غير[4]...» ومحمد العربي البصري في «منحة الجبار[5]..»، والعكاري في «البدور الضاوية[6]...»، ومحمد البصري في فهرسه: «إتحاف أهل الهداية والتوفيق والسداد[7]...» وعبد الله الناصري في «كناشته»[8]، ثم ابن زيدان في «إتحاف أعلام الناس»[9]، وسابعاً: محمد عبد الحي الكتاني[10]، وقد تصدى هذا للرد على محمد بن الطيب القادري في موقفه ضد أحد أعلام الأسرة، فيأتي ضمن دفاعه هذه الفقرة: «وأولاد البيجري بمكناس بيت شهير، وعلم في الفضل منير، تعدد فيهم القضاة والعلماء والأدباء...».

ومن هذه الأسرة محمد بن محمد بن عبد السلام البيجري المكناسي

---

(1) مخطوط خ. ع ك 1281: الجزء الأول.
(2) مخطوط خ. س 10652.
(3) 3/306.
(4) قطعة خ. س 3637 ز/ 2.
(5) خ. س 941 ز/ 2.
(6) خ. ع د 88.
(7) خ. س 11267.
(8) من مصورات جائزة الحسن الثاني: «فيلم».
(9) في مواضع متعددة من هذا المصدر.
(10) «فهرس الفهارس» الطبعة الأولى: 1/299.

ت 1205/1791، وهو مؤلف التقييد الذي تقدم له بهذا المدخل، فإلى مشاركته في معلومات عصره، تميز كأديب يحمل راية البراعة فى الكتابة والشعر، وهي الناحية التي برزها أكثر محمد بن عبد الوهاب ابن عثمان[1]، فيسجل ارتساماته عن صديقه البيجري قائلاً: «وهذا الرجل نسيج وحده نظماً ونثراً، وأدباً وخبراً، وله بديهة سيالة، يجيب في أسرع حصة من الزمان في كل غرض ولم يتهيأ له»، وعن أخلاق المنوه به يضيف ابن عثمان: «مع المروءة التامة، والحياء والحشمة، والسمت الحسن، والدين في السر والعلن».

وإلى هذه اللقطة من «إحراز المعلى والرقيب»، فإن المعنى بها يتردد اسمه في ثلاثة مصادر أخرى على الأقل، فيترجمه تلميذه محمد البصري في فهرسه: «إتحاف أهل الهداية والتوفيق والسداد[2]...» ثم يترجمه ابن زيدان في «إتحاف أعلام[3] الناس»، وثالثاً، ينوه به عبد الله الناصري في كناشتة»[4].

* * *

بعد هذه التمهيدات، يصل بنا المطاف إلى تقييد المترجم في التعريف بأسرته، وقد كان أول من كشف عنه هو المؤرخ المرحوم عبد السلام ابن سودة، فذكره في «دليل مؤرخ المغرب الأقصى» عند رقم 238، وأحال على وجوده ـ بفاس ـ في خزانة العلامة المفتي القاضي محمد بن عبد السلام بناني الفاسي، ثم حدث أن توفي مالكه أواسط عام 1376/1957، فبيعت خزانته العامرة التي تفرقت كتبها سذر مذر، وكان ممن افتنى بعضاً منها الكتبي المرحوم السيد أحمد المزوري الفاسي[5]، ومنه صار هذا التقييد إلى نوبة منفق هذه العجالة.

والآن نتساءل عن الحافز الذي أوحى للمترجم بهذا العمل، ويمكن أن

---

(1) «إحراز المعلى والرقيب...» خ. س 5264: ص 337.
(2) مخطوط خ. س 11267.
(3) 4/140 ـ 144.
(4) من مصورات جائزة الحسن الثاني: فيلم.
(5) الإشارة إلى الكتبي النشيط المرحوم أحمد بن محمد بن أحمد المزوري الفاسي المتوفي ـ رحمه الله ـ عام (1399/1978).

نجيب بأن ذلك كان منهجاً معروفاً، وموضوعاً متداولاً، كتب فيه ثلة من المؤلفين المشارقة والأندلسيين والمغاربة، ومن جهة أخرى فإن عصر المؤلف طفح بالكتابة في الأنساب شريفها ومشروقها، وسار ذلك على المستوى الرسمي. وفي اهتمامات النخب. وفي بلد المؤلف بالذات بدون بعضهم في نفس المادة، وذلك ما يجعل للمنافسة الحميدة دخلا في القصد إلى هذه المبادرة، على أن المترجم يوجه قصده بهذه الفقرة التي يصدر بها تقييده: «وبعد: فالمراد بما ينفث القلم، التحدث بالنعم، فنذكر بعض أحوالنا. ونختصر في أقوالنا» ص 1.

على أنه لا يبعد أن يكون من دوافع ذلك. موقف محمد بن الطيب القادري من أحد أعلام الأسرة، فقد شنع عليه في «نشر المثاني»[1] ورماه بالكذب، وحكم عليه بالجهالة، بحيث لا يعرف له ذكراً مع أهل العلم، ولم يعثر على من وصفه بالعلم أو ذكره أو سماه.

وإلى هذا فإن الرسالة ـ على أهميتها ـ مبتورة من آخرها، وقد يكون الضائع منها قليلاً، خطها مليح مدموج سريع، من نمط الخط المغربي المعروف بالمسند أو الزمامي، ومدادها يميل للسواد، يتخلله تلوين بالحمرة الباهتة لنقط الوقف وعلامات أخرى.

عدد صفحات الموجود منها يبلغ تسع عشرة صفحة. في حجم صغير من مقاس 50/210سم، مسطرتها 20، واعتباراً بالبتر في آخر الرسالة، فإن اسم كاتبها غير مذكور، على أنه يترجح أنها بخط المؤلف، وهو الذي لم يرد اسمه عند طالعة الرسالة كمؤلف لها، وإنما يستفاد ذلك من مساق حديثه لما يأخذ في عرض ترجمته الذاتية.

أما صياغة الرسالة فقد جاءت في أسلوب سهل، ويغلب عليه السجع، وأحياناً مع استخدام الصنعة البديعية.

وبعد هذا: فقد تبينا ـ سلفاً ـ أن هدف التقييد هو التعريف بأسرة البيجريين في مكناس، وقد عرف بها المؤلف من خلال مدخل قصير، وأربعة تراجم

(1) دار المغرب 1/324، وقد تصحف هنا البيجري بالبجيري.

ـ موسعة ـ لعلماء الأسرة، فضلاً عن اثنين منهم في إشارات مقتضبة:

الأول: جد المؤلف. عبد السلام بن محمد بفتح أوله ـ بن قاسم بن إبراهيم البيجري، ت 1132/1720 ص 2 ـ 6.

الثاني: والد المؤلف. محمد بن عبد السلام المذكور، ت 1169/1755 ص 6 ـ 11.

الثالث: عم المؤلف. الطيب بن عبد السلام. ولم يحدد تاريخ وفاته ص 11، 12.

الرابع: المؤلف. محمد بن محمد بن عبد السلام، ت 1205/1791 ص 12 ـ 19.

الخامس والسادس: أحمد بن محمد البيجري، وحفيده أحمد بن عبد الرحمن بن أحمد، وقد اقتضب ذكرهما دون تحديد تاريخ الوفاة ص 12.

ذلك مجمل المواضيع الرئيسية في التقييد، ونحاول ـ الآن ـ أن نتبين مردود هذا العمل في إطار الحياة الفكرية بمكناس عبر القرن الثامن عشر، وسنتبين هذا من خلال التوزيع لمعطيات التقييد بين جملة من البنى الداخلية بنفس المدينة.

وأول ذلك أن الرسالة تكشف عن خلية أدبية يؤلفها ثلاثة من شباب الحاضرة الإسماعيلية: المؤلف، وأحمد ابن عثمان، وعلي بن صنبة، وقد يكون الأديب الأخير إبنا لأحد موالي السلطان مولاي إسماعيل، وقد كانوا ـ ثلاثتهم. يعقدون اجتماعات لتركيز معلوماتهم التي يتلقونها في حلقات الدروس، ثم تطورت أعمالهم إلى دراسة الأدب والسير والأخبار، وهكذا يقول المؤلف مع حذف غير المحتاج له: «... وفي قرب من ذلك الزمان اجتمعت مع أخينا العالم التحرير أبي العباس ابن عثمان وتذاكرنا، فتعارفنا وما تناكرنا... وذلك أنا كما نجتمع قبل مجيء الشيخ إلى المجلس على مذاكرة، كالمناظرة، وكان معنا أبو الحسن بن صنبة، على مثل تلك الصحبة، فكان كل واحد منا يوري زنده، ويرى ما عنده، فلذلك ابن عثمان اقتبس، وأزال ما التبس... وكنا نجتمع بعد الدرس ـ أيضاً ـ للتحصيل، وتحقيق الإجمال والتفصيل، فانتفعنا بذلك والحمد لله، ولم يفتنا إلا ما

شاء الله والكمال لله، وعند ذلك لاح لنا شعاع الأدب فله ـ حينئذ ـ آثرنا، وعليه تظافرنا، وما تنافرنا، فتدارسنا «مقامات الحريري» مرات، حتى أدركنا بها المسرات، فحفظت من نخبها خمس عشرة مقامة كلها، ومن البواقي جلها، وحفظت الشعر جميعه، ومن ثم كانت الإنشاءات مطيعة... وتدارسنا كتباً أخرى من الأدب والسير والأخبار...» ص 14، 15، وإلى هنا تنتهي هذه الفقرة، وقد أشار فيها المؤلف إلى رفيقيه ابن عثمان وابن صنبة، أما ابن عثمان فهو أحمد بن الرضي[1] الذي تبينا أن نبوغة الأدبي انطلق من هذه الخلية، ولبيان مقدرته الأدبية تأتي بارتسامة لأبي الربيع سليمان الحوات[2] يقول فيها: «... ثم انتهت إلى الرئاسة في البلاغة نظماً ونثراً، بعد موت فرسان حلائبها بفاس، كوزير الخلافة العلوية بالمدينة البيضاء أبي العباس سيدي أحمد بن الرضى ابن عثمان المكناسي...».

وأما ابن صنبة[3] فيخططه المؤلف بحلية الفقيه المدرس المفتي، ويثبت له قصيدة بمناسبة ختم أحد الكتب الدراسية. فيقول في مطالعها:

حل التلذذ بالربيع الأزهر وغناء غانية ورنة مزهر
ودع الصبابة بالجأر والظبا كيما تفوز إذاً بأربح متجر
ربح العلوم المنقذات من الردى يا حبذا كنز العلا والمفخر

وتضيف للأدباء الثلاثة عمر الحراق[4]، ناظم مرثية رجزية في الشيخ عبد السلام البيجري، حيث أثبتها المؤلف كاملة، وصدرها بتحلية الشاعر بحلية «الفقيه الأديب الكاتب البليغ البالغ مراتب». ثم محمد بن عبد الوهاب البصري[5]، الفقيه النبيه حسب وصف المؤلف، الذي أثبت له قصيدة يمدح فيها

---

(1) له ترجمة موسعة في «إتحاف أعلام الناس» 1/353 ـ 360.
(2) «ثمرة أنسى» مخطوط ع. ك 1264/4.
(3) له ترجمة وجيزة «بأتحاف أعلام الناس» 5/477 ـ 478 وأخرى في «معلمة المغرب».
(4) مترجم في «أتحاف أعلام الناس»: 5/485 ـ 489.
(5) لا يعرف من ترجمته إلا ما ذكره عنه المؤلف، مع قصيدة من بحر الطويل يخاطب بها الشيخ محمد بن أحمد بن حنيني التازي من خاصة أصحاب الشيخ عبد العزيز الدباغ.

أستاذه محمد بن عبد السلام البيجري.

وإلى هذه البُنية الأدبية، عرفت مكناسة القرن الثامن عشر بنيات علمية، وكان في مقدمتها شيوخ الفتوى: محمد بن عبد السلام البيجري، وعبد الوهاب ابن الشيخ، وأبو القاسم العميري (ص 7).

وقد كان هؤلاء الثلاثة معدودين في بنية المدرسين، ويضاف لهم الشيوخ عبد السلام البيجري. والغازي بن عبود، والطيب البيجري. ثم طبقة ثانية فيها على علي بن صنبة، والمجذوب ـ اسما ـ بن عبد الرحمن ابن عزوز[1]، والعربي الجيتني[2] بالجيم المعقودة، ومحمد بن عبد الوهاب ابن الشيخ الأموي.

وبين المواد التي كانت متداولة للدراسة في الفترة ذاتها، كتب تتصل بالفلسفة أو تدانيها، فينقل المؤلف عن أحد تلاميذ[3] عبد السلام البيحري: «أخذت عنه... السلم والمختصر المنطقيين، وكان يسرد شرح الشيخ السنوسي على المختصر، في ختمتين أخذتهما عنه... وأخذت عنه شرح العلامة المحلي لأصول التاج السبكي أخذاً عجيباً. وكان يحضر جميع الحواشي، وينقل المسائل الغريبة من شروح ابن الحاجب والمنهاج...» (ص 2).

وفي هذا الاتجاه ما يحكيه المؤلف: أن جده عبد السلام، كان يلزم ولده محمداً بتحقيق العلوم العقلية (ص 7) ومحمد هذا يرى فيه ابن عثمان[4] أنه آخر علماء الكلام، وبقية المحققين الأعلام.

وفي هذا الإطار كان موقع تأليفه: «فتح الرحمن لأقفال أم البرهان»، شرح به «العقيدة السنوسية» المشتهرة باسم «أم البراهين»، وتوسع فيه حتى جاء في سفر كبير. ومن مخطوطاته نسخة خ.ع.ك 454، ومن لطف ذوق المؤلف تبريزه لبنية

---

(1) بالإضافة إلى ما ذكره عنه المؤلف، يصنفه البصري في فهرسه ـ مصدر سابق ـ بين أشياخ والده محمد بن محمد بن عبد الرحمن، وحسب وثيقة عدلية، كان يتعاطى خطة الشهادة بسماط مكناس سنة 1175هـ.

(2) هذا والاسم بعده لا يعرف عنهما ـ الآن ـ إلا: ذكره المؤلف.

(3) الإشارة إلى الشيخ العربي البصري سابق الذكر.

(4) إحراز المعلى والرقيب، المصدر السابق، ص 336.

الخطاطة المغربية والكتابة الإنشائية بين أفراد أسرته، فيذكر منهم جده عبد السلام، وابنه الطيب، وقبلهما ـ حسب المؤلف ـ الفقيه الكاتب البليغ: السيد أحمد بن محمد البيجري، ظهر في الكتابة الإنشائية بالزاوية الدلائية، ويضيف المؤلف حفيد هذا: أحمد بن عبد الرحمن بن أحمد، «وكان فقيهاً عدلاً، وله خط حسن يشبه خط جده» ص 12.

وبتعاً لهذه النماذج من البنى المنوعة، نشير إلى ثلاثة أسماء ـ من الأسرة ـ ربطوا علاقات علمية خارجاً عن مدينتهم، فكان الشيخ عبد السلام البيجري رحل في جماعة من الطلبة، قاصدين الإمام أبا علي اليوسي إلى موضع سكناه بجبال آيت يوسي، وهناك قرأوا عليه «الكبرى» للإمام السنوسي ص 6.

ثم كان ابنه محمد بن عبد السلام رحل إلى فاس، واستوطنها مدة استكمل فيها ثمانية عشر شهراً، وخلال إقامته بها درّس أكثر من كتاب، وأفتى، وناظر شيخ جماعتها أحمد بن مبارك السجلماسي.

وفي مدة إقامته بفاس أخذ ولده المؤلف عن عالمين بها: محمد بن الحسن بناني صنو محشى الزرقاني، ثم أبـي زيد عبد الرحمن المنجرة، وخلال رحلته إلى جنوب المغرب، لقي ـ بتامسنا ـ الشيخ إبراهيم بن عبد الله المنياري، وقد وجده ـ بجامعه ـ يقرئ «العقيدة الصغرى» للسنوسي، وفي مدينة أزمور التقى بالعالم الرباطي الهاشمي شكالنط، وقد كان بها يقـرئ العلم.

وارتقت هذه العلاقة مع فاس إلى الميدان الروحي، فكان محمد بن عبد السلام البيجري أخذ عن المربـي الشيخ عبد الكريم بناني، وقد آخى بينه وبين الصوفي السيد الشريف إدريس نصيح، وعنه يقول المؤلف: «فكان يأتي إلى دارنا بدرب مينة، فيجلس مع والدنا رحمهما الله، فيتكلمان بالحقيقة، ويستخرجان من الآيات القرآنية والأحاديث النبويـة أسراراً يقصر عنها الفهم، ويسقط دونها سهم السهم، وتلك الطريقة النقشبندية».

وينم آخر هذه الفقرة عن إفادة مهمة، وهي وجود الطريقة النقشبندية المشرقية فـي فاس خلال أواسط القرن الثامن عشر، وقد نوه بها وعرف بأعمالها

وشيوخها أبو سالم العياشي في رحلته «ماء الموائد»[1].

والآن فقد قدم هذا العرض نماذج من معطيات التقييد، وقد تناولتْ بعض البنى بمكناس خلال القرن الثامن عشر، على أن المؤلف لم يقدم منها إلا قليلاً، اعتباراً بتقيده ـ ونحن معه ـ بطبيعة عمله الخاص بأسرة معينة.

وننتقل ـ بعد هذا ـ إلى تبريز أهمية الرسالة في جوانب أخرى، ومن ذلك معلومات وردت بالتقييد عن المترجمين به، أو المذكورين في إشارات وجيزة، وهذه المعطيات لا تزال لم يفد منها ـ في علمنا ـ أي مصدر تال، نظراً لاستمرار غياب التقييد حتى فترة غير بعيدة. وفي إطار معلوميات مكناس، نقوم بمقارنة للأسماء الواردة عند المؤلف، مع ما في «إتحاف أعلام الناس» ونشير ـ أولاً ـ للفقهاء المذكورين بالتقييد، وإن جاء ذلك في إشارات وجيزة، بينما لم ترد تراجمهم عند ابن زيدان، ومنهم محمد بن عبد الوهاب البصري، والمجذوب اسماًابن عزوز، والعربي الجيتني بالجيم المعقودة، وأحمد بن محمد البيجري، وحفيده أحمد بن عبد الرحمن بن أحمد البيجري، والمقرئان محمد وانزار التازروتي وأحمد الفيلالي، ومحمد بن عبد الوهاب ابن الشيخ الأموي، ويلحق بهؤلاء الطيب بن عبد السلام البجيري، حيث اقتصر ابن زيدان على ذكر اسمه خاصة، طبق ما وقف عليه في لائحة العلماء المدرسين بمكناس أصحاب الرتبة العلمية في عصره.

وهناك من عرف به نفس المصدر في ترجمة موسعة أو موجزة، غير أن المؤلف يقدم عنهم إضافات ولو أنها في بعضهم قليلة، ومنهم عمر الحراق، وعلي بن صنبة، وأحمد بن عثمان، والغازي بن عبود.

---

(1) ط. ف: 1/213 ـ 224، ويقول محمد عبد الحي الكتاني عن فترات ظهور هذه الطريقة بالمغرب: «النقشبندية أدخلها أبو سالم ثم اندثرت، ثم عبد القادر بن أبي جيدة الفاسي سنة1211، فاشتهرت وأقبل عليها الناس حتى كادت أن تتواتر، وبعد سنة ونصف جاء الوباء عام 1213، فأتى عليه وعلى جميع أصحابه فانقطع أثرها، ثم تلقنها ـ من الرضوي ـ الشيخ محمد بن عمر الدباغ»، انتهى من ترجمته للشيخ محمد صالح الرضوي». وترجمة الفاسي وردت في «سلوة الأنفاس» 1/334 ـ 336، وبنفس المصدر ترجمة الدباغ: 2/205 ـ 206.

ونشير ـ الآن ـ إلى ثلاثة أعلام من نفس الفئة، وهم عبد السلام البيجري، وابنه محمد، وحفيده محمد المؤلف وقد دون تراجم لكل منهم، وابن زيدان من جهته ترجم للثلاثة، غير أنه استند إلى مصادر ليست إضافات رسالتنا بينها.

وإلى هنا نتبين من هذه المقارنات، مدى أهمية الإفادات التي تقدمها الرسالة، عن مجموعة من الأسماء عاشت في مكناسة القرن الثامن عشر.

النـــص

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً

نثني على الله تعالى بجميل ثنائه، ونستزيده سبحانه من فضله وعطائه، ونصلي ونسلم على صفوة أصفياءه، وخيرة رسله وأنبيائه، وعلى آله وأصحابه وأوليائه.

وبعد: فالمراد بما ينفث القلم، التحدث بالنعم، فنذكر بعض أحوالنا، ونختصر في أقوالنا فنقول:

لا شك أن العلم تفضيل، وغرة وتحجيل، في كل جيل، كما قيل:

ما الفضل إلا لأهل العلم إنهم على الهدى لمن استهدى أَدِلاَّءُ

وقيل:

ومـا فضـل الإنسـان إلا بعلمـه وما امتاز إلا ثاقب الذهن واقده

ولا نكثر بهذا ولا نطيل، فلبيتنا البيجري ـ والحمد لله ـ منه ما لا ينكر، كما سيذكر، ونسبتنا هذه إلى بيجرة قرية أو مدينة صغيرة بقرب غرناطة، وأما القبيلة فمضر، إذ يوجد في بعض عقودنا القديمة فلان بن فلان البيجري الأندلسي المضري.

ولما خرجنا من الأندلس كان نزولنا ـ أولاً ـ مع أهل بيتنا بفاس البيضاء[1] في دار بالعيون، لم تخرج من أيديهم إلا في حدود الخمسين بعد مائة وألف، وهي الآن في أيدي بعض الشرفاء، إلا أن جدنا منهم لم يطل مكثه معهم، بل انتقل إلى مكناسة الزيتون فاستوطنها.

---

(1) سبق قلم من المؤلف عن فاس الإدريسية، حيث يوجد بها «حي العيون».

ولم يزل الطلب والعلم يظهر منا في المكناسيين والفاسيين، وقد استقضي بعضهم قديماً في الناحية السوسية، فكان الشريف النقيب أبو زيد الومغاري[1] يحدثني أن في كتبهم ـ يعني الموضوعة لإثبات نسبتهم الشريفة ـ قاضياً بيجريّا، حتى أوقفني ـ بعد وفاته ـ أخوه السيد أبو عبد الله على مخاطبته بثبوت النسبة المذكورة في كتاب ابن عبد العظيم الزموري، وقد نقل الشريف العالم السيد عبد السلام القادري في بعض تآليفه عن بعضهم: إنه نقل أن الحفاظ ثلاثة: حافظ ضابط ثقة، وحافظ ضابط غير ثقة، وحافظ لا ضابط ولا ثقة، ورأيت في بعض الدواوين السلطانية، نسخ رسوم حلت[2] فيها أسماء عدول من البيجريين بفاس، وكان والد جدنا ـ رحمهم الله ـ يحلى في الرسوم بالفقيه.

وأما ولده جدنا رحمه الله، فهو الفقيه العالم المحقق المشارك المدرس أبو محمد عبد السلام بن محمد فتحا بن قاسم بن إبراهيم البيجري، كان صدراً في زمانه، مقدماً في الإدراك والتحصيل على أقرانه، ولم يكن يقاربه أو يقارنه، ويوازيه ويوازنه، إلا العلامة القاضي أبو مدين السوسي رحمه الله، وقد أنجب بولديه، وانتفع به من جلس بين يديه، واقتبس مما لديه، وأشار تلميذه الفقيه العلامة الزكي السيد العربي البصري، في تأليفه «منحة الجبار»[3] إلى ما منها يخصه، بما نصه: «شيخنا وبلدينا الإمام، الطود الهمام، أبو محمد البيجري: عبد السلام، شيخ حسن التقرير، جيد التعبير، يلحق المبتدي بالمنتهى في الزمن القصير، والأمد اليسير، لازمته نحو الست سنين، أخذت عنه فيها السلم والمختصر المنطقيين، وكان يسرد شرح الشيخ السنوي على المختصر في ختمتين أخذتهما عنه، ويوشح ذلك بحاشية شيخ الجماعة سيدي أبي علي اليوسي، وفوائد أخر من كتب غريبة، ومسائل بخطوط بعض الأئمة المعتبرين عجيبة، وأخذت

---

(1) لا نعرف السبب في نقل النقابة من الأشراف الشبيهيين إلى أبناء عمهم الأمغاريين، وأيّاً ما كان، نذيل هذا التقييد ـ عند الملحق الأول ـ بنص ظهير صادر عن السلطان العلوي مولاي عبدالله بن إسماعيل، يسند فيه نقابة عموم الأشراف للشريف الأمغاري محمد بن أبي زيد بن أبي عبدالله عام 1142 هـ.

(2) حل اسم العدل يقصد به في اصطلاح الموثقين، تبين اسمه المشتبك داخل إمضائه المعقد، الذي يذيل وثيقة شهادته.

(3) مخطوط خ. س 941 ز.

عنه شرح العلامة المحلي لأصول التاج السبكي أخذاً عجيباً، وكان يحضر جميع الحواشي، وينقل المسائل الغريبة من شروح ابن الحاجب والمنهاج، وأخذت عنه مختصر السعد أخذاً حسناً، وأخذت عنه كبرى الشيخ السنوسي أخذاً حسناً، وقد توفي وقد بقي من الشرح ورقات، وأخذت عنه نظم الخزرجي في العروض، وسمعت عليه أماكن من الألفية لابن مالك.

ومما رأيت بخطه رحمه الله ما نصه: الحمد لله، ولبعضهم: يا سيداً إيضاح إحسانه، ليس بمحتاج إلى تكملة:

قد فاتني العائد منكم عسى أن تجبروا ما فاتني بالصلة

ومنه الحمد لله، ولامرأة حين ذهب زوجها لفاحشة يفعلها، ولما فرغ منها لسعته عقرب فتألم من لسعها، فسأته عن سبب الألم فاعترف، فأنشدته:

ودار إذا نام سكانها تقيم الحدود بها العقرب
إذا رام ذو حاجة غفلة فإن عقاربها ترقب

وفي نسخة تضرب.

ومنه: الحمد لله، طيور إبراهيم ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ أربعة نظمها بعضهم: ديك وطاووس غراب وحمام، قد أحييت من بعد ذبح والسلام. وإنما كانت أربعة لأن النواحي أربع، وأصول الألوان أربعة، وغيرها مركب منها.

ومنه: الحمد لله، قال تعالى: ﴿يوم ينظر المرء ما قدمت يداه﴾ الآية، قيل إن البهائم والوحوش والطير تصير تراباً بعد قصاص بعضها من بعض، فيتمنى الكافر أن يكون تراباً مثلها ولا يصير للعذاب ويبقى له، وتبقى عشرة لا تكون تراباً: ناقة صالح، وفصيلها، وكلب أصحاب الكهف، وكبش فداء إسماعيل، وحمار عزير، وحوت يونس، وبرجيسة سليمان، وفارة سبأ التي نقبت السد، وبغلة شعيب، فإن هذه الدواب تكون في بستان من بساتين الجنة، انتهى. قلت وهو مخالف لما في شرح الشفا للشهاب ونصه عند ذكر البراق أول الكتاب: وهو ملك خلق على هذه الصورة لحمل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولا مانع منه كديك العرش، أو هو دابة مخلوقة في الجنة، وقد قالوا إنها يدخلها بعض دواب الأرض

وبلغوها نحو عشرة، ونظموها في شعر مشهور وهو:

براقُ شفيع الخلق ناقة صالح ... وعجل لإبراهيم كبش لنجله
وهُدهُد بلقيس ونملة بعلها ... حمار عزير كلب كهف لمثله
وحوت ابن متى ثم باقرة لمن ... يبر بأم في رخاء ومحلة
فهذه عشر في الجنان وغيرها ... يصير تراباً يوم حشر لكلة

انتهى، والبرجيسة الناقة الغزيرة هـ: قاموس.

وحكي لي أنه وقع في نفسه شيء مما جرى بين مولانا علي وسيدنا معاوية، فرأى مناماً كأنه بالجامع الأعظم من مكناسة، فإذا هو بهما جالسين وكف أحدهما في كف الآخر، فلما انتبه من نومه رجع عما كان في قلبه، وعلم أن قدر الصحابة ليس مما يوزن بموازين الوقت.

وكان ينهاني عن الإكثار من علم النحو ويحضني على علم المعقول، وكان الشيخ أبو عبد الله ينهاني عن الإكثار من علم المعقول ويحضني على الفقه، فكنت آخذ بخاطر كل منهما وأعده بفعل ما يريد، رحمة الله تعالى على الجميع.

ولما عزم على إقراء مختصر خليل عقب إتمام القصيدة الخزرجية في علم العروض، لفقت في مدحه قصيدة ومدحت جماعة الطلبة الآخذين عنه، ورغبته في بدأ كبرى الشيخ السنوسي، وهي:

بشرى بتأدية الأمانة شيخنا ... لوصال هذا اليوم كنت مواصل
ختمت مسائلك الدقيقة بالهنا ... وحفظت من مكر الخؤون الخاتل
سقيا لحضرتك المنيفة رتبة ... بسواكب المزن الرفيع الهاطل
قل للحسود أخي الضغائن جمعنا ... جمع السلامة ساد كل مقابل
ببنيك قد ظهرت مزاياك التي ... أخفيتها عن كل ندل جاهل
ونفعت أقواما جثو بفنائكم ... لا من تعجل في الرعيل الشاغل
فكأنما مكناسة الحسنا بكم ... فلك الكواكب للبهاء الشامل
بوجودكم ظهرت بها نقادها ... حفظ الاله جميعكم من صائل
قل للمجعجع لا يعرنك الصدا ... العلم ذا والحق ضد الباطل
ان التصنع والتأنق حسرة ... يوم الفصال أخا التفامي الهائل
أو ما رأيت الشيخ في تدريسه ... ذا هدنة وتقعدد للسائل

وتنازل للمشكلات إذا بدت ... وتأمل لصواب قول القائل
أستاذنا بهر العقول بلا مرا ... كم ساق من تحف العلوم لناقل
معقوله أحيي الاله قلوبنا ... بأصوله وبيانه المتكامل
ودقائق المنطبق أضحت سهلة ... بشراك خاطبها بهذا البازل
عجباً لتقرير له يهدي به ... من لم يكن ـ وأبيك ـ يدعى بعاقل
ختما بكبرى الشيخ بانجل الالى ... فاقوا بأندلس بمجد كامل
فإذا ختمت فكن لفقهك ناهضا ... حكم التناسب لا يخالف عاذل

توفي رحمه الله تعالى آخر ليلة يسفر صباحها عن أول يوم من ربيع النبوي، ودفن خارج باب البرادعيين، سنة اثنتين وثلاثين ومائة وألف هـ. فجوزي هذا الإنسان بالإحسان. وبهذا التاريخ رمز إلى وفاته ـ أيضاً ـ الفقيه الأديب الكاتب، البليغ البالغ مراتب، الشريف الحسني، أبو حفص السيد عمر الحراق[1] رحمه الله، في أرجوزة رثاه بها وقد شاق بما ساق فيها من صفات، وشق عن إبراز تصدره في العلم وتصرفاته، فناسب هنا أن تذكر، إذ هي مما لا ينكر، والخير يشكر، ونصها بعد الحمد لله وحده ﷺ على من لا نبي بعده وعلى آله وأصحابه ووزرائه وجنده: لكاتبه غفر الله ذنوبه، وستر في الدنيا والآخرة مثالبه وعيوبه، آمين آمين آمين، يا رب العالمين:

يا ذا الأسى إن سلت عن كنه الخبر ... وكنت ممن يرعوي من العبر
بادر إلي التوبة فيمن ابتدر ... فالموت لا يبقى أمرءاً ولا يذر
من صالح وطالح وعالم ... وجاهل وعادل وظالم
فهو سبيل في الورى مسلوك ... فيه استوى المالك والمملوك
والعلم لا يقبضه انتزاعاً ... من الصدور بل ولا ارتفاعاً
مدير الأشياء بالتقدير ... بلا معين وبلا وزير
وإنما يقبض أهل العلم ... يقبضه لحكمة في الحكم
عليه فلتبك البواكي التكّل ... إذ ليس بعد العلم إلا الجهل
وليس بعد الجهل إلا الساعة ... يا ويح من ضاعت له البضاعة

(1) مترجم في «إتحاف أعلام الناس» 5/485 ـ 489.

ولـــم يقـــدم سبـــب النجـــاة لمـوقـف بعـد الممـات يـاتـي
يفضي إلى الربح أو الخسران عـاملنـا الـرحمـن بـالغفـران
وفي الذي مضى من الأعيان ذكـرى ومـن شـوهـد بـالعيـان
ومـن يطـالـع كتـب الأخبـار تـزده علمـاً بـاقتـدار البـاري
ففـي مهـل مـن ربيـع الأول وهـو خميس شهـرنـا المفضـل
تـوفـي الفقيـه قـرب الفجـر عبـد السـلام الألمعي البيجري
كـم مـن معـان لمُعـان هـذبـا (بل شق) كم من مشكل و (شقلبا)
فكـان تـاريخـا إلـى وفـاتـه ورحمـة تلقـاه فـي رُفـاتـه
أمـا الكـلام بعـده حـرام ومـن سـواه عجبـاً يـرام
والفقـه والأصـول والبيـان مـن ذهنـه الثـاقـب تستبـان
والنحـو والتصـريف مما اتفقا فـي صغـر علمهمـا قـد حققـا
أما العروض فهو من متروكه هـزجـه رجـزه منهـوكـه
مـن بعـده لطـالبـي الحقـائـق ومبتغـي الـرقيـق مـن دقـائـق
حيـى الإلـه تـربـة ثـواهـا ومـن ينـابيـع الثنـا رَوّاهـا

آمين، يا أرحم الراحمين، يا رب العالمين، انتهت من خطه بلفظه، جوزي عنها من رجائه بتوفير حظه.

وقد كان جدنا رحمه الله تمهر على شيخ الجماعة، الماد إلى أعالي العلم باعه، الجاد فيه حتى استجد رباعه، أبـي علي اليوسي رحمه الله، فحدثني والدي رحمه الله أنه قصد إليه في الصياصي وطلبه، مع جماعة من الطلبة، ممن كان مثله تفطن، للاستقا من ذلك العطن، فلما وصلوا إليه، واستأذنوا عليه، خرج إليهم مسرعاً، واستخرج بعد التحية بالمباحثة مبارزة كل منهم حاسراً ومتدرعاً، فأعجب بهم، واثنى في الفهم على مذهبهم، ثم سألهم عما يقرأ، فقالوا الكبرى، فقال من الغد، فقالوا هو ما يسترغد، فلما أخذ معهم في الإقرا، وكان ببابه جماعات أخرى، طال مكثهم منشطرين، جاءوا وقالوا ما للقادمين تقدموا ولم نزل مؤخرين، فقال إنما أزرع في المزارع لينبت، فمن شاء منكم فليثبت، قلت: وقد عمل في هذا ـ رحمه الله ـ بتقديم الأهم، وتخصيصه من الأعم، أو بمراعاة ذي الأهلية، قبل غيره من صالحي

النية، وهو ينظر إلى خلاف سابق، في تقديم ذوي النجدات أو أهل السوابق.

ولما وثق الشيخ بإدراكه، لم يأنف من إدخاله معه في التحقيق وإشراكه، فحدثني والدي ـ رحمه الله ـ أن الشيخ اليوسي، لما استكمل حاشية المختصر السنوسي، أمره بمطالعتها ليبقى التحقيق، وينفي ما ليس بحقيق، وقد كان اعترض بعض التراكيب المحتاجة إلى الربط بعدم الرابط، ووجد الجد ما يصلح للربط بحسب القواعد والضوابط، فلما أخبره به قال له يربط منصفاً ومقراً، وحكى والدي صوته كما حكاه والده إذ كان يلتغ بالرا.

ولم يقدر للجد ـ رحمه الله ـ في التكوين، تدوين، وتقاييده على هوامش كتبه كلها عديدة، جيدة مفيدة، أخبرني والدي ـ رحمه الله ـ أنه كان عازماً على استخراج حاشية من هوامش المحلي، ومن تقاييده عرفت قدره، إذ لم أدرك عصره، وكنت معجباً بعلم والدي ـ رحمه الله ـ، فسألته يوماً أيهما أعلم، فقال لي أنا نقطة من بحره.

* * *

وكان والدنا أبو عبد الله ـ رحمه الله ـ آية في علمه، غاية في حفظه وفهمه، حفظ القرآن في ختمتين، والمتون كلها حتى مختصر خليل في مسرة لامرتين، كنت أسمعه يقرأ في التراويح فلا يرتج عليه، ويسرد الباب أو الفصل من المختصر إذا طلب النص حتى ينتهي إليه.

أخذ العربية والبيان والأصول والمنطق وعلم الكلام عن والده وألزمه تحقيق هذه العلوم العقلية، حتى قال له يوماً يا أَبت: إن الناس يسألوني عن مسائل الطهارة والصلاة فلا أجد الجواب، فقال له الزم ما ألزمتك، فإنك إن حققته كان لك الفضل على من تجلس إليه من شيوخ الفقه، وكذلك وجد الأمر، وأخذ الفقه عن شيخ الجماعة الفقيه أبـي علي السيد الحسن بن رحال، وعن الشيخ الفقيه أبـي عبد الرحمن السيد سعيد العميري، وكان يخاطبه بالشيخ محمد، وآخر شيوخه في الفقه الفقيه العلامة الأظهر، أبو العباس السيد أحمد الشدادي الأكبر.

وحدثني ـ رحمه الله ـ أنه خطر أول أمره بفاس، فوجد بعض الفقهاء بمدرسة العطارين يقرر قول المختصر في صلاة الجنازة: «وركنها النية وأربع تكبيرات»،

فقال له يا فقيه: ركن اسم جنس نكرة وقد أضيف، واسم الجنس النكرة إذا أضيف أفاد العموم، والعام لفظ يستغرق الصالح له من غير حصر، فيكون معنى الكلا هنا: كل ركن من أركانها النية وأربع تكبيرات، وهذا لا يصح[1]، فسكت الفق ولم يجد جواباً وقطع التقرير، فقال بعض طلبة المجلس هذا البحث ذكره سيد عبد الواحد بن عاشر في حاشيته، فقال له الوالد: والله ما سمعه فضلاً عن أن يضع في كتابه.

وكان ـ رحمه الله ـ صدراً في الفتيا، وكان معه من صدورها الفقيه السي عبد الوهاب ابن الشيخ[2]، والفقيه السيد أبو القاسم العميري، وغيرهما، لاكن إذا كا الأمر سهلاً، كان كل للتقدم أهلاً، وإلا أمروا المستفتي بتقديمه، وهذا شاه تعظيمه. وبعض فتاويه، تشابه التأليف وتساويه، فلقد رأيت قاضي رودانة الفق السيد الحسن بن الفقيه السيد عبد الله بن الحسن يعتمد في نوازل وأحكام كثيرة على ما نقله في فتيا صدرت منه في شأن «زيتون ابن الأشقر، ومن نمطها الفتيا التي أثبتت في حوالة جامع القرويين بجمع الأحباس كلها حتى تصير نقطة واحدة ويصرف إلى كل مسجد ما يستحقه منها، وكان خالفه في ذلك شيخ جماعة فاس الفقيه أبو العباس السيد أحمد بن مبارك السجلماسي، حتى جمع بينهما في الجام المذكور مع علماء الوقت وكبرائه بفاس، وذلك وقت سكناه بها عام خمس وخمسين بعد المائة والألف، فانفصلوا على العمل بفتياه وإثباتها في الحوالة كم قدمناه، وقد وقع جمع آخر بينهما في المحل المذكور مع من ذكر، لنزاع طال في عرصة بين مولاي عمر الأقواس والسيد عبد الرحمن الشامي، وشاع الكلام بينهم في فقه المسألة وما ينبني عليه أو يتعلق به من أصول وغيرها، ولقد أنصف ممن

---

(1) علق هنا القاضي محمد بن عبد السلام البناني المالك الأول للتقييد، وقال معقباً عل اعتراض والد المؤلف: «ذلك صحيح، والمنظور إليه فيه إلى عموم المعطوف والمعطوف عليه، لا أحدهما فقط. كما هو مبني البحث، فأمره سهل، كاتبه محمد البناني».

(2) هناك فتوى لمحمد بن عبد السلام البيجري، وتصحيحها لعبد الوهاب بن محمد ابن الشيخ ثبت نصهما في الحوالة الكبرى لاحباس مكناس، خ، ع رقم 5 من قسم الحوالات ص 305.

حضر من الفقهاء: الفقيه السيد أحمد الصبحي[1]، فقال مخاطباً لهما: إذا تكلمتم في المنقول شاركناكم، وإذا تكلمتم في المعقول تركناكم، لأن كلاً منكما يدعيه، ونحن لا نعيه.

وتصدر هناك للتدريس، بقية مولانا إدريس، فختم بها صغرى الشيخ السنوسي على الكرسي الذي كان يقرأ عليه الفقيه العلامة السيد الكبير السرغيني، وكان ربما حضر يسمع تقريره فينصف، وبالمستحق يصف، واقرأ نظم ابن عاشر خارج القبة، ونظم السلم المنطقي وشرح المأمون للصغري بجامع القرويين، وبفاس كان ابتداؤه لتأليف «فتح الرحمن»[2]، ومن استخاراته لذلك أن أعطاني كراريس من الكاغَد وأمرني بوضعها على ضريح مولانا إدريس، فباتت هناك إلى الصباح وأخذتها فرددتها إليه فقيد فيها.

وبعد استكماله بفاس ثمانية عشر شهراً رده إلى مكناسة واستقضاه بها ثلاثين شهراً السلطان مولانا عبد الله رحمه الله، ثم كان يتردد إليه بعد ذلك، فربا حبسه للخطابة والتدريس بفاس الجديد، وربما أرسله بعد التعييد.

وفي ذلك الزمان كانت غيبتي إلى سوس الأقصا، حسبما يأتي ذكره ـ إن شاء الله ـ مستقصى، حتى قضي الله تعالى بشهادته، وقضى عليه تحت الردم الزلزلي لسعادته، أخبرني ولي التصريف أبو سالم السيد إبراهيم الخبيزي أنه أخبره بذلك قبله بزمان، فقال له: قبلت، ويدل على قبوله ما أخبرتني به والدتي رحمها الله، أنه كان يجري على لسانه كثيراً قرب الزلزلة: هكذا أراد، وقد رأى قبلها بيومين أنه يقرأ على كرسيه بالمسجد الأعظم، إذ رأى ناساً جاءوا بآلة الهدم وجعلوه يهدمون سواري المسجد، فقام إليهم. منكراً عليهم، فقالوا: إنما فعلنا بأمر النبي ﷺ، وها هو ذا بباب الشراطين من أبواب المسجد فهرول مندفعاً، واستقبل نحوه

---

(1) ترجمته في «نشر المثاني» مصدر سابق: 4/40، وقد ضبط بضم الصاد وكسر الباء والحاء.

(2) تبيناً عند مدخل هذا التقييد أنه من مخطوطات خ. ع. ك 454، ولنفس المؤلف «الانصاف في القضاء بين النقيب وبين من انتسب إلى بيت النبوءة من الأشراف» يقع الموجود منه أول مجموع: لوحة 1 ـ 75، من مصورات خ. ع 191: «فيلم»، ومن هذه أخذت مصورة منه على الورق: خ. س 10994.

متشفعاً، فرأى نوراً حجب الذات الشريفة أخرجت إليه منه اليد الكريمة وسادة ومفتاحاً، وسمع من الخطاب المعظم: قد قضي الأمر وتم، فرجع متحققاً، وأصبح مصدقاً، فحدث أهل مجلسه وغيرهم بذلك، وكان له علم المرائي، فعبر الوسادة بالقبر، والمفتاح بمفتاح الجنة وهو الشهادة، وهذه الرؤيا شائعة في الناس، فحدثتني والدتي رحمها الله: أنهاسألته عن تعبير هدم السواري، فقال لها: أولئك العلماء يموتون، وفي خلال اليومين كان يتوادع مع بعض الناس، أخبرني عبد الله البارودي: أنه لقيه في العشية المتصلة بالزلزلة ماراً من باب عبد الرزاق إلى باب تزيمي، ودموعه تسيل على لحيته وهو يقلب نظره في نواحي البلد، فأقبل عليه هو ومن معه يقبلون يديه ويطلبون الدعاء منه، فقال له: إن أخاك محمد من أصحابنا وهو سائر معنا، وكان محمد يحبه كثيراً ويخدمه، فاتفق بأن أصبح فيمن قضي عليه تلك الليلة، وهذا من كشوفاته، والكرامات التي ظهرت قرب وفاته رحمه الله تعالى.

وقد كان له مقام عال في المعرفة، وقدم راسخ في علم الحقيقة، أخذ بفاس عن العارف بالله تعالى، المستمد من محبة رسول الله ﷺ: السيد عبد الكريم[1] بناني، الذي سلك مسلك الخمول، فكان يحترف بالخرازة في داره بدرب الطويل، وفيها كان يأتيه والدنا رحمه الله، فيلقى إليه من أسرار الحقائق، ودقائق الرقائق، ما يثلج له صدره، ويتبلج به بدره، ومن أصحابه الشريف العارف بالله تعالى: سيدي إدريس نصيح[2]، وآخى بينه وبين والدنا رحمهما الله، وأذن لهما بالتكلم في الحقيقة، فكان يأتي إلى دارنا بدرب مينة فيجلس مع والدنا رحمهما الله، فيتكلمان بالحقيقة ويستخرجان من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، أسراراً يقصر عنها الفهم، ويسقط دونها سهم السهم، وتلك الطريقة النقشابندية، ولم يسعني ذكر مقاماته، ولا نشر كراماته، فيما رقمته يدي، في مقيدي.

---

(1) هو ولد الشيخ محمد بن عبد السلام البناني، ومؤلف «تحفة الفضلاء الأعلام بالتعريف بالشيخ أبـي عبد الله محمد البناني بن عبد السلام»، ذكره في «سلوك الطريق الوارية»، وفي «سلوة الأنفاس» 1/148.

(2) ترجمة في «سلوك الطريق الوارية» باسم سيدي إدريس ناصح بصيغة اسم الفاعل، وأرخ وفاته بعام 1194هـ.

وتلامذته في علوم الظاهر كثيرة، من أوائلهم أخونا وشيخنا الفقيه العالم المحقق أبو عبد الله سيدي محمد بن الفقيه العلامة سيدي عبد الوهاب ابن الشيخ رحمهما الله، ومن أواخرهم الفقيه المدرس المفتي أبو الحسن بن صنبة، قرأ عليه الأصول والبيان وشيئاً من مختصر خليل الذي كان يقرئه آخر حياته، إذ وجدوه ليلة قُبض تحت التراب، ووجهه على الكتاب، بين أوراق الحطاب، وقد مدحه في بعض الختمات، على سبيل العادات، بهذه القصيدة، ونصها بعد البسملة والصلاة على النبي ﷺ:

خل التلذذ بالربيع الأزهر ... وغناء غانية ورنة مزهر
ودع الصبابة بالجآدر والظبا ... كيما تفوز إذاً بأربح متجر
ربح العلوم المنقذات من الردى ... يا حبذا كنز العلا والمفخر
وإذا أردت تسنماً في أفقها ... ووصال خُرّدها الحسان الزُّهُر
فأت الإمام الفاضل النحرير من ... تحقيقه لا لبس فيه لممتر
أسعد به دهراً أقر عيوننا ... بالعالم الأسني الهمام البيجري
قرم تفرد بالمكارم والعلا ... يسموا مكاناً فوق هام المشتري
مكناسة الغراء لولا نوره ... يهدي السراة لمجده لم تذكر
فخرت بطلعته المنصة فازدهت ... خيلاءَ عن ذي محبر أو منبر
فإذا رأيت جلاله في محفل ... يبدي العجاب بيانه للحضّر
تبغي الجوارح أن تكون مسامعاً ... والقوم نشوى من شراب كوثري
كم مشكلات قد أزال قناعها ... فغدت شموشاً للعفاة الحير
طابت خلائقه وعم نواله ... والفرع عنوان لطيب العنصر
وسع العفاة سماحه في بسطة ... مهما تراه يرى بوجه مسفر
في همة ووقار حلم دونه ... شم الجبال الراسخات العُفر
فليهنه الكنز الذي ما فوقه ... كنز يرام لمنجد أو مسغور
تلك المكارم لا عمامة جاهل ... يبغي العلو بلبسة وتبختر
لا غرو أن قلت رواة علومه ... قد قيل قبلاً في الزمان الأغبر
أن الفتى مهما تَرِقّ علومه ... قل التبيع لعسرها عن أغمر

أو إن رأيت زمانه لا منصفاً ... في حقه الأسمى الخطير الأكبر
دأبُ الزمان عداوة لذوي النهى ... ويرى مناصبهم بعين الأعور
لاكن فليس على اللبيب اللوذعي ... بأس من الدهر العبوس الأكدر
هذا وما قصدي لأنهي فضله ... بعُد المداعن موجز أو مكثر
لاكن لأقضي بعض واجب حقه ... إذ صار منته قلادة منحر
فليغض عن تقصيرنا وقصورنا ... فالعذر شأن الماجد الندب السري
لا زال مثوى للمحاسن حاسماً ... حبل الجهالة بالحسام الحيدري

انتهت بحمد الله هـ.

وقد بدا لي مما أتفكر، والشيء بالشيء يذكر، أن أثبت هنا قصيدة الفقيه السيد محمد بصري المرتقب الذكر في تلاميذة عمنا رحمه الله، التي امتدح بها سيدنا الوالد رحمه الله، ونصها:

إلى البيجري الصدر نال المكارما ... وأطلع في أفق المفاخر ثاقبا
أوجه مدحاً وهْوَ دون مقامه ... فلا أيتم الرحمن منه المراتبا
نقي من الفعل القبيح منزه ... كلا حافظيه يكتبان الرغائبا
فلو أدرك المجنون أيام حلمه ... لأعرض عن ليلى وأصبح تائبا
أخاف سباع الطير من سوط عدله ... فكادت تفرط الخوف تلقي المخالبا
بعزم يرد الخَطب والخطب مقبل ... ورأي وتدبير يرد الكتائبا
وحزم يميز الحق من غير ريبة ... وحكم..... «محو».....
فراسته تغنيك عن ألف شاهد ... تربك من الأشياء ما كان غائبا
لقد نسخت أنواره كل ظلمة ... كما نسخت.... «محو»....
جواد بما يحويه في كل حالة ... إذا قل قوم لم يمل المواهبا
خبير بتحقيق العلوم مدقق ... إذا... «محو»... أراك العجائبا
وإن نثرت يمناه في الطرس لؤلؤاً ... حصّلت على تلك اللآلي مطالبا
يبيت بحب المكرمات قيما ... إذا عشق القوم الحسان الكواعبا

إذا رمْت أن تحصي فضائله ولم ... تدع قلماً في الأرض لم تقض واجبا
فتى قد فقدت العسر . . . «محو» ... . . . «محو» . . . . عطفاً وجانبا
وأصبح يلقاك العدو مسالما ... وقد كان يلقاك الصديق مُحاربا
عليه سلام الله ما بعث «خرق» ... . . . «خرق ومحو» . . . منه المَحاربا

وقد قدمنا أن الجد أنجب بولديه، فأخرنا العم وإن كان أسن وقدمنا الوالد عليه، لأن حق الوالد، يقدم الطارف على التالد، فنقول الآن: وكان عمنا أبو محمد سيدي الطيب رحمه الله، صاحب تحقيق في العلوم ودارية، إلا أنه في علم العربية رفع الراية، تقاييده على شراح الألفية وغيرها تستفاد وتستجاد، كان تلميذه الفقيه العالم المدرس نائب القضاء أبو أحمد السيد المجذوب بن عزوز يستظهر بقوله فيما أشكل من كلام ابن مالك وغيره، فيقول في مجلس أقرائه: قال شيخنا سيدي الطيب البيجري:

ومن تلامذته الفقيه المدرس الأنجب: السيد العربي الجيْني، خلفه والداه يتيماً صغيراً، فكفله جدنا، وأقرأه عمنا، وكان رحمه الله مقراً بذلك الإحسان، حتى سقط منه اللسان، ومنهم الفقيه النبيه السيد محمد فتحا بن الفقيه النزيه السيد عبد الوهاب البصري.

وكان عمنا ـ رحمه الله ـ حسن الخط جداً كجدنا، وحسن الخط من حسن القلم، كما قال عبد الحميد الكاتب لإبراهيم بن جبلة، أطل حلقة قلمك وأسمنها، وجرف قطتها وأيمنها، يحسن خطك، فكان السيد أحمد أخو السيد محمد بصري المذكور، يحدثني أن أخاه السيد محمد كان يأتي ببعض أقلام شيخه، فيريد أن يأخذه منه فيقول له: لا أسمح لك بقلم شيخنا سيدي الطيب البيجري، فحسن الخط مرضى لدى العلما موصي به عند الحكما.

وقد كان عم والدنا ـ أيضاً ـ حسن الخط، وهو أخو جدنا: الفقيه الكاتب البليغ أبو العباس السيد أحمد بن محمد البيجري[1]، ظهر في الكتابة الإنشائية

(1) ذكره الفاسي في «الأعلام بمن عبر . . .» ـ مصدر سابق ـ ضمن وفيات 1073 هـ: «وفي هذه السنة ـ أيضاً ـ توفي الفقيه الأديب أبو العباس أحمد بن محمد بن قاسم البيجري الأندلسي المكناسي، كان نبيهاً فاضلاً، سرياً جليلاً، متقدماً في طلبة مكناسة، ورحل إلى =

بالزاوية الدلائية، لاكن عاجلته المنية، واختطفته كالجنية، فخلف ولداً اسمه عبد الرحمن، قسم له من الطلب الحرمان، إلا أن ولده السيد أحمد[1] كان فقيهاً عدلاً، وله خط حسن يشبه خط جده، ولم يبق من عقب أحمد هذا أحد، وإنما بقي من عقب أخيه محمد بن عبد الرحمن الملقب العربي: ولدٌ اسمه محمد أيضاً، كفلناه يتيماً، فهو مُحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن أحمد بن محمد فتح البيجري، وأنا محمد بن محمد بن عبد السلام بن محمد المذكور، فأنا أعلى منه بطبقة، إذ الملتقى محمد وهو الرابع مني والخامس منه.

ولم يزل هذا البيت البيجري ـ والحمد لله ـ مستوراً بالعلم، موفور الحظ فيه والقسم، فمنهم السابق المجلي، و[منهم] المصلي والمسلي، وأنا أرضى أن أكون الثامن، لأنه وإن تأخر من الميامن، وإذ كانت الأطراف محل التغيير، فلا تعيير، والذنب للأيام، فيصلي قاعداً من عجز عن القيام، آباؤكم خير من أبنائكم، ما من يوم إلا والذي بعده شر منه، كل يوم ترذلون، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وقد كان والدنا ـ رحمه الله ـ يتوسم فينا الخير، دون الغير، إذ كان أخوه السيد حمدون، أعلى مناسنا وهو دون، ودعا لي ـ رحمه الله ـ في تقييد تزيدي بقوله: جعله الله من العلماء العاملين، الخاضعين المتواضعين، حقق الله رجاءه، وتقبل دعاءه، وجعلنا ممن أحب لقاء الله فأحب الله لقاءه، وكان بعض الأولياء إذ رآني في صغري يشير إلي ويقول: هو هذا، فكنت أرجو أن تكون إشارته إلى صلاح، وخير وفلاح.

ختمت القرآن أولاً على الفقيه السيد محمد وانزار التازروتي، وكان أستاذ في القراءة، أخذ عنه السبع جماعة من القراء، وقرأت عليه صدراً من الثانية ففاجأه

= فاس فأخذ عن جماعة من مشيختها، وعمدته الشيخ الإمام أبو محمد عبد القادر الفاسي، حضر عنده دروساً عدة، ولازمه مدة، ثم رجع إلى بلده مكناسة، فتوفي بها، وكان ـ رحمه الله ـ من أهل المشاركة في أنواع من العلوم، والأدب أغلب عليه».

(1) في حوالة أحباس كبرى مكناس 1/111 نسخة من إحدى شهاداته مؤرخة بعام 1150هـ.

عام الخميس، نستعيذ من ذكره والطواسين، بطه ويس، فتفرق أهل المكتب، وذهب الشيخ الفقيه في غير مذهب، ولم نزل نتردد بعده، في مكاتب عدة فلم نحصل على طائل، لذلك الهائل، حتى اشترط لنا والدنا ـ رحمه الله ـ عند الفقيه المجود الحسن الصوت، السيد أحمد الفلالي، الذي كان من الطلبة المصلين التراويح، بمولانا إسماعيل ـ قدس الله روحه ـ آخر حياته، أخبرني ـ رحمه الله ـ أنه رأى النبي ﷺ في المنام فاستقرأه فقرأ عليه طه والله أعلم، فلما أتم القراءة قال له ﷺ: هكذا أنزل، فاستفرغ لي ـ رحمه الله ـ جهده حتى حفظت القرآن عنده وألفية ابن مالك وغيرها من المتون وشيئاً من مختصر الشيخ خليل.

ثم عرض لنا الانتقال إلى فاس كما سبق، وكنت قرأت على والدنا ـ رحمه الله ـ بمكناسة وفاس الجرومية وسلم الأخضري وصُغرى السنوسي، وعلمني أسماء كتب خزانته كلها وأعيانها، فإذا احتاج إلى شيء منها قال لي إيت بالكتاب الفلاني أو بالجزء الفلاني من الكتاب الفلاني فآتيه به: فقهاً أو أصولاً أو بياناً أو كلاماً أو عربية أو لغة أو تفسيراً أو حديثاً أو غير ذلك، وكنت أقف منه موقف الخادم، اسمع مذاكرته مع نجباء الطلبة الذين كانوا يسايلونه ويباحثونه في مسائل العلم، فانتفعت بذلك من بركته، وحصلت قواعد ومسائل من العلم كثيرة، والحمد لله.

ولما كنا بفاس قرأت الجرومية ـ أيضاً ـ على بعض الطلبة، وبينا أنا ذات ليلة بجامع القرويين بين العشاءين سمعت صوتاً دلق، عنانه في الفصاحة منطلق، قد ابتدأ قراءة الألفية بظهر الصومعة، فجذبني حسن التعبير، في التقرير، وجودة التحبير في التحرير، حتى جلست فيمن معه، وإذا هو إمام النحو، المشهور به كالشمس في الصحو، الشيخ الأبر، والأخ الأكبر، لمحشي الزرقاني، : السيد محمد بن الحسن بناني، وكان يوفّي بتوضيح ابن هشام، ويقفي من التصريح وغيره بما هو له كالوشام، وبعد ما قرأت عليه نحو الربع انتقل مرادي، إلى محشي المرادي: الشريف البركة أستاذ القراء أبي زيد سيدي عبد الرحمن المنجرة، فقرأت عليه الربع الثاني، وظهر بذلك من شأني، ما يغيظ الشاني.

ثم اتفق إن رجعنا إلى مكناسة كما سبق، وفي قرب من ذلك الزمان اجتمعت مع أخينا العالم النحرير أبـي العباس ابن عثمان، وتذاكرنا، فتعارفنا وما تناكرنا، وكان يحضر مجلس ألفية ابتدأ قراءتها الشيخ البركة الفقيه، العالم المدرس النفاع: أبو الفتح السيد الغازي ابن عبود، فدعاني إلى الحضور معه، ولا يقال هنا إمعة، فلبيت، وما أبيت، فختمنا تلك المبدوة، ثم صارت بتشفيعها متلوة، وعززنا بلامية الأفعال، فحصلت من العربية المطاوعة والانفعال، وكنت لا أتكلم، وأنا بالمجلس أتعلم، وقد قيل إن في الصمت حسن السمت، فاستعجم بذلك على الشيخ أمري، فقال لابن عثمان، لم لا يتكلم فلان، فأجاب، مقتبساً من الكتاب، بقوله: وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرمر السحاب، وبهذا أجاب الشيخ ابن ناصر الدرعي من سال عن صمت تلميذه أبـي علي اليوسي رحمهما الله، وذلك إنا كنا نجتمع قبل مجيء الشيخ إلى المجلس على مذاكرة، كالمناظرة، وكان معنا أبو الحسن بن صنبه، على مثل تلك الصحبة، فكان كل واحد منا يوري زنده، ويُري ما عنده، فلذلك ابن عثمان اقتبس، وأزال ما التبس، وأراد الشيخ اختباري بعد ذلك ليعتمد الصواب، فوجه إليّ السؤال بعد أن أعيي الحاضرين الجواب، عن مثال يعدد ما مثل به للمصدر المعتل على فعول كالرقى والهوى، فقلت له على البديهة هو كاللقي في قول المختصر: وبلّها قبل لِقي الأذى، فاطمأنت نفسه هنالك. وعلم ما وراء ذلك، وكنا نجتمع بعد الدرس ـ أيضاً ـ للتحصيل، وتحقيق الإجمال والتفصيل، فانتفعنا بذلك والحمد لله، ولم يفتنا إلا ما شاء الله، والكمال لله.

وعند ذلك لاح لنا شعاع الأدب فله حينئذ آثرنا، وعليه تظافرنا، وما تنافرنا، فتدارسنا مقامات الحريري مرات، حتى أدركنا بها المسرات، فحفظت من نخبها خمس عشرة مقامه كلها، ومن البواقي جلها، وحفظت الشعر جميعه، ومن ثم كانت الإنشاءات مطيعه، لأنهم قالوا: من حفظ مقامات الحريري قال الشعر قاعداً أو قائماً، وقيل: للشيخ اليوسي رحمه الله: لِمَ تصحب المقامات، ومعك ما ليس فيها من غريب اللغات، فقال لم أصحبها للغريب، ولاكن لحسن التركيب، ومعلوم ما للفقهاء في قراءتها بالمسجد والعمل على الجواز، قال في صدرها: وإذا

كـان الأعمال بالنيات إلى آخـره، وتدارسنا كتباً أخـرى من الأدب والسير والأخبـار فانطلق بذلك من قلمنا العنان، فأنبأ عن بنان، وأبان عن اكتنان جنان الجنان.

ثم أصابنـا شوق الاغتراب، فأغابنا عن التربة والأتـراب، عملاً بقول الشاعر:

والمرء إن ضاقت عليه جيهة طلب التنقل طائعاً أو كارهاً

إن الضرورة تخرج الأطيار من أعشاشها والوحش من أوكارها.

وعمر بن الأهثم، لم يعتبر هذا الشرط ثم، لأنه لا يقول المكان ضاق، وإنما تضيق عنده الأخلاق، فله قال:

وكل كريم يتقي الدم بالقرى وللخير بين الصالحين طريق
لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ولاكن أخلاق الرجال تضيق

ومما يقوي هذا المذهب ويأتي على وفقه، قوله تعالى: ﴿فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه﴾، وقد أخذه الشاعر فقال:

جل في البلاد تنل عزاً ومكرمة في أي أرض تكن تلقى مناك بها
جل الفوائد في الأسفار مكتسب والله قد قال: فامشوا في مناكبها

والمذاهب في السفر مختلفة، والحق أنه يزيد في المعرفة، وبيت الطغرائي يرد على المخالفين ولو كانوا مائة ألف، حيث استدل فيه على فضل السفر ببرهان الخلف، فقال:

لوكان في سرف المأوى بلوغ منىٰ لم تبرح الشمس يوماً دارة الحمل

وكان اعترابنا بكن التي لا تعصي، إلى سوس الأقصا، فلقينا ببلاد تامسنا الفقيه العالم الأفضل: السيد إبراهيم بن عبد الله المنياري، وجدناه بجامعه يقرأ صغرى السنوسي فشاركناه في بعض الكلام، فلما أراد الانصراف طلب معرفتنا فتعرفنا له فبالغ في الإكرام، وكافيناه على ذلك الإحسان، فأعطيناه التقييد لذي هو أصل مبيضة «فتح الرحمن»، وذكر لنا بعض من لقيناه من الطلبة بأبـي لعوان، في

قرب هذا الزمان: أنه باق عند ولده الفقيه السيد محمد بن إبراهيم في ذلك المكان.

ولما شيّعنا كتب إلى الفقيه العلامة السيد الهاشمي شكالنط الأندلسي ـ من أهل رباط الفتح ـ يوصيه بنا، وكان اشترط له أهل أزمور على قراءة العلم، فأضاف وأحسن الضيافة.

ثم شيعنا وزودنا وأركبنا إلى زاوية القواسم بدكالة، وكتب إلى كبيرهم القيم عليهم بمثل ما كُتب إليه في شأننا.

ولما وصلنا إلى المدينة الكبرى: مراكش الحمرا، أقمنا بها شهراً، يعدل دهراً، في فُرج وانتزاهات، وفرح بنا، ممن وجدناه هناك من أهل بلدنا، على التفاخر والمباهاة.

ثم أرخينا للسير من مراكش عنانه، حتى أطللنا من أبي إباوَنْ على رودانه، وهي مدينة ذات أسوار عالية، وأبراج بها متوالية، اختطها السلطان مولانا محمد الشيخ قرب وادي سوس: النهر الكبير، الذي يقصر عن أوصاف حسنة التعبير، أصله من وزيون، ويستمد شتاء ـ أيضاً ـ من أودية سجتانة، وهو خارج من الأصل المذكور، مار بين جبلين، في وطاء يزيد طوله على اليومين، ويتسع عرضه من أسفل دون اليوم، ويضيق من أعلى فوق الساعتين، وينتهي إلى الساحل، من البحر الهائل، بإزاء حصن المنكب، وهو أكدير أغيل في لسان المعرِّب، تخرج منه سواق كبيرة، مياهها غزيرة، ومنافعها كثيرة، يمر بداخل رودانة ثلاث من تلك السواقي، وهذا مما يهيج لها أشواقي، قد اشتملت ـ بذلك ـ لاتساعها على بساتين، شملت أنواع الأشجار الصيفية والخريفية حتى الرياحين، وبها الحلو والحامض من أنواع الليمون، ويحمل بها الإجاص مرتين في السنة الحمل المضمون، ولا تسل عن كثرة عنبها وجودته، وطول إبانه ومدته، وبها النخيل ذو الأرطاب، والرمان الحلو والسفرجل المستطاب، فقلت:

إلـى رودانـة يشتـاق قلبـي وقـد علقـت محـاسنهـا بلبـي

أقــول لعــاذلــي اقصــر فــانــي علـى شـوقـي لهـا بـاق وحبــي

وكنت قصدتها لاوياً للعنان، ناوياً الرجوع إلى الأوطان، فلما لقيت بها الخليفة الأعظم، والباشا الأفخم، صاحب الهمة العظيمة، والشيمة الكريمة، والسّير المحمودة الحسنا، والأخلاق الممدوحة التي لا يستدرك شيء منها عليه ولا يستثنىٰ، الشجاع المقدام، والكُرام الفال حد الإعدام، أبا المعمر القائد العياشي، بن الفقيه الأستاذ، ومن كان الحمى والملاذ، القائد عبد السلام المالكي الخليفي رحمهما الله، حططت هناك الرحال، وانتقل العزم الأول وحال، لأنه أجلني غاية الإجلال، وأحلني منه نهاية الإحلال، ومع ذلك لم أزل أتنصل وبره يتبعني، وصدره يسعني حتى أتحصل، إلى أن استكملت هناك عنده خمس سنين.

ثم استطلعه إلى حضرته العلية أمير المؤمنين، ولم تكن تلك السنون كلها برودانة أقامه، إذ ليس ذلك في سياسة ذلك الوقت باستقامه، بل كان يتحرك عنها بنحو الست مراحل، تارة إلى سجتانة، ومرة إلى راس الوادي، وأخرى إلى الساحل، ولما طلع إلى حضرة السلطان، استعمله ـ أيضاً ـ بتلك الأوطان، على أهل سوس الحوزية، وعلى أهل الدير بالكلية، إلا ڤدميوه، وما يليها إلى مسفيوة، وأنزله ـ بمراكش دار الباشا عبد الكريم، وهي التي كان بها مولاي بناصر أيام خلافته يقيم، فأقمت معه هناك ـ أيضاً ـ سنتين اثنتين، وبها كنت لسني الغربة مسبِّعاً، حتى كانت الزلزلة ليلة الأربعاء، فنعي إلي سيدي الوالد، من أفديه ـ لولا الموت ـ بالطارف والتالد، وأطارد دونه وأجالد، لاكن ما أحد في الدنيا بخالد، فاسترجعت بعدما انفجعت، واستيقظت مما في اللهو والبطالة هجعت، وإلى بقية أهلي عدت عند ذلك ورجعت.

وقد راسلت سيدي الوالد ـ رحمه الله ـ جواباً لمرسالته ونحن بمراكش، بالرسالة ذات الفصول، التي كان القلم فيها يطول ويصول، وفي بعض فصولها أقول: يا أبت ـ كنت فداك، ولا أشمت عداك، إني من الشوق إليكم كدت أطير بلاجناح، وليس عليّ في ذلك جناح، لولا أن وجدتني مقيداً من هذا الرجل بحسن

المراعاة في جميع الساعات، فإذا انقبضت لا يألو جهداً في مجلبة الانبساط وإذا انبسطت لا يتزين له بدون حضوري بساط، وقد كان غير سامح بوداعي، ول دعا إليه منكم الداعي، فكنت أقابل إحسانه بالشكر، وانتظر من الله تعالى الفر بالصبر، حتى أوردنا الأمر العلي المتحاشي، على حمراء مراكش كما هو المعروف المتفاشي، فأنا اليوم بها أحمد الله تعالى على العافية، وأسأله دوامها متوالية ا متوانية.

فأكرمني ـ رحمه الله ـ بجوابه، وعظمني إذ قال في صدر كتابه: «وصلني كتابك المرونق، الذي هو ببدائع البديع منمق، فسرني خطابك، حتى ظننت أ الأسود تهابك»، وقد كان ـ رحمه الله ـ معجباً بقلمي وفهمي، موجباً لي الخَصا عند تفويق سهمي، ولذلك قال في مراسلته المتقدمة، يستنهض مني الهم المنهدمة، بعدما أخبرني بحاله مع الطلبة على التفصيل والإجمال، فليتك بين القو تضرب باليمين وبالشمال».

وعن هذا المعنى أجبته في فصل من الرسالة بقولي: «وأما قولكم أنه قد فتِ لجمع من الطلبة على أيديكم، فتلك ـ لله الحمد ـ عادة الله فيكم، شتى ما نشرت من العلوم الرقيقة، وكثيراً ما صيرتم البلداء ذوي أفهام دقيقة، وتمنيكم كوني وسط القوم هزّزني كل التهزيز، وما ذلك على الله بعزيز، فالظن فيه سبحانه كما قلت جميل، وهو تعالى المرجو وعلى كرمه التعويل، وإني وإن انغمست يدي في أهوا الدنيا، فإنما انعقد ذلك بيني وبين أمّارتي على الثنيا، وليس غريباً علم الكهول والانتباه عقبى الغفلة والذهول، بل ربما جادت قرائح المتندمين، وأن الله ـ تعالى اذخر لبعض المتأخرين، ما عسر على كثير من المتقدمين» انتهى، وهذه الفقر الأخيرة انتحلتها من تسهيل ابن مالك، ويقال إنها من الحديث، ولا أعرف حقية ذلك.

ولما استقر بي الرجوع، وانتبهت من الهجوع، وجدت العلم قد انقبض بقبض الوالد من بيتنا وانقرض، ولم يكن معي منه حينئذ ما يفي بالغرض، ويؤد الحق المفترض، فعراني من حيرة الفكرة مرض، وتخوفت أن أبقى وأنا لسها

الشامتين غرض، وبينما أنا في ذلك المجال، على تلك الأوجال، لقيت فحلاً من الرجال فشكوت إليه، وقصصت القصة عليه، فقال لي أقرأ كما كان أبوك يقرئي، فزاد كلامه في الإيلام، على ما بـي من الكلام، إذ العدة منع منها المعاند المضادد، والملكة لم تحصل ما به تغتد وتعادد، ولم أشعر وقتئذ أنه البسني سر الإقراء، وأكسبني منه وقرأ فوقرا، بل قلت في نفسي كما يقال في البرية: أشكو إليه العقم، فيقول بارك الله لك في الذرية.

ثم كان من تدارك الألطاف، وتمايل الجوانب منهما إلينا والأعطاف، أن انتهـض للتدريس تلميذ والدنا الأكبـر، الفقيه النبيـه الأشهر، العلامـة الفهامة الدراكة المحقق الأنـور، شيخنا أبو عبد الله سيدي محمد، بن العلامة الصدر الخطيب البليـغ، المدرس المفتي القاضي: أبـي محمد سيدي عبد الوهاب ابن الشيخ، فاتصلت به اتصال الراح بالما، وقبضت عليه ـ كما قيل ـ قبضة الأعمى في الظلما.

حتى قرأ عليه كبرى الشيخ السنوسي، ومختصرة المنطقي، وجمع الجوامع للتاج السبكي، وتلخيص المفتاح للقزويني، ومختصر الشيخ خليل، ولامية الزقاق، وبعض تفسير القرءان العظيم، وشيئاً من صحيح البخاري: قراءة تحقيق، كانت عمل من طب لأخيه الشقيق.

فأمنني الله ـ تعالى ـ بذلك من خوف الشماتة، وأحياني ـ سبحانه ـ بعد الإماتة، حتى آنست اللحوق بأهلي، والرجوع إلى أصلي: كل الإيناس، قال تعالى: ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس﴾، من تفاسير الآية: أو من كان ميتاً بالجهل فأحييناه بالعلم، فللّه الحمد على هذا الإحسان وكل إحسان، وله الشكر الدائم منا بالجنان والأركان واللسان.

وشيخنا هذا ـ رحمه الله ـ أخذ عن والدنا كما تقدم، وعن والده هو أيضاً، وغيرهما، وتخرج على الفقيه العالم النحرير، صاحب الغوص والذوق والتحرير، أبـي[1].

---

(1) إلى هنا يقف الموجود من التقييد، غير أننا نذيل على هذه التعاليق، بالإشارة إلى قصيدة أوردها الأديب عبدالله الناصري في كناشيته المتكررة الذكر، وفيها يتجاوب المؤلف مع =

ملحق 2

ظهير السلطان العلوي مولاي عبد الله بن إسماعيل، بإسناده نقابة عموم الأشراف بالمغرب للشريف الأمغاري محمد بن أبـي زيد عبد الرحمن بن أبـي عبد الله.

كتابنا هذا رعاه الله وأعزه أمره، بيد حامله الأرضي، الأبر المرتضى، الشريف الحسني: محمد بن أبـي زيد عبد الرحمان بن المرحوم يكرم الله تعالى سيدي أبـي عبد الله أمغار الحسني.

يتعرف منه بحول الله وقوته، وشامل يمنه ورعايته، أنا ولياه ـ على بركة الله ـ خطة السادات الأشراف أينما كانوا وحيث ظهروا وبانوا وحلوا. نقيباً عليهم، يبحث فيهم كل البحث، ويتصرف فيهم بأنواع التصرفات كلها، لفقهه وعدالته ودينه ومروءته.

فمن وجد نسبته على المنهج المرعي والقانون الشرعي، أبقاه على ما هو عليه من التوقير والاحترام، والحمل على كاهل المبرة والإكرام، ومن وجده بخلاف الشرعي الكريم أعز الله أمره، فلا تبقى له دعوة.

= قصيدة خاطبه فيها الأديب الناصري موسى بن محمد المكي بن موسى بن محمد بن الشيخ محمد ابن ناصر، ونضيف لذلك فقرة في نفس المصدر عن وفاة المؤلف ومدفنه: «وتوفي الفقيه البيجري هذا ـ فجأة ـ بعد ظهر يوم الخميس، الموفي ثمانية عشر من رجب، سنة 1205، ودفن بمكان الصومعة من ضريح ولي الله تعالى سيدي عبد الله بن حمد بمكناسة الزيتون، تغمده الله برحمته، وأسكنه فسيح جنته، «آمين».

وإلـى الكناشة الناصرية نحيل على كناشة المشاط، خ. ع، ك 3246، وقد احتفظت بمكاتبات من إنشاء المؤلف.

وعليه بتقوى الله العظيم «خرم» في السر والعلانية، وزكاة السادات الأشراف وأعشارهم أعطيناهم له، لأنه أولى «خرم» ذلك، فلا يتعرض له أحد على ما جدنا عليه به، وحسب الواقف عليه يعمل به، والسلام.

في أول رجب «بياض» الفرد، عام إثنين وأربعين ومائة ألف.

الباب السابع

وثائـق

وثيقة عن المهاجرين التلمسانيين بفاس
نشر وتقديم

مقدمة:

عندما احتلت فرنسة بلاد الجزائر، نزح عنها كثير من العائلات مهاجرين لبلاد المغرب، واستوطن أكثرهم مدينة فاس، وفي أوائل «اللسان المعرب»[1] تحدث عن بعض بيوت هؤلاء المهاجرين بفاس: من أشراف وعرب وزناتة، واقتصر على أهل الرئاسة منهم، فذكر بعض بيوتات تلمسان، ومعسكر ونواحيها، ومستغانم، ثم ذكر العرب الحشم وبني عامر.

وقد كون هؤلاء ـ مع الأسر المهاجرة من قبل ـ وحدة في مدينة فاس، التي صاروا يعرفون فيها بأهل تلمسان على طريق التغليب، وصار لأشرافهم نقيب خاص، ومن نافلة القول الحديث عن الخدمات التي قام بها عدد من هؤلاء المهاجرين بالمغرب، في ميادين التأليف والتدريس والإدارة.

وكما يستفاد من الوثيقة المعنية بالأمر، فإنه في أوائل عام 1312هـ/ 1894م حاولت فرنسة جعل هؤلاء المهاجرين من رعيتها، وبسط حمايتها عليهم، فرفض معظمهم هذه المحاولة، وأعلنوا أنهم مغاربة، وحرروا في هذا الصدد الوثيقة[2] التي نقدمها.

---

(1) عند القسم الأول: واسمه الكامل: «اللسان المعرب عن تهافت المعمرين حول المغرب»، تأليف المؤرخ الجليل محمد بن مَحمد السليماني الحسني، يوجد الجزء الأول منه بالمكتبة الملكية بالرباط، رقم 297.

(2) هذه الوثيقة يوجد أصلها في حوزة الأستاذ، السيد عبد الوهاب بنمنصور، وعن هذا الأصل=

وهي مؤرخة في مهل ربيع النبوي، عام 1312هـ 1894م، ومذيلة بشكلي عدلين من نفس المهاجرين، وهما: محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي، ومحمد بن محمد النسب، وفيها يشهد بمضمنها ـ زيادة على العدلين ـ 546 مهاجراً رقمت أسماء جميعهم يمنة هذه الوثيقة حسب العناوين التالية:

- شرفاء تلمسان.
- عوام المهاجرين من تلمسان.
- شرفاء المهاجرين من بني عامر.
- عوامهم.
- من شرفاء غريس وأم عسكر.
- من عوامهم.
- شرفاء مستغانم.
- عوام مستغانم.

والوثيقة محررة بلهجة وطنية إسلامية، في أسلوب يغلب عليه السجع، ومكتوبة في 28 سطراً، عدا أسماء المهاجرين المرقومة يمنة الوثيقة، وخطها مدموج لا بأس به يميل للمغربي، وهو ـ فيما يبدو ـ خط نفس العدل الأول: محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي، العالم المعروف، المتوفي عام 1324هـ/ 1906 ـ 1907م[1].

وستقدم هذه الوثيقة مجردة عن لائحة الأسماء التي توجد في صورتها الفوتوغرافية المذيل بها هذا المقال وهذا نص الوثيقة:

= أخذت الصورة المذيل بها هذا المقال.

(1) له ترجمة في «رياض الجنة» للمؤرخ الشهير عبد الحفيظ الفاسي الفهري، ج 2 ص 6 ـ 8.

مصورة وثيقة المهاجرين التلمسانيين بفاس

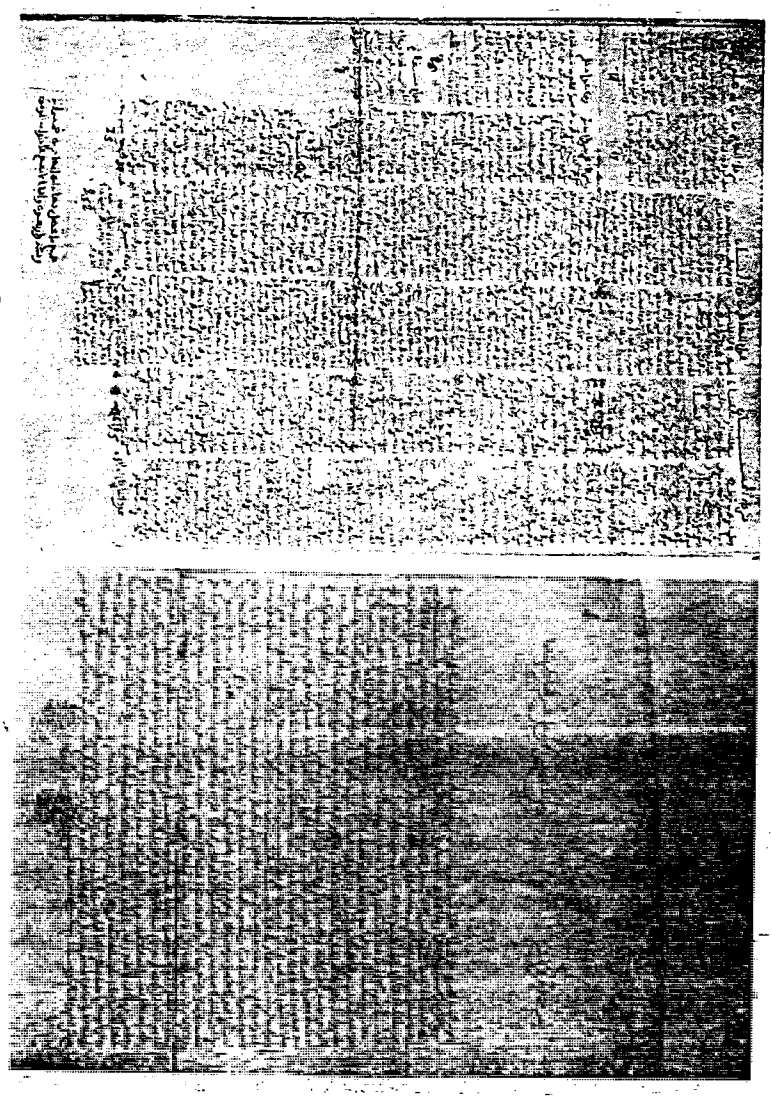

«بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً،

الحمد لله رافع منار الإسلام على كل ملة، خافض درجة الكفر ومن انتمى إليه ببراهين قواطع الأدلة، والصلاة والسلام على من سن الهجرة وفضل المهاجرين، سيدنا محمد خاتم النبيين وإمام المتقين، وعلى آله وأصحابه الذين هاجروا لنصرته فصاروا أئمة يقتدي بهم في كل وقت وحين.

وبعد: فلما قدم لهذه الحاضرة الأدريسية، المحفوفة السنية، بعض النصارى من أيالة الفرانسيس وصار يلتمس دخول المهاجرين بها من الجزائر وتلمسان وعمالتهما في حمايته، ونفوذ حكمه فيهم بمقتضى سيرته، فزع من ذلك أهل المروءة والعقلاء، والعلماء وذوو الرأي والدين والفضلاء، واحتجوا على أنفسهم وإخوانهم بنصوص الشريعة المطهرة، أنه لا يسوغ لمومن رفض بيعة الإسلام والدخول في ولاية الكفرة، فيعد من الناكثين أو المارقين، بعد أن كان في سواد المهاجرين.

وكيف يسوغ الخروج عن هذه الدولة الفائزة على من عداها بمكارم الأخلاق، المتحلية بصفات الكمال في جميع الآفاق، التي زادها الله شرفاً وجاهاً، ورفع منصبها على سائر المناصب وأعلاها على من عالاها، ومدها بالنصر والعدل فزكت وقد أفلح من زكاها، واختار منها أقوم قوم ملأوا بالثناء على سيرتهم الحميدة مسامع وأفواهاً، وتمسكوا للديانة من أسباب تقواها بأقواها، ونزهوا أنفسهم عن نقائص كالليل إذا يغشاها، فظفروا بمناقب فاخرة فإذا هي لطالبها كالنهار إذا جلاها، وقد هاجروا إليها وتركوا من عداها، فأووا برأيهم السديد، إلى ركن شديد، وزهدوا في أموالهم وأهاليهم في سبيل الله، وقطعوا النظر عما ألفوه بأرضهم من نفاذ الأمر وعظيم الجاه، فأبدلهم الله خيراً مما ألفوه، وما أمروا ـ قط ـ من جانب هذه الدولة الفخيمة ـ أدام الله نصرها ـ بأمر تكلفوه، ووجدوا في الأرض مراغماً كثيراً وسعة، حسبما وعدهم مولاهم مع نعيم الجنة، ومن مات منهم فقد وقع أجره على الله، ولا زالوا على ذلك حامدين، منتظرين مصداق قوله تعالى: ﴿لقد تاب الله على النبيء والمهاجرين﴾، ممتثلين قوله ﷺ: من كانت هجرته إلى

الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه، وقوله تعالى: ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾، مجتنبين وعيد قوله تعالى: ﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾، وقوله تعالى: ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله﴾، إلى غير ذلك مما يصح أن يكون دليلاً.

وحيث صغا لقوله بعض الأفراد ممن لا اعتناء له بأمر الدين، وممن لا خبرة له بنصوص العلماء العاملين، وكان مولعاً بحب العاجلة، مصغي «كذا» للأقوال الفاجرة، أراد الأعيان والأشراف وأهل الفضل من خلاصة المهاجرين، أن يمتازوا عنهم بما اختصوا به وسنوه لذريتهم إلى يوم الدين، فأقبلوا أفواجاً يتسارعون، وبكلمة الحق يتشافهون، وأشهدوا على أنفسهم أنهم برءاء ممن دخل في حماية العدو براءة تامة، وقطعوا عنه الوصال والوفاق، لما رأوه من مخالفتهم وعدم استقامتهم فضلاً عن أن يوافقوا على رأيهم الفاسد بالاتفاق، وأنهم منذ قدموا لهذه الحضرة بقصد الهجرة قطعوا التشوف عن وطنهم وعمن استولى عليه، وهاجروا ديارهم وأموالهم وقرابتهم كما أمر الله ابتغاء لمرضاته، واتباعاً لسنة رسوله ﷺ، ولم يبق لهم تعلق بالعدو المتولي على الوطن، وتقلدوا بيعة ملوك الدولة العلوية في عنقهم كما يجب عليهم، لقوله ﷺ: من مات وليست في رقبته بيعة لأحد مات ميتة جاهلية، وقد بايعوا مولانا عبد العزيز كما بايعوا آباءه قبل من لدن هجرتهم ـ أيام السلطان مولانا عبد الرحمن أسكنه الله فسيح الجنان ـ إلى وقته، ودخلوا فيما دخل فيه المسلمون وصاروا رعية من جملة رعيته، وقد عمهم فضله وإحسانه كما فعل بهم آباؤه الكرام رحم الله جميعهم، واقتفى أثرهم ـ نصره الله ـ في الأمر بتوقيرهم واحترامهم، والإحسان إليهم وصلتهم، وزجر من اعتدى عليهم، وعدم تكليفهم بأمر يشق عليهم، ولا التفات لبعض ما يصدر من بعض ولاتهم لتدارك الأمراء بما يرضيهم من ذلك، خلد خلد «كذا» الله ملكهم، وأعلا في سماء السعادة مجدهم، وأدام عزهم ونصرهم، أنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير.

فكان ممن حضر لدى شاهديه ـ شاهداً على نفسه، ومعترفاً ومستلزماً بمضمن ما سطر أعلاه ـ أشخاص الأسماء المرقومة يمنته، الذين أولهم النقيب،

وآخرهم السيد محمد الشرقاوي وولده محمد، المشتملين على خمسمائة وستة وأربعين اسماً، وما عداهم لا يسعهم هذا، وهم بحال كمال الاشهاد عليهم، عارفين قدره، شهد عليهم بما فيه، وعرفهم معرفة عين واسم، في مهل ربيع النبوي الأنور، عام اثني عشر وثلاثمائة وألف.

وبه يشهد على نفسه أيضاً عبيد ربه محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي لطف الله به، بشكله ودعائه، وعبد ربه محمد بن محمد المشرفي وفقه الله».

مجلة «دعوة الحق» س 10. ع 2، 1966

ثلاث رسائل من المغرب إلى ليبيا
تقديم وتحقيق

مقدمة:

يمتاز النصف الأول من القرن الثالث عشر للهجرة بنشاط متزايد للاتصالات وتوطيد العلاقات بين المغرب الأقصى من جهة، وأقطار المغرب العربي والسودان الغربي من جهة أخرى، وقد أسهم السلطان العلوي المولى سليمان بنصيب في تنمية هذا المجال، ومواصلة سيرة أسلافه في هذا الميدان، وأول بادرة منه في هذا الصدد: هي المعونة العسكرية التي قدمها المغرب إلى ليبية ضد حصار مدينة طرابلس من طرف الأسطور الأمريكي.

ففي عام 1217هـ/ 1803م وجهت أمريكا أسطولها الحربي لحصار «طرابلس» التي كانت سفنها تضر بالسفن الأمريكية آنذاك، فهب المغرب لنصرة القطر الشقيق، وسار الأسطور المغربي يسابق الرياح، حيث كانت سفنه خفيفة جامعة بين الشراع والمجاديف، وبهذا كانت قوة سيره مضاعفة، فسبق الأسطول الجزائري، وما كاد الأسطول الأمريكي يصل إلى طرابلس حتى اعترضه الأسطول المغربي فقطعه عنها وأبلى بلاءً حسناً، فلم تمر إلا هنيهة حتى صيره على وجه الماء، ولما بلغ هذا مسامع أمريكا بعثت عمارة أخرى إلى طرابلس ولكن لقيها الأسطول المغربي ثانياً فبدد العمارة الأمريكية[1].

وفي عام 1218هـ/ 1803 ـ 1804م ـ أوفد باي تونس حمودة باشا إلى

(1) من مقال للمؤرخ المغربي المرحوم محمد بن علي الدكالي نشره في جريدة المغرب «عدد ممتاز» رقم 346، السنة الثالثة.

السلطان المولى سليمان سفارة برئاسة الشيخ إبراهيم الرياحي، وكان كتاب السفارة يتضمن طلب الإمداد بالميرة للأمة التونسية التي كانت في مسغبة، وامتدح رئيس السفارة السلطان المغربي بقصيدة مطلعها:

إن عز من خير الأنام مزار فلنا بزورة نجله استبشار

قال في «الاستقصا»[1]: فأعجب السلطان ومن حضر بها، وأمده بمطلبه من الميرة وبهدية جليلة، وآب الشيخ من سفارته بخير مثاب.

وفي عام 1225هـ/ 1810م وفد على نفس السلطان الشيخ عثمان بن منصور التواتي سفيراً عن محمد الباقري أمير آهر بالسودان الغربي، وقد اهتمت الرسالة السودانية ـ التي حملها السفير ـ باطلاع سلطان المغرب على حركة الجهاد القائمة في هذه الجهات ضد الكفار بقيادة الشيخ الإمام عثمان بن محمد بن عثمان بن صالح الفلاني، وقد أجاب السلطان المغربي عن هذه الرسالة بكتابين: بعث بأحدهما للأمير الباقري، وبالثاني للمجاهد الشيخ عثمان، ويتضمن الكتابان تنويهاً حاراً بما يتعاونان عليه من الجهاد، وتشجيعاً لهما على الاستمرار في هذه الخطة الإسلامية، وجاء في أواخر الجواب السليماني للباقري: «ويصلك الطابع الذي بعثت عليه على الوصف الذي أشرت في كتابك إليه»، ويحمل هذا الجواب تاريخ أواسط جمادي الثانية عام 1225 هـ، وهو ـ تقريباً ـ نفس الواقع في جواب الشيخ عثمان، المؤرخ في 18 جمادي الثانية من نفس العام[2].

وفي عام 1226هـ/ 1811م انعقدت مصاهرة بين المولى سليمان وأحد أعيان عرب طرابلس من قبيلة الحنانشة ويعرف بسيف النصر، حيث تزوج السلطان المغربي من كريمة سيف النصر، بعد ما كانت أختها في عصمة السلطان اليزيد، وقد احتفل أمير ليبية يوسف باشا آتي الذكر في وفادة عروس المغرب، ووجه معها

---

(1) ط. دار الكتاب، ج 8 ص 118، وانظر «اتحاف أهل الزمان» لابن أبي الضياف ج 3 ص39، ولا تزال نصوص مراسلات هذه السفارة غير معروفة.

(2) لا تعرف الرسالة السودانية إلا بواسطة الجواب المغربي عنها، وقد ورد الكتابان السليمانيان معاً في «إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور» للسلطان محمد بيلو، طبعة مصورة عام 1951 ـ ص 178 ـ 181.

عشرة من أمراء البحر، واثنين من فقهاء طرابلس برسم مباشرة العقد، وجارية لخدمتها، مع طائفة من الجواري المغنيات العازفات، وكان سفرهم من مرسى طرابلس على طريق البحر، ولما نزلوا بالعرائش كان معهم أثاث كثير للنساء فيه مال جسيم ولباس وفرش: حمولة 130 بغلة بعث بها سلطان المغرب للمرسى المغربية صحبة وفد الاستقبال برئاسة محتسب مكناس العاصمة الحاج الطاهر بادو، وفي 13 شعبان من نفس العام وصلت الأميرة الليبية لفاس فتلقاها جيش الودايا في زي عجيب، واحتفى أبو الربيع بالوفد القادم مع العروس، ووهب لكل من أمراء البحر والفقيهين مالاً جزيلاً، وأهدى لأمير ليبية مركباً بحرياً، ثم شرع في تصميم بناء قصر فاخر بفاس الجديد لسكنى العروس القادمة[1].

ومن مظاهر هذه العلاقات الأخوية في نطاق المغرب العربي، إن المولى سليمان أهدى قطعاً من الأسطول المغربي لكل من الجزائر وليبية حينما اضطر لحل هذا الأسطول عام 1233هـ[2].

وفي عام 1234هـ/ 1818م وقع اعتداء الأسطول الإنكليزي على الجزائر، وفي هذا الصدد ندب نفس السلطان نجله الأمير إبراهيم أن يبعث إلى باي القطر الشقيق كتاب مواساة في هذا الحادث، وكان الذي باشر إنشاءه هو الأديب الشهير أبا حامد العربي الدمناتي من أعيان كتاب البلاط السليمان[3].

* * *

وبعد هذا نقدم ثلاث رسائل صادرة عن السلطان المولى سليمان لأمير ليبية يوسف باشا، الذي صار والياً عليها من أواسط عام 1210 هـ/ 1796م، إلى أن تنازل لأكبر أولاده علي بك أوائل عام 1249هـ، وهو من أسرة آل «قره مانلي» الذين تداولوا ولاية طرابلس وما إليها، وكان آخرهم علي بك آنف الذكر، وقد

---

(1) «تاريخ الضعيف الرباطي» عند حوادث عام 1226هـ، مخطوطة خاصة.

(2) «الاستقصا» ج 8 ص 133.

(3) الكتاب السليماني يوجد بخط منشئه أبي حامد الدمناتي في «كناشته» بالمكتبة الملكية بالرباط رقم 3718، وانظر عن هذا الاعتداء «كتاب الجزائر» للأستاذ أحمد توفيق المدني، الطبعة الأولى ـ ص 42.

استطرد ذكر يوسف باشا هذا محمد بن عبد السلام الناصري في رحلته الصغرى[1]، وأثنى عليه بالحزم والضبط، ونعته بمحبة أهل الدين، وقمع الأشرار المعتدين.

ويلاحظ أن هذه الرسائل ظلت مجهولة فيما وقفت عليه من المصادر المغربية والليبية التي تؤرخ لهذه الفترة، وقد استمرت دفينة في كناشتين اثنتين، حيث وردت الرسالة الأولى أثناء كناشة ـ غير مرقمة ـ للأمير المولى عبد السلام بن السلطان المولى سليمان، الذي أثبتها بخطه وترك بها بياضاً في موضعين: «المكتبة الملكية رقم 4.001»، بينما احتفظ بالثانية، والثالثة الأديب المغربي العربي الدمناتي أوائل كناشته غير المرقمة أيضاً، والمحفوظة بنفس المكتبة تحت رقم 3718، وقد كتبهما ـ معاً ـ بخطه الدقيق المدموج، مع التصريح عند تقديم الرسالة الثانية بأنها من إملائه، ولا شك أن هذا ـ أيضاً ـ شأن الثالثة، حيث تتشابه مع سابقتها في أسلوبها، وتتحد معها في بعض فقراتها.

وتتناول هذه الرسائل تقرير أواصر المودة بين الطرفين، والحديث عن المهاداة، مع إعلان استعداد المغرب لمواصلة العون العسكري مهما اقتضى الحال ذلك، وفي هذا الصدد ورد في الرسالة الثانية: «لا نألوا جهداً في صلة نصركم، وإعزاز أمركم، واتساق سعدكم، وإسعاق قصدكم...»، وتبرز الرسالتان لغاية من قطع هذا الوعد وتقول: «وقصدنا بهذا أن يعلم اعتناؤنا بأمركم، وعملنا على نصركم، واهتمامنا بشأنكم، ليقصر شأو عدوانها، ويتضاءل طائر طغيانها»، وفي هذا تلويح لمحاصرة الأسطول الأمريكي لمدينة طرابلس، وقد سبق ذكر بعض تفاصيل الحادث في صدر هذه المقدمة.

وورد في الرسائل الثلاث ذكر أغراض تطلب ليبية من المغرب إنجازها دون تحديدها، وقد تكون داخلة في نطاق الأسرار التي لا يباح للمراسلات إفشاؤها، اكتفاءً بشرحها مشافهة من طرف القائمين بالسفارة.

---

(1) مخطوطة المكتبة الملكية رقم 121، وانظر عن ترجمته «المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب» تأليف أحمد بك النائب الأنصاري الطرابلسي، نشر مكتبة الفرجاني، طرابلس الغرب ـ ليبيا، ص 328 ـ 354، وانظر عن ترجمة المولى سليمان «الاستقصا» ج 8 ص 86 ـ 174.

وقد كتبت هذه الرسائل بأسلوب حسن، ومتفاوت بالنسبة للرسالة الأولى مع باقي الرسائل، وجميعها غفل من تاريخ صدورها، حيث لم يكن يهم الناقلين لها، ونستطيع أن نتوصل إلى تاريخ تقريبي لزمن كتابتها، وهو الذي استندت إليه في ترتيبها، فقد ورد في الرسالة الأولى: «ولقد جددتم من خالص المحبة القديمة عهوداً.. اقتداءً بأسلافكم الكرام»، ولم ترد هذه الفقرة في الرسالتي التاليتين، فاستنتجنا من هذا أن هذه هي الرسالة الأولى بين الجهتين في العهد السليماني، ثم جاء في الرسالة الثانية التلويح لحصار مدينة طرابلس من طرف الأسطول الأمريكي، وقد عرفنا أن هذا الحصار كان في عام 1217هـ، فتكون هذه الرسالة بعد هذا التاريخ قريباً منه، وتكون الرسالة الأولى قبل هذا التاريخ: بين أواسط عام 1210هـ حيث ابتدأت ولاية الباشا يوسف، إلى عام 1217هـ وهو تاريخ الحصار الأميركي، أما الرسالة الثالثة فقد جاء في أواخرها الاعتذار عن إرسال الميرة إلى ليبية بسبب الغلاء الواقع في المغرب، وشأن هذا الغلاء أن لا يكون في هذه الفترة قبل عام 1226 هـ/ 1811 ـ 1812 م، حيث أخذت الفتن تترادف على المغرب إلى نهاية العهد السليماني[1]، ومن المعروف أن الاضطراب يتبعه ارتفاع الأسعار.

وقد أثبتت نصوص الرسائل كما وردت في مصدريها دون إدخال أي تعديل عليها، بما في ذلك بعض الأعداد التي لم تعرب في الرسالتين الأخيرتين ورسمت بشكل الأرقام المغربية، وهناك بياض وقع في الرسالة الأولى في موضعين، وخرق طرأ على ثلاثة مواضع من الرسالة الثالثة، وقد أثبتت ذلك كما وجد، ونبهت عليه في التعاليق، كما نبهت على بعض عثرات وردت في الرسالة الأولى، والله ـ سبحانه ـ ولي التوفيق.

---

(1) انظر «الاستقصا» ج 8 ص 114 وما بعدها.

نصوص الرسائل

الرسالة الأولى:

(نحمدك اللهم حمداً يطلق الألسنة، ويوقظ القلوب من السنة، ونوالي بالصلاة والسلام على سيد ولد آدم، وعلى آله وأصحابه ما تشرف الأمد بهم وتعاظم، وما جددت الرسائل من عهد تقادم. أما بعد: فهذا جواب من عبد الله المتوكل على الله: سليمان بن محمد بن عبد الله الحسني، أحسن الله عقباه، وشمله لطفه ورحماه، إلى الهمام المقدام المظفر، الشهم الكمي المجاهد الغضنفر، ركن الدولة العثمانية، وحامي حمى الثغور الإسلامية، من ثبتت محبته في جانبنا بالتواتر والإجماع، وأقرت بذلك ضمائرنا فارتفع النزاع، الكفيل بنصر الملة والدين، وزعيم أمراء الموحدين، الحائز قصب السبق بتعظيم آل بيت المصطفى، وكفى بانحياشه إليهم عزاً وشرفاً، القائم بوظائف الجهاد عاماً فعاماً وشهراً فشهراً، أمير الثغر الطرابلسي وما والاه من الأقطار براً وبحراً، السيد الكريم، والخاقان العظيم، أبو يعقوب[1] يوسف بن علي باشا، لا زال عزكم دائم الزيادة لا يبيد ولا يتلاشى، ولا زال ثغر هذا الدهر في وجوهكم[2] باسم، وأرجاؤكم ـ أبداً ـ معطرات النواسم، وأيامكم كلها أعياد ومواسم.

هذا وأنهي لكريم علمكم، وجميل حلمكم ـ مع تحيات تفاوح نسمات الروض المسطور، وتسليمات تصافح أفنان فنون الزهور، ورحمة الله التامة، وبركاته العامة ـ أن قد وصلتنا رسالتكم الرائقة الغراء، فأفصمت[3] أسماعنا حسناً، وأعيننا سحراً، مع ما اشتملت عليه من لطائف الإشارات، ومحاسن الكنايات، كل سطر منها معمور أسراراً، موصل للمحمول له أوطاراً، تبين بدائع ألفاظها عن بيان سحبان، وتفسر[4] بفصاحتها عن إحسان حسان، ولقد جددتم من خالص المحبة القديمة عهوداً، وقلدتم في نحر هذا الدهر منها عقوداً، اقتداءً بأسلافكم الكرام،

---

(1) كذا.
(2) كذا.
(3) تصحيف عن أفعمت.
(4) تصحيف عن تسفر.

الذائدين عن بيضة الإسلام، فهم لكم خير سلف، وأنتم لهم خير خلف، وجوهركم مع جوهرهم في سلك واحد قد انتظم، وعلى منهج العدل القويم، والصراط السوي المستقيم، يسلكه من تأخر منكم ومن تقدم.

فمايك من خير أتوه فإنما تـوارثـه آبـاء آبـائهـم قبـل
وهل ينبت الخطى إلا وشيجه وتغرس إلا في منابتها النخل

ثم طلع علينا صحبة هذا الكتاب المرفع، الذي بفرائد الفوائد مرصع، السيد الجليل..[1] سيدي عبد السلام الأسمر، فاكتحلنا بإثمد منظره عيناً، وشنفنا بمحاسن حديثه أذناً، فلنعلم البريد هو والسفير، وحبذا الصاحب الخبير[2]...

وما وجهتهم ـ بارك الله فيكم ـ من هديتكم فالكل قد وصل، وحل من نظرنا أحسن محل، وما استصغرتموه منها فليس عندنا بمستصغر، بل ذلك أجل ما يقتنى لدينا ويذخر، وما ذكرتم في كتابكم من إقلاع السحاب الغر في هذه السنة عن ذلك القطر، فإنا نتوسل إلى الله بمن يستسقى بوجهه الغمام، عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، أن يخصب لنا ولكم ما بيننا من البطاح والآكام، وأن لا يعدمنا رغد العيش، وسعة الأيام، فإنه أهل لذلك والقادر عليه، وأن لا ملجأ منه إلا إليه، ثم أنزلتموه بساحتنا، ورجوتم قضاءه من جانبنا، فجميع أغراضكم ـ على وفق مرادكم ـ إن شاء الله تقضىٰ، وسفيركم الوافد علينا لا جرم يرضى، وهيهات أن ندع إعانتكم أو نبدي في ذلك عذراً، ولا سيما وقد قطعتم من المهامه الفيح نجداً وغوراً، ومن البحار الطامية لجاجا خضرا، إذ الحر للحر معوان، والمؤمن للمؤمن كالبنيان، لا زالت أعلامكم منشورة، وسيوفكم على أعدائكم مقصورة، ولا برحتم في هناء وسرور، مطمئنين البال في حاضرتكم الشاهقة القصور، آمنين في ظل راحتكم من الأكدار والشرور، ولا زال هذا المجد مخلداً فيكم وفي عقبكم إلى

(1) بياض مقدار ثلاث كلمات تقريباً، ولا شك أن الساقط هنا اسم السفير الذي هو من ذرية الشيخ الشهير سيدي عبد السلام الأسمر دفين زليتن حوز طرابلس، والمتوفى عام 981هـ، ولم أعثر على السفير، وإنما جاء في الرحلة الناصرية الكبرى أن ذرية هذا الشيخ لا تزال بقيد الوجود زمن هذه الرحلة الواقعة عام 1196، حسب مصورة خ.ع، د 2651 ـ لوحة 169.

(2) بياض مقدار 12 كلمة تقريباً.

يوم ينفخ في الصور، آمين، والسلام.

الرسالة الثانية:

(المقام الذي طاب ثناؤه، وطرزت صحف الحمد أنباؤه، واشتهر بالمكارم اعتناؤه، وتعددت مكارمه وآلاؤه، مقام حبنا الذي بره محتوم الوجوب، وحبه مرسوم في أسرار القلوب، ومآثره تشهد بها صفوف المحاريب ومصاف الحروب، ذو المناقب الفاخرة، والمحب الذي نفعه الله بمحبة آل بيت الرسول في الدنيا والآخرة، المرابط المجاهد، والمتحلي بحلى القانت الزاهد، السيد يوسف باشا أبقاه الله وقواعد عزه راسخة راسية، ومعالم فضله عالية سامية، وعناية الله له كالية، وفواضه لديه متواترة متوالية، سلام كريم، ورحمة الله التي لا تبرح ولا تريم.

وبعد: فقد علم وتحرر، ووضح وضوح النهار لمن استبصر، ما عندنا من الود الذي تألق نوره، وثبت في صحف الخلوص مسطوره، وخلصت من الشوائب بحوره، وتحلت بجواهر الصفاء نحوره، فهو على الأيام يخلص خلوص الإبريز، وتصهر حلاه مونقة التطريز، وكيف لا وقد ثبت لدينا من محبتكم إلينا تشيع واضحة مذاهبه، ووداد كريم شاهده وغائبه، وخلوص أشرقت في سماء الصفاء كواكبه، ولم لا ووداكم قد أحكم سلفنا ـ رضي الله عنهم ـ معاقده، وأوضح في مرضاة الله موارده، وأقام على التعاون في سبيله سبحانه قواعده، فهو يتأكد على الأيام ويتجدد، حتى لو استطعنا لا تمر ساعة إلا في مكاتبة بيننا وبينكم تتردد، اعتباطاً بولائكم، وارتباطاً إلى مصافاة إخائكم.

وقد ورد علينا كتابكم على حال اشتياق لوارده، وظمأ لمواردة، حائزاً في ميدان الاعتراف بمحبته آل بيت الرسول مزية التقديم، وأحلى سبب البر الحادث والقديم، مصحباً بالهدية والمقاصد الودادية، وصالح الأدعية المتكملة ـ إن شاء الله ـ بنيل الأمنية، فقابلنا مقاصدكم بالثناء والاستحسان، وشكرنا ما لإخوتكم الفاضلة من المزايا البرة والسجايا الحسان، وحضر بين أيدينا خديمكم الرايس فلان، كتب الله سلامته، ووالى كرامته، فألقينا إليه من شكر مقامكم ما لزم ووجب، وجلونا عليه ما عجز عن إدراكه واحتجب، إذ قدركم عندنا أجل وذكركم بالجميل يملي فلا يمل.

وإلى هذا سدد الله أمركم، ورفع قدركم، فقد تقرر ـ جبلة مطبوعة، وسنة متبوعة ـ أن المهادات تغرس المحبة وتنبتها، وتؤكد المودة وتثبتها، لا سيما إذا وردت على ضمائر أصفى في ذات الله من نطف الغمام، وأصون من درر الأزهار في صدف الأكمام، وقلوب متعاقدة على مرضاة الله والإسلام، ولما قوي العزم والاغتباط، وكنتم ـ رعاكم الله ـ أهل جهاد ورباط، هاديناكم بثمانية أفراس: «4» ذكور ومثلها أناث، جياداً عتاقاً، وجرداً تسبق الصريخ استباقاً، تنظم بها البشرى ـ إن شاء الله ـ عقود، وكيف وقد أخبرنا الصادق المصدوق أن الخير في نواصيها معقود، حبيناكم بإهدائها، وسلكنا بها سبيل الملوك مع أودائها.

وجددنا إليكم هذا الكتاب عقداً لإخاء كمالكم، واستطلاعاً لما يسر ـ إن شاء الله ـ من متزايدات أحوالكم، عملاً على شاكلة الود الكريم، والاعتقاد السليم، والرعي لما سلف من الود القديم، فمن الله نسأل أن يجعله في ذاته، وذريعة إلى مرضاته، وبلادنا لكم ولسلفكم محراب مناجاة، وسوق بضائعكم غير مزجاة، وجهتنا هذه كجهتكم فيما يعرض من الأغراض، والقلب لما تأملون مبتهج وراض، ومقامكم لدينا بالتعظيم مخصوص، ومحكم حبكم لآل البيت في كتاب قلوبنا منصوص، لا نالوا جهداً في صلة نصركم، وإعزاز أمركم، واتساق سعدكم، وإسعاف فصدكم، وقصدنا بهذا أن يعلم اعتناؤنا بأمركم، وعملنا على نصركم، واهتمامنا بشأنكم، ليقصر شأو عدوانها، ويتضاءل طائر طغيانها[1]، والله ـ سبحانه ـ يصل لنا ولكم عوارف آلائه، ويحملنا من مرضاته علماً يضاعف مواهب نعمائه، ويحسن الظن فيكم من الدفاع عن دينه وجهاد أعدائه، والقيام بسنن الجلة من خلفائه، وهو ـ سبحانه ـ يحفظكم في كل الأحوال، ويسدل عليكم عصمته الوارفة الظلال، ويطلعنا من أنبائكم على ما يبهج النفوس ويشرح الصدور، ويمهد الجهات ويصلح الأمور.

الرسالة الثالثة:

الحب الذي طاب ثناؤه، وطرزت صحف الإخاء أنباؤه، واشتهر بحب على

---

(1) الضمير في هذه الجملة وسابقتها يشير إلى دولة أمريكا التي قامت بحصار مدينة طرابلس على ما تكرر ذكره في المقدمة.

جنابنا اعتناؤه، وتعددت مكارمه وآلاؤه، والأخ الذي بره محتوم الوجوب، وحبه مرسوم في أسرار القلوب، ومآثره تشهد بها صفوف المحاريب ومصاف الحروب، المرابط المجاهد، والفاضل الماهد، السيد يوسف باشا، وصل الله علاءه، ونشر بالنصر على أعداء الله لواءه، سلام كريم بر عميم، ورحمة الله التي لا تبرح ولا تريم.

وبعد فإنه ورد علينا كتابكم فاستجلينا منه حلة بيان رقمتها البراعة، وروضة إحسان سقتها بنان اليراعة، ولجة ود للسان فيها سبح طويل، ومحجة فضل للأقلام فيها نص وذميل، ناطقاً بلسان الفضل الذي إملاؤكم معدن نضاره، ومطلع أنواره، جارياً في ميدان البر إلى أقصى مضماره، عرفتمونا فيه بما أنتم عليه من صلاح الأمور، فأنتج انشراح الصدور، وعرفتمونا بمقتضى ما لكم في علي جنابنا من الحب الذي مضاربه إن شاء الله لا تفل، وعراه الوثيقة لا تفصم ولا تحل، وصل الله أسباب ودكم، وشكر وفي عهدكم، ونحن إن ذهبنا إلى تقرير ما عندنا من حبكم الذي آياته محكمة، ومقدماته مسلمه، فلا يعترض منها رسم، ولا ينازع فيها والحمد لله خصم، لم يتسع نطاق النطق لأداء معلومها، ولا وفي المكتوب ببعض مكتومها، حتى لو استطعنا لا تمر ساعة إلا عن مكاتبة بيننا وبينكم تتردد، وذمام كريم يتأكد، اغتباطاً بولائكم، وارتباطاً إلى مصافات إخائكم، ومن المعلوم أن القلوب ينبىء بعضها بعضاً بما تجن، والنفوس تجنح إلى أشكالها وتحن، جعله الله في ذاته وداً وثيقاً، وينهج إلى ما يرضيه طريقاً، وقد حضر لدينا خديمكم الرايس عمورة يسر الله مرامه، وجعل الفتح خلفه وأمامه، ووصل ما وجهتم لحضرتنا العلية صحبته من الهدية كثر الله خيركم، وتولى شكركم، والهدية وإن كانت سنة ماضية، وشريعة بازدياد الود آذنة وقاضية، فلدينا من كريم الإخاء ما لا يحتاج لتأكيد ولا تكرير وترديد، والله على كل هذا رقيب وشهيد، ونحن وإن ثبت لدينا من إخائكم ما قرره الحب وسنه، فلا غرو في الاستنان بخصال الشريعة والسنة، فيصلكم منا 3 أفراس: 2 لركوبك إن شاء الله، وواحد لنجلكم السيد علي أثمر الله غرسه، وزكى ذاته ونفسه.

وقصارى الأمر ومنتهى المرام، أن نكون[1] مضمون قوله عليه السلام: 7 يظلهم الله بظله ويدخلهم تحت كنف كرمه وفضله، ولم نأل جهداً في إعانة خديمكم الرايس، والشاوس في مامو[2] جنابكم بعون الله، ملحوظ في كل ما تريدون من إعانة في جهاد، أو التماس إرفاد، اللهم إلا ما كان من أمر الميرة فما أخالكم تخفى عليكم أحوال هذا القطر مما به من الغلا وارتفاع الأسعار. فلو فتحنا باباً على الخلق، لاتسع الخرق، ولكمال ودكم تقبلون المعاذير وتراعون[3].

والمقادير، ونحن إن شاء الله على ما يجب لإخوتكم من التعظيم والإجلال، والثناء بما لكم من الشيم الكريمة والخلال، وهو سبحانه يبلغ الجميع من مرضاته غاية الآمال، فهو ولي الإجابة وملجأ السؤال.

مجلة «دعوة الحق» س 12. ع 4 1969

(1) موضع البياض خرق طرأ على الأصل.
(2) خرق في الأصل.
(3) خرق.

أربع وثائق علوية
ضد بدع الشورة والأفراح

مقدمة:

ترجع عادة التغالي في تشوير البيت إلى شبه جزيرة الأندلس، ويصعد تاريخها إلى النصف الثاني من المائة الرابعة للهجرة، حيث تكاثرت السبايا من الإسبانيات بعد غزوات المنصور بن أبـي عامر للمعاقل المسيحية، مما أفضى إلى انخفاض في أثمان الأسيرات، وصار رخص أثمانهن يجذب الشبان للتزويج بهن، وقد كان هذا حافزاً للآباء إلى التغالي فيما يجهزون به بناتهم من الثياب والحلي وحتى الديار ليرغبوا في تزويجهن[1]، ثم استمرت هذه الحالة ـ من بعد ـ بالأندلس، ومنها دخلت إلى المغرب.

والغالب أن هذه الظاهرة كانت قد ازدهرت بالمغرب أيام الموحدين، وبالضبط على عهد يعقوب المنصور، حيث جاء في ترجمته[2] أثناء كلام:

«.. ثم أمر بقطع لباس الغالي من الحرير، والاجتزاء منه بالرسم الرقيق الصغير، ومنع النساء من الطرز الحفيل، وأمر بالاكتفاء منه بالساذج القليل، وأمر بإخراج ما كان في المخازن من ضروب ثياب الحرير والديباج المذهب، فبيعت من ذخائر لا تحصى، بأثمان لم توف ولم تستقص». وهكذا يمكن أن نتبين من هذ النص فترة استفحال هذه العادة بالمغرب، دون أن يعرف ـ بالتدقيق ـ مبادئ ظهورها، وقد تعود إلى عصر حكم العامريين بالمغرب أيام مغراوة.

---

(1) «العجب، في تلخيص أخبار المغرب»، «مطبعة السعادة» بمصر ـ ص 24.

(2) «البيان المغرب» لابن عذاري، القسم الموحدي، ط. تطوان ـ ج 3 ص 145.

وبعد هذا ننتقل إلى عصر الوثائق الأربع التي تقدمها هذه الدراسة، ونسجل أنها جاءت عقب الغزو الإسباني لتطوان. عام 1276هـ/ 1860م، حيث واجهت الحكومة المغربية أزمة مالية خانقة[1]، ومن جهة أخرى كان من أثر هذه النكسة انفتاح البلاد أمام الأجانب، فتقدمت تجارة المغرب مع أوروبا ومع فرنسا بالخصوص، مما جعل الثروة تتدفق على طبقات من التجار المغاربة، فاتخذوا ـ حسب الناصري[2] ـ المراكب الفارهة، والكسى الرفيعة، والذخائر النفيسة، لا سيما بمدينتي فاس والرباط.

وقد بدا أثر هذا الترف واضحاً في تصاعد عادات الأفراح في بعض المدن المغربية، حتى خرجت عن الحد المتعارف في الشورة واللباس وملحقاتهما، مما جعل البون شاسعاً بين طبقات الفقراء وطبقات الأغنياء، زيادة على أن هذه ظاهرة شذ فيها المغرب عن الشرق والغرب، وهذا ما يشهد به أبو إسحاق التادلي[3] ويقول خلال كلام:

«... نعم: الداهية العظمى لأهل المغرب ـ خصوصاً أهل فاس والرباط ـ كثرة الملابس والفرش التي لا توجد لأهل المشرق ولا النصارى، وأمرهم في ازدياد إلى أن يتدارك الله الفقراء بألطافه الخفية».

ولا ننسى ـ بعد هذا ـ أن عاهل المغرب في هذه الفترة هو السلطان العلوي محمد الرابع، ومن المعروف عنه أنه كان يسعى لإدخال إصلاحات تقدمية على الحالة بالمغرب[4]، وانضاف لهذا الاعتبار واقع الأزمة المالية التي يعانيها الجهاز الحكومي، فكان هذا وذاك هو الذي حفز نفس السلطان للقيام بمبادرة صارمة ضد

---

(1) عن مظاهر هذه الأزمة يرجع إلى: جرمان عياش: «جوانب من الأزمة المالية بالمغرب بعد الغزو الإسباني سنة 1860»، المطبعة المغربية روايال، 1959 ـ الرباط.

(2) «الاستقصا» ط. دار الكتاب، الدار البيضاء ـ ج 9 ص 124.

(3) «أغاني السقا ومغاني الموسيقى» مخطوطة خاصة ـ عند أوائل الباب السابع.

(4) مظاهر يقظة المغرب الحديث في الميدان التعليمي، مجلة البحث العلمي، العدد التاسع، السنة الثالثة ـ ص 95.

بدع الأفراح في الفرش واللباس وتوابعهما، وهذا ما تحتفظ به الوثائق التم
سنعرضها، وهي تختص بمدينة فاس، حيث كان حاكمها آنذاك هو الحا
إدريس بن الحاج عبد الرحمن السراج الأندلسي.

وقد أصدر له السلطان العلوي أمراً من ثلاث نقط:

(أ) أن يجعل حداً للعادات التي تفاحشت بمدينة فاس، وظهرت ف
التغالي في الفراش واللباس بمناسبة الأفراح.

(ب) أن يحد للماشطات «النكافات» حداً في علو فراش الولائم وفي لباس
العرائس.

(ج) أن يحد للمغنيات من النساء حداً في لباسهن وشغلهن.

وبادر حاكم فاس إلى تنفيذ التعليمات الملكية، وسجل نشاطه ـ في ها
الصدد ـ في أربعة نصوص:

النص الأول: بمثابة مدخل للوثائق بعده، حيث يلخص الأمر الملكي حسب
النقط الثلاثة الآنفة الذكر.

الثاني: وثيقة عدلية تتضمن الأشهاد باتفاق ممثلي الرأي العام آنذاك عل
تحديد الفراش واللباس بمناسبة الأفراح. وتحديد أيام حفلات الأعراس، م
تحديد عدد الماشطات في الولائم، وتحمل هذه الوثيقة تاريخ 10 جمادي الثانية
عام 1278 هـ/ 1861م، وبعده امضاءات من ستة عدول، يليها إثبات القاضي.

الثالث: وثيقة عدلية تشهد على الماشطات والمغنيات بالتزامهن تحد
ظروف أشغالهن ولباسهن، بتاريخ أواسط جمادى الثانية عام 1278هـ/ 1861م
وبعده امضاءان عدليان يليهما إثبات القاضي.

الرابع: ظهير صادر عن نفس السلطان بالمصادقة على ما وقع عليه الاتفا
في الوثيقتين العدليتين بالنص الثاني والثالث، ويحمل تاريخ 18 جمادى الثانية ع
1278هـ/ 1861م.

ومن حسن الحظ أن السلطان المنوه به أمر بتسجيل النصوص الأربعة ف

إحدى حوالات القرويين وهي الحوالة السلمانية[1]، وبهذا أمكننا أن نطلع على نسخ هذه الوثائق التي حافظت على هذه المبادرة الاجتماعية، وانفردت بالكشف عنها دون أن يتحدث عنها أي مصدر آخر معروف.

* * *

وقبل تقديم هذه الوثائق نقف قليلاً لنرى أن أفكارها ـ كلاً أو بعضاً ـ تكرر بعثها من جديد في مناسبات تالية، وفي مدينة فاس أكثر، حيث كانت هذه المبتدعات تخمل قليلاً لتعود للظهور في شكل أعنف من السابق، وهنا يقع تجديد الالتزامات، وحصر الممنوعات من المبتدعات القديمة والحديثة في الشورة والأفراح.

وهكذا تأتي المناسبة الأولى عام 1323هـ/ 1905م أواخر أيام السلطان المولى عبد العزيز، حيث وقع الاشهاد على 12 مغنية بفاس[2]، بتحديد سلوكهن ولباسهن، حسب وثيقة عدلية مؤرخة في 3 ربيع الثاني من نفس العام[3].

وفي عام 1336هـ/ 1917م تبنى أعضاء المجلس البلدي بفاس ومعهم جمهور أعيان المدينة حركة جديدة ضد بدع الأفراح، وجددوا الأشهاد على الماشطات والمغنيات، كما أوقعوا الإشهاد على الحجامين وغيرهم مما يحدد سلوك كل فريق في هذا الصدد، وضمنوا ذلك في وثيقة عدلية مؤرخة في 1 محرم عام 1336هـ/ 1917م، وبهذه المناسبة صدر ظهير عن السلطان المولى يوسف،

---

(1) ص 315 ـ 316، حسب الشريط المحفوظ بالخزانة العامة بالرباط رقم 114.

(2) جاء في هامش الوثيقة تقديم أسمائهن هكذا:

جماعة الشيخات:

1 ـ الحاجة زينب. 2 ـ الحاجة عائشة الحجوية. 3 ـ محجوبة. 4 ـ زينب المكناسية. 5 ـ فاطمة علال. 6 ـ خديجة السبتية. 7 ـ مباركة بنت علال. 8 ـ الباتول. 9 ـ فاطمة البكارية. 10 ـ زهراء المكناسية. 11 ـ بريكة المراكشية 12 ـ حبيبة المكناسية.

(3) ورد نص هذه الوثيقة في الحوالة السليمانية الآنفة الذكر، حسب الشريط المحفوظ بالخزانة العامة بالرباط رقم 114 ـ ص 314.

يجدد به مقتضيات ظهير السلطان محمد الرابع المتكرر الذكر، ويصادق على ما وقع عليه اتفاق مدينة فاس، بتاريخ متم ربيع النبوي عام 1336هـ[1] / 1918م.

وفي عام 1345هـ/ 1926م أثيرت القضية من جديد بنفس المدنية، وبالإضافة إلى بدع الأفراح طرحت بدع المآتم والكهان والعرافين وغيرهم، ووضعت في هذا الصدد عدة محاضر كتبت مقرراتها بلهجة قوية، والتزم بها مختلف الطبقات الذين تصنفهم الوثائق في العلماء والأشراف والأعيان والتجار والمعتامرين في الأسواق والصناع، في أعداد ضخمة تتجاوز سبعمائة من سكان فاس العتيق والجديد، وقد دونت وثائق هذه المبادرة في مجموعة مخطوطة يعرف منها ـ الآن ـ نسختان: إحداهما خاصة، والثانية بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ك 3031.

وأخيراً، كان صدور ظهير جلالة المغفور له محمد الخامس لتحديد ما يلزم الاقتصار عليه في الشورة والأفراح بالنسبة لمجموع المغرب، ويحمل تاريخ 16 رجب عام 1361هـ/ 1942م.

* * *

وبعد هذا يصل بنا المطاف إلى تقديم الوثائق الأربعة المعنية بالأمر، وهي ـ بعد الجانب الموضوعي منها ـ ترسم بعض الصور الاجتماعية بالنسبة لمدينة فاس في هذا العصر، فتذكر ملامح من الترف الفاسي في فراش البيوت ولباس العرائس والمدعوات للأفراح، كما تفسر عادات الماشطات في الولائم، وتقدم لوائح للرجال تمثل ـ على العموم ـ النخبة الاقتصادية في نفس المدينة والعصر، ثم تقدم ـ مرة أخرى ـ لوائح للنساء تحتفظ بأسماء عريفات المطربات.

والوثائق ـ كما علمنا ـ منتسخة في حوالة القرويين السليمانية، وهي مكتوبة بأسلوب يغلب عليه الوضوح والسجع، وخطها مغربي مليح مجوهر، يتخلله قليل من التصحيف والحذف من بعض تعبيراته، وقد عملت على الإشارة لذلك جهد الإمكان.

---

(1) نص الظهير اليوسفي عند ابن زيدان في الدرر الفاخرة ـ ص 130 ـ 133.

والآن ها هو نص الوثائق الأربعة كما وردت في مصدرها المتكرر الذكر.

الحمد لله، لما ورد أمر مولانا المنصور بالله أيد الله مقامه، ونصر أعلامه، ويسر مرامه، على عامله الرئيس الأسعد، الذي سعدت بولايته هذه الحضرة، واستضاءت بسعادة طلعته إضاءة القمر في غسق الداج، الطالب سيدي الحاج إدريس السراج، بأن ينهي ويزجر أهل هذه الحضرة عما ارتكبوا من البدع والمنكرات، واستنوا من العوائد والتفاخر والمباهاة، وجعلوه عرفاً معروفاً، وصنيعاً مألوفاً، في التطاول في الفرش في الأعراس والولائم، والبسط الفاخرة، والستور الباهرة، وتظاهر القوي على الضعيف، وتفاخر الغني على الشريف، في الملابس للعرائس، واتخاذ الحلي والحلل والتكاثر من ذلك، مما لا يقره شرع ولا طبع، وإن جرت به العادة فالمقر من العوائد ما وافق الشرع، ولم يؤد إلى منكر ولا هتك حرمة مسلم ضعيف، في تكلفه ما لا يطيق تشبيهاً بالقوي عليه وبالشريف.

وأن يحد للماشطات حداً في علو الفراش للأعراس والولائم، واللباس للعرائس بحيث يقع التساوي في ذلك بين القوي والضعيف، والمشروف والشريف، حتى لا يتطاول غني على فقير، ولا كبير قدر على حقير.

وكذلك يحد للمسمعات والطبالات من النساء هذا في لباسهن وشغلهن وغير ذلك.

ففعل الرئيس المذكور ـ أرشده الله وأعانه ـ ما أمر به، وشهد على الماشطات وأعيان هذه الحضرة من الشرفاء والتجار وغيرهم، بالتزامهم الوقوف عندما حد لهم الذي سيذكر ويفسر بالرسم أسفله، حتى يسهل تعاطي الأمر المحدود على الضعيف كما يسهل على القوي، ومن زاد على ذلك أو تعداه فتلزمه العقوبة ولا يلم إلا نفسه.

وحيث امتثل الرئيس المذكور الأمر المولوي المذكور، وحد لكل طائفة ولكل أحد من غني أو فقير الحد المذكور، اعلم به مولانا المنصور بالله فاستحسن ـ أيده الله ـ رأيه وما فعل، وأمره أن يكتب الأشهاد بذلك بحوالة القرويين، ليبقي ذلك حجة على من يريد نقضه والعمل بخلافه إلى أبد الآبدين.

نص الرسم الأول المتضمن لإشهاد ما ذكر وخطاب من يجب سدده الله وحفظه عليه: الحمد لله الذي أقام بالخلافة دينه القويم، وهدى بأنجمها الزواهر إلى صراطه المستقيم، وحسم بحسام الشريعة المحمدية مادة العوائد الحادثة والبدع الردية، نحمده على ما إليه هدانا، ونشكره على ما أرشدنا إليه من هدانا، ونشهد أنه الله الذي يسر المؤمنين لليسرى، وشرح صدورهم لما به صلاح هذه الدار والأخرى، ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي أوضح لامته ما تتحلى به وتعمله الجوارح وتكنه الصدور، وأنزل الله عليه قوله تعالى: ﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وءاتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾، وقال فيما رواه الحاكم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ «تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وسنتي، ولن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض» وقال عليه السلام بعد ما بين لنا السنة من الفرض ـ حسبما رواه الإمام أحمد عن غضيف بن الحارث «ما أحدث قوم بدعة إلا رفع مثلها من السنة» صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين مهدوا قواعد الدين وأوضحوا سبل الجنة.

وبعد: فمن المقرر المعلوم، لدى الخاصة والعموم، أن هؤلاء الماشطات اللواتي صرن بهذه الحضرة في رفعة وهن ساقطات، إذ لا غني عنهن لمن كانت له وليمة أو ما في حكمها، لقيامهن بقواعدها وعملها، لكنهن قد تجاوزن الحد المحدود، وما ورثه من العرف الآباء عن الجدود، من اتباع السلف، وما كانوا عليه من لزوم السنة أو مقاربتها فيما سلف، وزيّن للنساء وجوه المباهات، وتزيّن بما لا يحمد ولا يرضى في جميع الحالات، حتى خرجن إلى حد الاعتساف، وما به يقع الاختلاف، وتقالين في النفائس المحدثات، وتغالين في البدع المستشنعات، فأتعبن بها الضعيف، والمشروف في منافسة الشريف، والناس كلهم يرون ذلك بالعيان، لا يغيرون ولا ينكرون: القادر والعاجز فيه سيان، إلى ما لا حد له من فسوق المناكر، وما ينزل عنه أقلام الألسنة والمحابر، ويشهد بذلك كل من يضع أثر تاريخه شكله، وكل حضري يقر بذلك ويعرف صورته وشكله، والكل عاجز عن ذلك لعدم تمكينه وخشية العتاب، حتى يبلغ الشوق منتهاه ولكل أجل كتاب.

ولما أنهي لعلم مولانا أمير المؤمنين، وخليفة رب العالمين، المجاهد في

سبيل الله، أدام الله نصره وعلاه، أمر ما عليه من ذكر، وما ابتدعنه مما جهل وأنكر، وإن أمرهن ما زال في الزيادة، وقصارى همتهن فيما زاد على العادة، وقد قال عليه الصلاة والسلام ـ فيما رواه الطبراني عن الحكم بن عمير ـ: الأمر المفضع، والحمل المضلع، والشر الذي لا ينقطع، إظهار البدع، حتى بلغه أيده الله أن بعضها[1] جعل في ستر بيت بعض الأعراس، حلياً زيادة على ما يراه الناس، وإن تلك الأفعال كلها من المحدثات، التي يخشى على متتبعهن الهلاك والشتات، أمر أيده الله عامله الأسعد، الطالب الوجيه الأرشد، الزكي الضابط الحازم، القائم على ساق الجد بالأمر اللازم، أبا الفضل سيدي إدريس السراج، سلك الله به أحسن طريق وأقوم منهاج، بحسم تلك المادة الشنيعة، والبدعة الدنية الوضيعة، بما يظهر له من الرأي السديد، والنظر السالم والباع القوي المديد.

فأحضر ـ أعانه الله ـ من شرفاء المدينة وأعيانها وتجارها، من ذكر بالطرة يمنته من أولها إلى آخرها[2]، وفاوضهم فيما ذكر وسطر كله، فحمدوا الله على

---

(1) كذا في الموضعين.

(2) ورد في هامش الوثيقة تقديم أسمائهم في لائحة مطولة كما يلي:

1 ـ الشريف سيدي محمد بن ناصر الإدريسي. 2 ـ الشريف سيدي أحمد العمراني. 3 ـ الشريف سيدي جعفر العمراني. 4 ـ الشريف الناظر سيدي محمد بو عنان. 5 ـ المقدم الحاج محمد الرامي. 6 ـ الناظر الحاج عبد القادر بناني. 7 ـ الناظر الحاج المعطي صفيرة. 8 ـ المسن الطالب سيدي محمد الطرنباطي. 9 ـ الفقيه السيد علال ابن جلون. 10 ـ الطالب سيدي محمد المشاط. 11 ـ الطالب سيدي محمد الشامي. 12 ـ المسن الحاج أحمد المزوري. 13 ـ المسن سيدي محمد الندلسي. 14 ـ الطالب سيدي محمد الجزولي. 15 ـ السيد الحبيب ابن مجلون. 16 ـ الحاج التهامي جسوس. 17 ـ الأمين الحاج محمد بن المدني بنيس. 18 ـ الأمين السيد عبد النبي ابن جاون. 19 ـ التاجر الحاج عبد الله مكوار. 20 ـ التاجر الحاج أحمد بن الطيب برادة. 21 ـ التاجر الحاج عبد الكريم بناني. 22 ـ التاجر الحاج عبد السلام جسوس. 23 ـ التاجر الحاج إدريس بن محمد بنيس. 24 ـ التاجر الحاج محمد بن الطيب التازي. 25 ـ التاجر الحاج محمد بن عبد الوهاب بنيس. 26 ـ التاجر الحاج عبد السلام العاجي. 27 ـ التاجر الشريف مولاي علي السليماني. 28 ـ التاجر الأمين الحاج المكي ابن يحيى. 29 ـ الأمين الحاج محمد بن التهامي التازي. 30 ـ الأمين الحاج التهامي بناني. 31 ـ التاجر الحاج الحارثي بن العيساوي برادة. 32 ـ الحاج العربي بن محمد بنيس. 33 ـ التاجر الحاج محمد بن عبد=

الهامه مولانا لذلك، وفرحوا له ومن أجله، وقالوا هذا الذي كنا نطلبه ونتمناه، ولو أعملنا فيه جهدنا ـ بدو أمر مولانا ـ ما نلناه، والآن: أما وجود الماشطات فلا بد منه وقد كن فيما فات، ولكن يجعل لذلك حد لا يجاوزه من غني وفقير أحد، وقانون ينتهي عنده المفرد والعدد.

ثم وقع اتفاقهم على أن يكون فراش وليمة العرس والعقيقة والختان علوه من الأرض لمنتهاه ـ بالذراع السوسي ـ[1] ذراعان اثنان، وبذلك نطعة[2] ولماطات ثلاث، وفي كل جهة منه مخدتان مثنيتان، وفوقهما واحدة بمحرمة وأخرى نشير[3] بما لهم من اللفات[4]، وأسفل الصدر خديتان من الحرير وما زاد[5]، ورواقان[6] من خالص الحرير[7] لا يزاد، وعلى باب البيت خامية من الشرب[8] واحدة دون كلة، وبما ذكر تسمي النسوة ذلك كله، وهذا فراش كل قوي وضعيف، ومشروف وشريف، في خصوص ما ذكر من الأعراس والختان والعقائق، التي تتشبه فيها الأنواع مع اختلاف الحقائق.

وإن إبراز العروس للجلوة لا يزاد فيه على سبعة أيام، ويوم الغسيل لا

= الكريم آمرون. 34 ـ الأمين سيدي محمد مرين الرباطي. 35 ـ الحاج عبد القادر السراج. 36 ـ المسن الحاج محمد الجرندي.

(1) تقدر بـ 55 س. م حسب الفريد بيل في الجريدة الآسيوية عدد مارس ـ إبريل سنة 1917م، وهي التي كانت متداولة بالمغرب في قياس المنسوجات الحريرية والقطنية قبل استخدام القياس المتري، والغالب أن وصف هذه القالة بالسوسية جاء من ظهورها أيام السعديين تعديلاً للقالة العنانية أيام المرينيين.

(2) النطع بساط من الجلد، واستعملت النطعة هنا للبسط المتعارفة التي توضع فوق الفراش.

(3) المحرمة والنشير نوعان من المطرزات الفاسية القديمة.

(4) تعبير عن أغشية الوسائد.

(5) كأنّ المقصود به نوع من الوسائد الحضرية كان يعرف بالمزود، ويقال فيه ـ أيضاً ـ مزاد بالفصحى لكن دون ألف بعد الميم.

(6) ازاران يعلقان على ركني البيت ليسترا ما خلفهما.

(7) موضع البياض كلمة لا تقرأ.

(8) هناك الشربية للخمار المنسوج من الحرير، وقد تكون منسوبة للشرب الوارد في النص فيكون ـ بدوره ـ من الحرير.

يلبسنها أكثر من ثلاث حلل رفقاً بضعفاء الأنام، ولا يجمع للثيب بين حنش وتاج[1]، ولا يزدن على مجموعهما للبكر استغنى وليها أو التاج، ولا يجعلن لها في أيام العرس عصابة، ولا في عنقها أكثر من ثلاث قلائد من الجوهر ولبة، وتلبس في غير أيام العرس ما شاء زوجها وأحبه.

ولا يجعل أحد كلفة تنقيل[2] ولا دفع الصداق، ولا يرفع طيفور المنادل، ولا عتيدة الخرق[3]، ولا بما يدعونه الطبق والمبزرة للولادة[4].

ولا تأتي الماشطة للوليمة ومعها فوق خمس من المتعلمات زيادة، ولا تكون بالولائم امرأة حاضرة بجوهر والحائك من حرير ونحوه من اللباس، وإن كانت بدارها بغير العرس وما ذكر معه فلا بأس.

وبعدما وقع اتفاق من حضر على ما ذكر مع أن كون النسوة المتفرجات، من أبدع الفواحش والمناكر البينات، وأمر العامل المذكور، عرفاء الحوم بالزجر على من خرجت لذلك كغيره من مناكر الأمور، حضر لذلك عريفة الماشطات السيدة حبيبة الچرينية والحاجة هيبكّي جنانة والحاجة سترة جلّونة وغيرهن بمن لهن من الاتباع، وعرض عليهن ما وقع عليه ممن حضر الإجماع، فقبلن ذلك والتزمن القيام به والوقوف عند حده كل الالتزام، وتعاهدن وتعاقدن على أن لا يكون لهن على غيره إقدام، ومن تعدت حداً من تلك الحدود، فقد عرضت نفسها لأنواع النكال والحدود.

فمن حضر لما ذكر كله وشهد على من ذكر ومن حضر بالطرة، وهم عارفون قدره وعرفهم، قيده في عاشر جمادى الثانية عام ثمانية وسبعين ومائتين وألف.

---

(1) عبارة عن عقود من الحلي مخيطة في ثوب الزردخان أو ما يشابهه بعضها فوق بعض، حيث تكون قطعة حريرية مستطيلة مرصعة بالعقود المتراكبة.

(2) نقل الفراش لدار الزوج.

(3) صندوق ملابس العروس وذخائرها، وقد كتبت الخرق في الحوالة بالألف بعد الراء وهو سبق قلم.

(4) هو ما يعرف ـ أيضاً ـ باسم المشبك.

عبد الكبير بن المجذوب الفاسي[1].

ومحمد بن الطالب ابن سودة لطف الله به.

ومحمد الفاطمي بن الهادي الإدريسي لطف الله به.

وعلال ابن جلون[2] لطف الله به.

والمكي ابن شقرون لطف الله به.

وعبد الوهاب بن العابد القادري[3] الحسني لطف الله به.

وبعده ـ بخط من يجب ـ الحمد لله، أدوا فقبلوا، وأعلم به محمد بن عبد الرحمن الحسني العلوي[4].

* * *

ونص الثاني بقطعة أخرى: الحمد لله، لما ورد أمر مولانا الإمام، حامي بيضة الإسلام، وناصر دين جده عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، أدام الله ـ سبحانه ـ ملكه، وأجرى في بحار السعادة فلكه، ومتع به الإسلام والمسلمين، وأبقاه سيفاً صارماً للطغاة المعتدين، على خديمة الأنصح، البار الأرشد الأفلح، الخير الدين الأرضي، سيدي إدريس بن الأبر الأرضي، الرئيس الوجيه الناظر المحتسب المرتضى، سيدي الحاج عبد الرحمن السراج الأندلسي، عامل الحضرة الإدريسية صانها الله بمنه، بتفقد البدع المحدثة على يد الماشطات في الأعراس، وكان من معناها الطبالات اللائي يحضرون من غير شك ولا التباس، اقتضى نظره ـ حفظه الله ـ أن يبحث فيهن، واستكشف عن أحوالهن، فأحضر المذكورات منهن

---

(1) ترجمته في «الاغتباط بتراجم أعلام الرباط» لمحمد بوجندار، خ. ع. د. 1287 ـ ج 2 ص 137 ـ 138.

(2) ترجمته في سلوة الأنفاس ج 1 ص 253 ـ 254.

(3) ذكره الزياني ضمن الورافين لدى السلطان العلوي المولى سليمان، حسب «جوهرة التيجان» خ. ع. ك 112.

(4) ترجمته في سلوة الأنفاس ج 1 ص 205 ـ 206.

بطرته[1]، وأمرهن بما يذكر ويفصل:

وذلك أن لا يتعاطى هذه الخدمة شابة صغيرة وتكون النساء الكبيرات فقط وما يقرب منهن.

وأمرهن بلبس ثياب تميزهن من الصينات: بأن تجعل كل واحد في رجلها ريحية حمرا، والسروال من نوع ما يلبسه الرجال، وتلتحف بالردة، ولا يلبسن الثياب الفاخرة، ولا يزينّ وجههن، ولا تجعل في رأسها ما يعرف بالحنطور[2].

وأن تكون خدمتهن بالليل فقط، ولا يأتون لدار إلا بعد استدعاء ربها لهم،

---

(1) وردت أسماؤهن هكذا:

1 ــ الحضـارات:

- عائشة الخلفية، ومعها: 8.
- الحاجة عيشة بن الكبير. ومعها: 6.
- العزيزة براينة، ومعها: 5.
- الحاجة عائشة الحلوية، ومعها: 8.
- حبيبة بنت مولاي عبد الله بن حسين.
- الصريدية معها أخرى: 2.

2 ــ الطبـالات:

- مينة السرغينية، ومعها: 6.
- طامو البلبول، ومعها: 5.
- عائشة الهوارية.
- ورحمة التطوانية معها أخرى: 2.

(2) لباس خاص بالرأس اشتهرت به المرأة الفاسية، وبهذه المناسبة نسجل ما ذكره الرحالة الجزائري الشيخ عبد الرزاق بن حمادوش في رحلته للمغرب عام 1156هـ، حيث يذكر أن نساء فاس يجعلن على رؤوسهن شبه عمائم كبيرة من الحرير وأكثرها إما أبيض أو ملون، أو يتعممن بالشال الهندي أو بالشقة المصرية الجيدة، مخطوط خ. ع ك 463 ـ ورقة 60ب.

ويوجد ضمن موضوعات الشيخ جعفر الكتاني رسالة تحمل اسم: «الألبان المودعة في القوازيز، في حكم الله في استعمال الحناظيز»، هكذا ورد اسمها ضمن لائحة مؤلفات كاتبها آخر فهرسته المنشورة بالمطبعة الحجرية الفاسية ـ م 7، 2.

ويقدم لهم ما يسمى ـ في العرف ـ بالعربون، وأن لا يختلطن مع الرجال، ولا يخدمن بالطرقات، وأن لا يرقصن بالدار، وأن تحمل كل واحدة آلتها بيدها، ولا تكون عندهم امرأة تحمل الجميع.

فقبلن شرطه والتزمن اتباعه، وحذرهن ـ أعانه الله ـ من ارتكاب شيء يخالف هذا وخوفهم عقوبته.

فمن حضر لما ذكر وسمع منهن ما ذكر وعرف بهن، قيده في أواسط جمادى الثانية، عام ثمانية وسبعين ومائتين وألف.

محمد الفاطمي الإدريسي.

وعلال بن محمد الكومي ابن جلون لطف الله به.

وبعده: أديا فثبت واعلم به محمد بن عبد الرحمن العلوي الحسني.

* * *

ونص الظهير الشريف: الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا ونبينا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم.

والطابع الشريف ـ بين الحمدلة والصلاة على النبي عليه السلام، بداخله: محمد بن عبد الرحمن غفر الله له، وبأركانه: الله. محمد. أبو بكر. عمر. عثمان. علي، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، وبطوقه:

ومن تكن برسول الله نصرته إن تلقه الأسد في آجامها تجم

نصه: يعلم من هذا الكتاب الكريم، والخطاب المحتم الصميم، إننا لما طولعنا بما اتفق عليه من سمي بشرفاء فاس وأعيانها وتجارها، بالرسم الذي وقع الاشهاد بمضمنه على عريقات الماشطات بها، من بيان الكيفية التي يكون عليها عملهن في فراش الوليمة والعقيقة والختان، وفي العروس وتحليتها، والاقتصار على سبعة أيام في جلوتها وتوابع ذلك، رأيناه قريباً من السداد، إذ الزيادة عليه بدعة شنيعة خارجة عن المعتاد، (وذلك) كاف في (ما) أمرتا به من حسم مادتها، والإبعاد عن غاياتها، ليسهل تناول ذلك على المشروف والضعيف، كما يتناوله

ـ بجاهه ـ القوي والشريف، وفي الحديث الكريم: «ما كان الرفق في شيء إلا زانه، ولا كان الخرق في شيء إلا شانه».

وقد أمضينا ذلك أمضاء تاماً، كما أمضينا ما شرط خديمنا الأرضى الطالب إدريس السراج على الطبالات والذكارات من الشروط، التي منها أن لا يجعلن معهن البنات الشابات التي تتشوف إليهن النفوس، وأن لا يرقصن بالدور، وأن لا يتشبهن بالصينات، وغير ذلك، وقوفاً مع العرف القديم، وفراراً من كل محرم ذميم.

فنأمر الواقف عليه من عمالنا وولاة أمرنا أن يتعاهد البحث في ذلك، ولا يسامح من حاول نفض مبرمه، بل يلزم كل فريق الوقوف عند حده، وينتضي للمتطاول المتنطع سيف العقوبة من غمده، ومن أعذر فقد أنذر.

صدر به أمرنا المعتز بالله، في 18 جمادى الثانية، عام 1278هـ.

مجلة «دعوة الحق» س 14. ع 4. 1971

وثيقتان جديدتان
من ذيول موقعة وادي المخازن

خلفت موقعة وادي المخازن مجموعة من الوثائق الرسمية: وطنية وأجنبية، غير أن الوثائق الصادرة عن القاعدة الشعبية ـ في هذه المناسبة ـ لا تزال نادرة، والمعني بالأمر ـ هنا ـ قادة الرأي العام المغربي في عصر الموقعة، وهم بعض العلماء الذين ابتعدوا عن الانحياشات الرسمية، فكانت لهم رؤية مجردة للأحداث، استطاعوا بها أن يشاهدوا الوقائع على حقيقتها، فيصدروا إزاءها الأحكام المنطقية.

وممن كان يمثل هذا الموقف آنذاك، الشيخ رضوان بن عبد الله الجنوي ثم الفاسي، وقد عاصر ـ أخريات عمره ـ الموقعة المنوه بها ثم صدر دولة أبي العباس أحمد المنصور السعدي، إلى أن توفي العالم الجنوي عام 991هـ/ 1583م[1].

وقد كان نموذجاً لامعاً في معرفة الحديث النبوي، والتزام السنة ومجانبة البدعة، شديد الشكيمة على المنحرفين غير مكترث بهم، ومن نماذج ذلك أنه مر ـ يوما ـ بحاكم فاس وهو يقضي بين الناس، فتقدم إليه وسأله:

أتعرف (مختصر) ابن الحاجب؟ فقال لا.

أتعرف (مختصر) خليل؟ فقال لا.

أتعرف الرسالة (القيروانية)؟ فقال لا.

---

(1) ترجمته ومصادرها ومراجعها عند الكتاني «سلوة الأنفاس» ج 2 ص 257 ـ 262.

فقال له المترجم: وبأي شيء تحكم بين الناس؟ لا. والله: لا يحل السكوت على هذا، فصعد للسلطان وأخبره بما رأى، فعزل الحاكم[1].

* * *

وقد كانت صرامة الشيخ رضوان في مقاومة الانحرافات، هي الحافز له على مخاطبة العاهل السعدي بالوثيقتين التاليتين.

وهو في الرسالة الأولى يثير انتباه المنصور الذهبي إلى بلبلة البرتغاليين بعد انهزامهم في معركة القصر الكبير، ويلح على انتهاز هذه الفرصة لاسترداد المدائن التي يستولي عليها المنهزمون طنجة وأصيلا وسبتة، حتى يتجاوب الحكم مع تطلعات الرعية التي تترجمها هذه الرسالة الأولى.

أما الرسالة الثانية فينتقد فيها على العاهل ذاته سياسته في قبول الفداء ـ بالمال ـ للأسرى البرتغاليين، على حين أن المسلمين والمسلمات بأيدي الكفار في غاية العذاب والإهانة، والفرصة مواتية أن لا يبقى في أيدي الأعداء واحد من هؤلاء المؤمنين الذي فداؤهم على المسلمين، وفي إلحاح بالغ تحض الرسالة على العمل لفك الأسرى بقدر الجهد.

* * *

وقبل أن نقدم الرسالتين، نشير إلى أن مصدرهما هي الترجمة الموسعة التي ألفها ـ في التعريف بالمترجم ـ تلميذه أبو العباس أحمد بن موسى المرابي الأندلسي ثم الفاسي، فجاءت في سفر يحمل اسم «تحفة الأخوان ومواهب الامتنان في مناقب سيدي رضوان» ومخطوطتها الأصلية مبتورة الطرفين يسيرا، وهي بالخزانة العامة تحت رقم 154ك، حيث ترد الرسالة الأولى: ص 423 ـ 424، والثانية: ص 427 ـ 429، وهذا نص الرسالة الأولى:

«بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

---

(1) «صفوة من انتشر» للأفراني، ط. ف. ص 7.

الحمد لله، من عبد الله رضوان بن عبد الله، إلى أمير المؤمنين السلطان أبـي العباس أحمد بن مواليا وسادتنا الشرفاء، سلام عليكم ورحمة الله ـ تعالى ـ وبركاته.

وبعد: أعاننا الله وإياكم على رعاية ودائعه، وحفظ ما أودعنا من شرائعه، وثبتنا على حسن القيام به كما أمر، آمين، فالحمد لله ثم الحمد لله على نعمه الشاملة، وعلى ما من به من نصر الإسلام وأهله، وخذلان الكفر وأهله، والظفر منهم، والتمكن من رقابهم، إذ لا نعمة أعظم من إعزاز الدين، وذل أعدائه الكافرين، زادكم الله في ذلك حرصاً وغبطة، وولعكم فيه حتى تصير لكم حرفة وخطة، إذ كانت حرفة جدكم ﷺ وأصحابه الكرام، فقد قطعوا الأعمار في قتال الكفار، وأنفقوا الأموال وبذلوا النفوس في رضاء محبوبهم، ولم يزالوا كذلك حتى استقام الدين، ومتبعين وسالكين سنة سيد المرسلين، رضي الله عنهم أجمعين.

وأنتم ـ نصركم الله ـ خذوا في ذلك بغاية جهدكم، ولا تتراخوا عن ما ندبكم إليه المولى تبارك وتعالى، فإن للإسلام صولة لا يقوم لها شيء، فقد قال تعالى: ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾، وقال تعالى: ﴿ولا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم، ولن يتركم أعمالكم﴾، والمعية من الله تقتضي النصر على الأعداء والظفر بالبغية، وقال تعالى: ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم، وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده، وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾.

وإلى هذا فـالله الله في الحزم وإمضاء العزم، وهو ما ظهر لرعيتكم من انتهاز هذه الفرصة الممكنة في هذا الوقت، من الحركة لمدائن الكفار التي هي طنجة وأصيلا وسبتة، فإنهم في هذه الساعة في دهش وخزي وخذلان بما أمكن الله منهم، ولا أظن ـ نصركم الله ـ مثل هذا يخفي عليكم حتى نحتاج أن نذكركم به.

وقد بلغني عن بعض الناس ممن تخلف عن هذه الغزوة، أنهم أصابهم أسف وحزن عظيم، وحرقة وندم، على ما فاتهم من الحضور معكم، فالحمد لله على عز الإسلام وعز أهله، وعلى إهانة الكفر وذل أهله.

فاقبل وصية من يحب لكم الخير، ويسأل الله ـ تعالى ـ أن ياجرك في مصيبتك بموت أخيك، تلقاه الله بالمغفرة والرحمة، آمين، ونسأله ـ تعالى ـ أن يسعدك وأن يسعد المسلمين بك».

الرسالة الثانية:

«الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

من عبد الله رضوان بن عبد الله، إلى أمير المسلمين السلطان أبي العباس أحمد ابن ساداتنا ومواليا الشرفاء، نصره الله، سلام عليكم ورحمة الله ـ تعالى ـ وبركاته.

وبعد: أعاننا الله وإياكم على رعاية ودائعه، وحفظ ما أودعنا من شرائعه، وثبتنا على ذلك حتى نلقاه وهو عنا راض.

فإني أحمد إليكم الله الذي لا إلاه إلا هو، ومرادي ـ إن شاء الله ـ أن أبث لكم ما في باطني من الاحتراق، فقد قال القائل:

فلا بد من شكوى إلى ذي مروءة يواسيك أو يسليك أو يتفجع

وهي كيف يمشي هؤلا الكفار كلهم إلى بلادهم، وإخواننا ـ المسلمون ـ بأيديهم في غاية العذاب والإهانة؟ ونحن قادرون على أن لا يبقى واحد منهم في أيديهم، وفداؤهم فرض علينا من بيت المال وأموال الناس كلهم حتى لا يبقى واحد، ففتح الله في هذا الفتح العظيم، ومن الله ـ تعالى ـ علينا به، وحصل في أيدي المسلمين رؤوس الكفر، إلا وهم يمشون لبلادهم بالشيء التافه الذي لا حاجة للإسلام به، ويبقى إخواننا وأخواتنا بأيديهم، كأن هذا الأمر سهل، فلا ـ والله ـ ليس الأمر بسهل، وإنما يحاسب على ذلك من قدر عليه ولم يفعله، كالراعي والرعية، فإن كان هذا حرصاً على المال فإن المال بالغرب كثير، وقبل أن كانت هذه الغنيمة أكنتم محتاجين[1] إليه؟ بل كنتم ـ والحمد الله ـ أغنياء عنه.

---

(1) في الأصل: محتاجون.

فالله الله في فك الأساري بقدر الجهد، ألم تعلم أن قسيس النصارى يشتري كبار النصارى بالشيء القليل، ويحملهم إلى بلادهم والناس ساكتون لا يعبأون بذلك، «إنا لله وإنا إليه راجعون».

وسمعت أن ابن الدك يقدر يُفَدى به ما لا يحصى، فالله الله، ثم الله الله في هذا الأمر، وأنت أقدر الناس عليه، والأمر الأكيد هو فك الأسارى لله عز وجل، «وما تفعلوا من خير يعلمه الله».

وقد بلغنا ـ والحمد الله ـ اهتمامكم بأمور الدين، زادكم الله خيراً، وأعانكم عليه.

والله الله في الفقيه سيدي سعيد السعيدي، تعينونه وتأمرونه بما طلبنا منكم. والسلام عليكم ورحمة الله ـ تعالى ـ وبركاته».

مجلة «دعوة الحق» س 19. ع 8 1978

ملاحظات حول بعض ردود المغاربة تجاه الدعوة إلى الإصلاح المشبوه في القرن 19، من خلال وثيقة موضوعية

مدخـــل

بعد عام 1860/1276 صار من ذيول أزمة تطوان: ظهور أشكال من الاقتراحات الإصلاحية «المزعومة» الواردة من الخارج، وكان من أغربها طرح إشكالية «حرية العقيدة بالمغرب»، وهو مطلب ظهر ـ للمرة الأولى ـ بواسطة اليهودي ذي الجنسية الإنجليزية: السير موسَى مونتفيوري، فوفد على المغرب عام 1864/1280، وحظي بمقابلة السلطان محمد الرابع، حيث قدم له مطلب الحرية ليهود المغرب.

وقد عقب الناصري[1] على هذا الاقتراح، حتى انتهى في انتقاده إلى هذه القولة: «واعلم أن هذه الحرية التي أحدثها الفرنج في هذه السنين: هي من وضع الزنادقة قطعاً، لأنها تستلزم إسقاط حقوق الله، وحقوق الوالدين، وحقوق الإنسانية رأساً».

وبعدما حلل هذه الأمور عقب قائلاً: «وضابط الحرية عندهم (الفرنج) لا يوجب مراعاة هذه الأمور، بل يبيح للإنسان أن يتعاطى ما ينفر عنه الطبع، ووتأباه الغريزة الإنسانية: من التظاهر بالفحش والزنا وغير ذلك إن شاء، لأنه مالك أمر نفسه، فلا يلزم أن يتقيد بقيد، ولا فرق بينه وبين البهيمة المرسلة إلا في شيء واحد. هو إعطاء الحق لإنسان آخر مثله، فلا يجوز له أن يظلمه، وما عدا ذلك فلا سبيل لأحد على إلزامه إياه...».

---

(1) «الاستقصا» دار الكتاب ـ البيضاء 9/114 ـ 115.

وإلى هذا: عرف مؤتمر مدريد (1297/1880) تدخلاً مماثلاً، وجاء ـ في هذه المرة ـ بمبادرة الكاردينال نينا، كاتب الدولة في الفاتيكان، فوجه للمؤتمر ـ بواسطة سفير النمسا ـ مذكرة بشأن حرية العقيدة في المغرب[1].

* * *

ومع غياب نص مذكرة الفاتيكان: يترجح أنها نفس الكتاب الذي تعقب عليه الوثيقة المغربية التي نقدم لها بهذا المدخل، حيث يبدو أن أعضاء مؤتمر مدريد تبنوا هذه المذكرة، وبعثوا بها ـ باسمهم ـ إلى السلطان الحسن الأول، فكانت ضمن المراسلات المتبادلة بين النائب محمد بركاش والسلطان حين انعقاد المؤتمر، ثم عهد الحسن الأول إلى قاضي فاس: محمد (بن عبد الرحمن العلوي المدغري)[2] بكتابة مشروع للجواب عن المذكرة، فحرره هذا بعد استشارة العلماء المعنيين بالأمر دون الإشارة لأسمائهم.

وسنشير ـ استقبالاً ـ لهذا الجواب باسم «الوثيقة»، ولرسالة الفاتيكان باسم «المذكرة».

* * *

وتبتدىء الوثيقة المغربية ببيان مصدر المذكرة، وتلخيص نقطها كالآتي:

«الحمد لله، اجتمع أجناس النصارى، وكتبوا كتاباً أجابهم عنه قاضي الجماعة مولانا محمد عام 1297».

فتشير هذه الفقرة إلى مؤتمر مدريد: «اجتمع أجناس النصارى»، ويؤكد ذلك تاريخ «عام 1297»: نفس تاريخ انعقاد المؤتمر الذي يوافق سنة 1880.

وبعد هذا تأخذ الوثيقة المغربية في تلخيص نقط المذكرة كالآتي:

1 ـ إن البابا يطلب إجراء حرية الأديان في المغرب، وبين قوسين: جاء

---

(1) «مشكلة الحماية القنصلية بالمغرب» للأستاذ عبد الوهاب ابن منصور، المطبعة الملكية ص 102.

(2) ترجمته في «سلوة الأنفاس» 1/205 ـ 206.

التعبير عن البابا بـ «البابص»: حسب الاستعمال المغربي الدارج الذي كان يطلق على رئيس الأساقفة.

2 ـ تستند المذكرة في مطلب حرية العقيدة إلى ظهير السلطان محمد الرابع لمن تسميه الوثيقة المغربية بموشي، وهو السير موسى مونتفيوري سابق الذكر، والظهير ورد نصه عند الناصري[1].

3 ـ إن هذا الظهير لم يتحقق تطبيقه بتمامه، ولم تقع مساواة جميع الرعية في الحقوق والتشريع.

4 ـ إن السلطان العثماني منح الحرية لغير المسلمين في بلاده[2]، مما يدل على أن هذا المبدأ موافق مع الدين الإسلامي.

5 ـ إن أعضاء مؤتمر مدريد متشوفون إلى أن ينتهج الحسن الأول نهج السياسة العثمانية، وينتظرون ما يصدر عنه في هذا الصدد بالنسبة للمتساكنين الآن في المغرب وفيما يستقبل. حتى يكون التشريع في المغرب جارياً على مقتضى الكتاب الحسني الذي يتوقعون صدوره، وبذلك يتحرر اليهود، ولا يمنعون من الحقوق السياسية...

* * *

ومن هنا تبدأ الوثيقة المغربية في مناقشة نقط المذكرة، فعن النقطة الأولى تشير إلى استشارة العلماء في مطلب حرية الأديان في المغرب، وتستخلص النتيجة في هذه الفقرة: «... فحرية الأديان بالمعنى المعروف عند من قال بها، والحالة المقررة الشهيرة عند أربابها: خارجة عن الدين بالدليل والبرهان، مضادة له كما لا يختلف فيه اثنان، فلا سبيل إلى العمل بها، وإلا تبطلت الشريعة ولم يبق تعويل عليها».

وعن مبادرة السلطانين: العثماني، ومحمد الرابع: كان من جواب العلماء

---

(1) «الاستقصا» 9/113 ـ 114.

(2) إشارة إلى التنظيمات التي أعلنها السلطان العثماني عبد المجيد الأول، ونص فيها على المساواة بين أفراد الرعية، وهي التي تعرف باسم «خط كولخانة».

عن ذلك: «إن العلماء حكام على الملوك، والأمراء حكام على الناس، فتصرفات الملوك تعرض على الشرع، فما وافقه منها يقبل ويعتمد، وما لا فلا، إذ من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد كما ورد».

وبعد هذا تجيب الوثيقة عن نقطة أخرى هكذا: «وأما ما ذكرتم من أن حضرة والدنا المقدس أعطى دلائل كثيرة من سماحته وإحسانه لغير المسلمين، وإنكم طامعون في جانبنا أن يكون لنا حرص على ذلك مثل العثماني: فالأمر كما حكيم وطمعتم، إذ لا نحب لهؤلاء إلا الخير التام... فنظرتكم فيهم ووصيتكم عليهم: تراعى ولا تهمل...».

وعن المساواة في الحقوق والتشريع: تقول الوثيقة: «وأما أمر المساواة أمام الشريعة: فإن كان المراد من ذلك التسوية أمام الشريعة: بحيث لا يفضل أحد ـ أياً كان ـ على واحد، ولا يلحق البعض من البعض ظلم ولا جور: فهذا أمر جاءت به شريعة الإسلام، ولم يزل معمولاً به من أول الإسلام حتى الآن...

وإن كان المراد غير ذلك من أوجه التسوية: كتناكح أو شهادة أو لباس أو مركب أو غير ذلك، فهو أمر فيه بيننا وبينهم شروط...».

ومن هذه الفقرة والنماذج قبلها: يمكننا أن نستنتج طابع التفكير الوطني خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وبالضبط لدى جماعة العلماء.

فيوجهون الوطنية وجهة إسلامية صرفة، ويدافعون التدخلات الأجنبية بمصادمتها لواقع التشريع الإسلامي.

كما يدعمون سياسة الدولة بأفكار منتزعة من السياسة الإسلامية.

وفي هذا الاتجاه يحالفهم النجاح أحياناً، كواقع هذه الوثيقة لما تعلن أن الملوك مسؤولون أمام العلماء، فتصرفات الملوك تعرض على الشرع...

وأيضاً: كواقع موقفها من عرض «حرية العقيدة».

وإلى هذه الصرامة في عدد من الأحكام، تجنح الوثيقة إلى الليونة واللباقة عند الاقتضاء: «ومما تواتر واشتهر بين الناس، أنكم معاشر الأجناس، لا تسعون

في هدم قاعدة لإصلاح أخرى، ولا توافقون على ذلك، إنما المسموع عنكم المذكور، سيما عند صدور هذا الجمع المشهور، أنكم تحافظون على إبقاء كل دين على قواعده الأصلية، وسير أهله على شروطه المقررة المرعية. . .».

* * *

والآن، ستكون خاتمة هذا المدخل: الإشارة إلى أن الوثيقة التي نقدم لها لا تزال مخطوطة في نسختين: خاصة، والثانية بالخزانة الملكية ضمن مجموع رقم 11،322.

نص الوثيقة

الحمد لله اجتمع أجناس النصارى، وكتبوا كتاباً أجابهم عنه قاضي الجماعة مولانا محمد عام 1297، ونص الجواب:

وبعد: فقد وصل كتابكم صحبة خديمنا باركاش، ووقع منا بالبال ما تضمنه من أن البابَّص الكبير يطلب إجراء حرية الأديان في المغرب.

وأن حضرة والدنا السلطان سيدي محمد أعطى دلائل كثيرة من سماحته وإحسانه للرعايا غير الإسلام عام كذا وكذا، وأنعم بكتاب التحرير عام كذا على موشي، وفي هذا الكتاب توضيح أن جميع رعية المغرب تكون لهم المساواة أمام الشريعة، بحيث لا يقع لأحد منهم ظلم في نفس ولا مال.

وإن الظهير المذكور أبطل كثيراً من الأوامر عن غير المسلمين.

لكن إلى الآن لم تبطل بتمامها، إذ لا زال البعض منها يستعمل في بعض الأماكن داخل الإيالة، فلم تحصل لهم مزية التصرف في دينهم، فخولف المقصود من الظهير الشريف والقاعدة العامة، وهي مساواة جميع الرعية في الحقوق وأمام الشريعة.

وأن السلطان العثماني وافق على ذلك وكتب في شريعة بلاده عام كذا، وأثبته من بعده عام كذا، مع أنه ـ لا شك ـ موافق مع الدين المحمدي.

وإنكم طامعون في جانبنا أن نكون لغير المسلمين كالسلطان العثماني، إذ لا

يمكن الواجب إلا بذلك، وتنتظرون ما يصدر في الأمرين:

الأول جميع المستقرين ـ الآن ـ في المغرب وفيما يستقبل: لهم اتباع دينهم بلا تعرض.

الثاني وقوع الإذن من الدولة أن تكون نصوص الشريعة الثابتة في المغرب جارية على مقتضى نص الكتاب الشريف، وحينئذٍ لا يكون فرق أمام الشريعة بين الرعية المسلمين وغيرهم، ولا يكلف اليهود بتلك الأمور، ولا يمنعون من الحقوق السياسية، وتكون لهم الحرية في جميع الأشغال كغيرهم من المسلمين، وأنه إن وقع ذلك يظهر نفعه للكرسي الشريف وإيالته، ويفتح بذلك باب جديد من السعادة إلى آخره.

* * *

فاعلموا أن ما ذكرتم من أن والدنا المقدس أعطى دلائل كثيرة من سماحته وإحسانه لغير المسلمين، وأنكم طامعون أن يكون لكم حرص على ذلك، مثل ما طلبه البابص الكبير من إجراء حرية الأديان في المغرب: هو في هذا الوقت متعسر بل متعذر، وقد عرضنا ذلك على أعيان الدولة: علماء ديننا فنفروا منه وأنفوه، إذ لم يعتادوه في دينهم ولا عرفوه، وقالوا إن العمل بذلك على الإطلاق، يؤدي إلى كثرة الفتن والهرج والشقاق.

واحتجوا بأن الأمر الشائع المشهور، المقرر لدى الخاصة والجمهور، أن دين الإسلامية: الأمة المحمدية منقول بالسند الصحيح المتواتر، من أوله إلى الآن رواية الأكابر عن الأكابر، خصوصية تفضل بها الحق سبحانه حسبما اقتضته حكمته، وأبرزته عن سابق علمه وإرادته قدرته، يريد به كتابه القرآن العظيم، «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم عليم»، تكفل الله به فهو محفوظ على ممر الأزمان، لا يلحقه تبديل ولا تغيير ولا يطرق ساحته بهتان.

وعليه فحرية الأديان بالمعنى المعروف عند من قال بها، والحالة المقررة الشهيرة عند أربابها، خارجة عن الدين بالدليل والبرهان، مضادة له كما لا يختلف فيه اثنان، فلا سبيل إلى العمل بها، وإلا تبطلت الشريعة ولم يبق تعويل عليها.

وما ذكرتم من أن السلطان العثماني وافق على ذلك وأثبته من بعده، وأن السلطان سيدي محمد أنعم على موشي بكتاب التحرير: أجابوا عنه بأن ذلك ـ على فرض وجوده وصحته ـ لا يلزم الأمة، لما تقرر من أن المدار على ما ثبت بطريقته المعلومة وخصوصيته، والأمر في هذا بخلاف ذلك، فلا سبيل إلى العمل بما هنالك.

وأيضاً قد تقرر أن من قواعد دين الإسلام، وأركانه الشهيرة عند الخاص والعام، إن العلماء حكام على الملوك، والأمراء حكام على الناس، فتصرفات الملوك تعرض على الشرع، فما وافقه منها يقبل ويعتمد، وما لا فلا، إذ من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد كما ورده. على أن كتاب التحرير المشار إليه إن لم يصرح فيه بشيء خاص يمكن حمله على التحرير من أمور العمل بما غير مناف للدين، ولا خارج عن سنن المهتدين.

ومما تواتر واشتهر بين الناس، أنكم معاشر الأجناس، لا تسعون في هدم قاعدة لإصلاح أخرى، ولا توافقون على ذلك، إنما المسموع عنكم المذكور، سيما عند صدور هذا الجمع المشهور، أنكم تحافظون على إبقاء كل دين على قواعده الأصلية، وسير أهله على شروطه المقررة المرعية، إذ بذلك يكمل التوافق ويقع الانتظام، ويقل الهرج في الأقطار بين الأنام.

وأما ما ذكرتم من أن حضرة والدنا المقدس أعطى دلائل كثيرة من سماحته وإحسانه لغير المسلمين، وأنكم طامعون في جانبنا أن يكون لنا حرص على ذلك مثل العثماني، فالأمر كما حكيتم وطمعتم، إذ لا نحب لهؤلاء إلا الخير التام، والإحسان العام، وعلى ذلك كان عملنا معهم فيما فات من الزمان، وعليه يكون عملنا فيما يأتي، بل نزيد معهم في الخير بحول الله على ما كان، فنظرتكم فيهم ووصيتكم عليهم تراعى ولا تهمل.

غير أن ذلك يناسب أن يكون فيما لا يتفاقم فيه الأمر، أما إن أحدث على الرعية الأمر الذي لم يألفوه فيرد ولا يقبل، والتأني في الأمور ومباشرتها بالرفق، هو مجمع الخير، وضده في العجلة والخرق.

وأما أمر المساواة أمام الشريعة، فإن كان المراد من ذلك التسوية أمام الشريعة بحيث لا يفضل أحد أياً كان على واحد، ولا يلحق البعض من البعض ظلم ولا جور: فهذا أمر جاءت به شريعة الإسلام، ولم يزل معمولاً به من أول الإسلام حتى الآن، فمن خالفه حاد عن الحق وتعرض للملام، وإن كان المراد غير ذلك من أوجه التسوية كتناكح أو شهادة أو لباس أو مركب أو غير ذلك، فهذا أمر فيه بيننا وبينهم شروط ـ من ابتداء عقد الذمة من خليفة نبينا سيدنا عمر رضي الله عنه ثابتة الدعائم محكمة الربوط، لا يمكن أن يفعل فيها ما يخالف الدين، وإلا كان فاعله في ديننا من الملحدين، وعلى ذلك كان لهم السكنَى معنا والاستقرار، والمعاملة والمخالطة في الأسواق والطرق والديار.

وما ظلم من أبقى ما كان واتبع، وإنما الظالم من خالف ما كان وابتدع.

وأما ما يتعلق بالرواتب وإنها لا زالت لم تبطل بتمامها وإن البعض منها لا زال: فجوابه أن من يستعمل منهم أياً كان في أمر كيف ما كان، فإنما يستعمل بأجرته وعن طيب نفسه، وحيث كان الأمر كذلك فلا معنى للتشكي به، ولا للتظلم بما هنالك، فالسير مع جميعهم: اليهود المراكشية وغيرهم على مقتضى الحق، والعدل هو أصل شريعتنا، وعليه عمل أهل ملتنا، وإن وقع لأحد خلاف ذلك فمن غير شعور منا، ولو رفع ذلك إلينا لأنكرناه ورددناه وما أقررناه.

بل جل اليهود في هذه الأزمنة هم الذين خرجوا عن طورهم، وصاروا يتطاولون على المسلمين بالقول والفعل، فرفعوا أنفسهم فوق قدرهم، وأكثروا من التعامل بالأموال الكثيرة مع الأخلاط من غير تمييز بين من يصلح لذلك ومن لا، مع أن التمييز هو حق ذوي التثبت والاحتياط، وزادوا أنهم كثيراً ما يعاملون من ليس بذي درهم فضلاً عن دينار، فإذا حل الأجل أتوا بكتاب حميتهم الخاصة ظناً منهم أنهم مظلومون، فيفعل ذلك تقليلاً للهرج، وميلاً لحسن الجوار، وكثيراً ما يؤدي ذلك إلى اقتضابه من برىء لكونه قريب المدين في القبيلة والدار، وكنا بصدد شرح هذا الأمر لكم، لعلمنا أنكم لا توافقون عليه عند مراجعتكم واجتماعكم في دنياكم، لما فيه من الظلم الكثير، والفساد الكبير، إذ ما بين المسلمين واليهود في ذلك إلا سلوك طريق شرعنا، والمعسر أنظره الله كما هو ثابت بنص كتابنا، على أن

ذلك مضربهم في الحال والمثال.

أما الأول فلكون الذي أخذ منه ذلك وهو برىء قضاه عن غيره، ربما أوقع باليهودي رب الدين مكروهاً: قتلاً أو غيره على وجه لا يشعر به أحد، وقد وقع شيء من ذلك وشاهدوه، وها هم بين أظهركم يخبرنكم بذلك إن لم يكتموه ويجحدوه.

وأما في المثال فلأن المغرب كثير التقلبات، فإذا وقعت فترة أوقع البعض بالبعض منهم ما لا يليق من فظيع التصرفات، ومرادنا نفعهم وإرشادهم لحسن الجوار مع المسلمين، ليكونوا بخير معهم فيما يحدث وما يأت، كما كانوا كذلك فيما مضى وفات، وهذا أمر ضروري لا ينكره عاقل، فضلاً عن فاضل.

وبالجملة لو اطلعتم كل الاطلاع على ما يدافع عنهم المخزن ويقاسيه في شأنهم لعذرتم من يحاول أمرهم، وتعجبتم من فعلهم، ولا يعرف حق النعمة إلا عند فقدها، ومن لم يشكرها فقد تعرض لزوالها.

وقول الكتاب إنهم ليست لهم حرية التصرف في دينهم، وها هم في كنائسهم في مواضع سكناهم يفعلون ما أرادوا، ولم نسمع أن أحداً قط تعرض لهم في أمر دينهم: أعيادهم وأنكحتهم ومعاملتهم مما عوهدوا على عدم التعرض لهم فيه، ولا مشوش عليهم في شيء من ذلك.

نعم إن كان المقصود رفاهية خاصة عوهدوا على تركها، فهذه في إحداثها ضرر، إذ ذاك يؤدي إلى التفاقم وكثرة الهرج في الرعية، وهم بأنفسهم يعترفون بذلك إن صدقوا الله وأحسنوا الطوية، ولا حيف ولا عار على أحد في حمله على سبيله المعروف، وشكله المعتاد له المألوف، إنما الحيف والعار في إحداث ما لم يعهد، والإقدام على قواعد مؤسسة من قديم بالنقض والهد، وترك كل قوم في مثل هذا وما اعتادوه: هو أولى، بل الواجب في باب السياسة الذي ينبغي اعتماده.

وقول الكتاب: يقع الإذن من الدولة إلى آخره: جوابه إن الجاري على ما تقدم من أن من قواعد ديننا أن العالم حاكم على الملك لا العكس: أن يكون ما تضمنه الظهير الشريف معروضاً على نصوص الشريعة الثابتة، فيرد الظهير

للنصوص، ولا ترد النصوص للظهير إلا لو كان الملك حاكماً على الشرع، والأ
بالعكس، ولو قيل بذلك لبطلت الأديان جملة، وصار المدار على الملك، وه
خلاف الواقع.

وبالجملة فالمعهود منكم والمنقول بالتواتر عنكم أنكم تتأملون حق التأم
في النوازل، ولا تسرعوا ولا تعجلوا في أمر حتى تبحثوا، ويتبين الحق م
الباطل.

وهذا شأن كل من يتولى بين الناس أمر الفصال، لا بد أن يسمع م
الجانبين، ثم يتأمل الجواب بعد تأمل الدعوى والمقال، فيرجح حينئذٍ ما قو
الدليل والبرهان ويلغي ما ظهر ـ بالنظر الصحيح ـ تلاشيه وبان.

وها هي النازلة والدعوى وجوابها بيد ناقد بصير، فليبالغ في التأم
والتحرير.

«مجلة كلية الآداب» الرباط ع 9 سنة 982

وثيقة إسماعيلية
تهتم بتثقيف الوصيفات

مِنْ تَقَاليدِ التَّمَدُّن الإِسْلاَمِي: اهْتِمَامُ ٱلْحَاكِمِينَ بِتَرْبِيَةِ الأَرِقَّاءِ ٱلذِينَ يَعِيشُونَ فِي كَنَفِهِمْ، وَٱخْتَلَفَتْ أَسَالِيبُ هَذِهِ التَّرْبِيَةِ مِنْ جِهَةٍ لأُخْرَى، غَيْرَ أَنَّهَا ـ في مَجْمُوعِهَا ـ كَانَتْ تَقُومُ عَلَى التَّثْقِيفِ ٱلْعَام، بِمَا فِي ذَلِكَ ٱلصِّنَاعَاتِ ٱلْمُنَاسِبَةِ.

وَكَانَ حَظُّ الإِمَاءِ مِنْ هذِهِ الْعِنَايَةِ مَوْفُوراً، وَيَتَجَاوَبُ مَعِ الاحْتِيَاجَاتِ ٱلنِسْوِيَّةِ.

وَبِهَذَا فَإِنَّ ٱلْمُبَادَرَاتِ ٱلرَّسْمِيَّةَ مَشْرِقاً وَمَغْرِباً: أَنْجَبَتْ وَصِيفَاتٍ عَلَى مُسْتَوَيَاتٍ مُتَفَاوِتَةٍ مِنَ ٱلتَّثْقِيفِ.

* * *

وَقَدْ سَارَ ٱلسُّلْطَانُ ٱلْعَلَوِيُّ ٱلْمَوْلَى إِسْمَاعِيلُ في نَفْسِ الاتِجَاه. وَذَلِكَ مَا تُقَدِّمُهُ وَثِيقَةٌ إِسْمَاعِيلِيَّةٌ يَحْتَفِظُ بِهَا كِتَابُ «الْمَنْزَعِ ٱللَّطِيفِ»[1] كَالتَّالِي:

«خَدِيمَنَا ٱلطَّاهِرِ مَعْنين وَكَافَةِ أَهْلِ سَلاَ، سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ ٱللَّهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُه.

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ أُولاَئِكَ ٱلإِيمَاءُ الذين[2] بَعَثْنَا لَكُمْ عَلَى يَدِ خَدِيمِنَا الأَنْصَحِ:

---

(1) لابن زيدان عند الباب السادس: مخطوط.

(2) كذا في الكلمتين.

ٱلحَاجِ مُحَمَّدٍ مَعْنِين بِقَصْدِ ٱلتَّعلِيم وَالقِرَاءةِ وَالأدَبِ وَٱلْخِيَاطَةِ وَالرَّقْمِ وَٱلطَّبْ
وغيره: فَاتْهَلاَّوْ فيهم[1] وَاحْتَرَمُوا مَعَهم بِمَا أَمَرْنَاكُم بِهِ. فَإِنَّهُ لَوَلاَ ثِقَتِي بصاحبك
وَكَبيرُكُم خَدِيمُنَا الحَاج مُحَمَّد مَعْنين مَا بَعَثْنَاهُمْ لكم.

فكان من حقكم تشكرون الله على نعمه التي أولاكم على يد عبده، وتَحْتَرِمُو
فِي تَعْلِيمِهم وَتَرْبِيتِهم.

وَلاَ يَدَع أَحَدٌ مِنْكُمْ وَاحِدَة لِلْخُرُوجِ مِنْ غَيْرِ فَائِدَةٍ، وَمَنْ كَانَت عِنْدَهُ أَمَةٌ مِنْهُ
وَتَرَكَهَا لِلْخُرُوج أَوْ مَنَ غَيْرِ تَرْبِيَة وَلاَ فَائِدَةَ وَلاَ أَدَب نَقْطَعُ رَأْسَهُ.

وَأَدِّبُوهم وَأَحْسِنُوا تَأْدِيبهم وَكُونُوا مِثْلَ أَخِيكُمْ وَكَبِيرِكُمْ فِي الثقةِ وَالْمَحبَّةِ فِي
خِدْمَتِنَا وَطَاعَتِنَا، وَالسَّلاَم.

كما نأمر خديمنا الطاهر: أن يرسم كل أمة باسمها وسنها على من هي عنده
ويحرضه على تعليمها وأدبها بالعدول، وكل من ضاعت عنه أمة لتفريطه لَهَا وَقِلَّ
ٱلْمُبَالاَةِ بِهَا، نَقْطَعُ رَأْسَهُ وَنَخفِرُ جِذْرَهُ، وَالسَّلام.

في رابع ربيع الخير النبوي المبارك المفضل. عام سبعة وثلاثين وماة
وألف».

مجلة «الإرشاد» س 14. ع 2 سنة 982

(1) تعبير عامي.

16 وثيقة عن استشارة السلطان الحسن الأول لنخب من مدينة فاس وما إليها في نازلة اقتصادية

تقديم وعرض

شهدت سنة 1303/1886 ظاهرة استشارية انطلقت من مبادرة السلطان الحسن الأول، وجاءت في موازاة الحاح نواب الدول بطنجة في الترخيص لهم باستيراد السلع المغربية الممنوع وسقها في القانون المغربي آنذاك: كالحبوب والأنعام والبهائم وما إليها.

ونظراً لظروف المغرب جنح السلطان إلى حل يرخص لتجار الدول المعنية في وسق ما طلبوه، غير أنه علق ذلك على قصد الاختبار والتجربة، وقيده بشروط، وحدد مدته في ثلاث سنين.

ثم رأى أن يطرح هذا الحل لاستشارة شعبية استمرت تفاصلها دفينة بين مجموعة من الوثائق الموضوعية، والآن: عرف من مستندات هذه المبادرة طائفة مهمة كانت أولاها هي رسالة الاستشارة السلطانية الموجهة إلى فاس، ونظيرتها إلى سلا، وهذه الأخيرة يحتفظ بنصها الناصري في «الاستقصاء»[1]، أما رسالة فاس فهي تتصدر مجموعة وثائق يصل عددها إلى ستة عشر نصاً عن استشارة نفس المدينة.

فيأتي بعد الوثيقة الأولى جوابها من طرف عامل فاس: عبد الله بن أحمد البخاري.

---

(1) نشر دار الكتاب بالدار البيضاء سنة 1956: 9/182 ـ 184.

الوثيقة الثالثة: شهادة عدلية بمحضر الاجتماع الأول والثاني بجامع القرويين والأندلس لسماع تلاوة الرسالة الملكية والجواب عنها.

الرابعة: جواب العلماء.

الخامسة: جواب الشرفاء العلويين.

السادسة: جواب الشرفاء الأدارسة ومن إليهم.

السابعة: جواب الحاج عبد السلام المقري.

الثامنة: جواب شرفاء أهل تلمسان.

التاسعة: جواب المرابطين.

العاشرة: جواب عامة أهل فاس.

الحادية عشرة: جواب التجار.

الثانية عشر: جواب الحاج أحمد المراكشي.

الثالثة عشر: جواب أهل قصبة النوار.

الرابعة عشر: جواب أولاد الحاج.

الخامسة عشر: الجواب الحسني لعلماء فاس.

السادسة عشر: الجواب الحسني لباقي أصناف المجيبين.

ويعود الفضل في الاحتفاظ بمجموع هذه الوثائق إلى مؤرخ الدولة الحسنية أحمد بن محمد بن حمدون ابن الحاج[1].

والمهم من هذه النصوص هو طبيعتها الاستشارية، فالوقيقة الأولى تحل أبعاد الاختيار الحسني للخروج من الأزمة، ولا تراه غير قابل للمناقشة، وإن تأخذ بعين الاعتبار القرار النهائي الذي يصير إليه المستشارون، وهكذا يأتي أوا الرسالة السلطانية: «... ولتعلموا أنكم لن تزالوا في سعة، فإن ظهر لكم ذل فالأمر يبقى بحاله، وإن ظهر لكم ما هو أسد وأحوط في الدماغ عن المسلم فأعلمونا به، إذ ما نحن إلا واحد من المسلمين».

---

(1) «الدرر الجوهرية. في مدح الجلالة السنية»: ج 2 مخطوط خ. ح. رقم 512: في نس غير مرقمة الصفحات، وهذا المصدر غير تاريخ المؤلف للدولة العلوية باسم «الد المنتخ المستحسن».

وطبقاً لتعليمات هذه الرسالة: قام كل من عاملي فاس وسلا بحشد الناس ـ خاصتهم وعامتهم ـ إلى المسجد الجامع، لسماع الكتاب الحسني ومناقشته، وفي فاس ـ حسب الوثيقة الثانية ـ «جمع عموم الناس والخصوص بجامع القرويين لسماع تلاوة الخطاب المنوه به، وقرىء على المنبر قراءة تفهيم لما تحت عباراته، حتى أدركه الأمي والقاري، والمستوطن والطاري».

ثم أنعقد الاجتماع الثاني ـ بجامع الأندلس ـ لتلقي أجوبة المستشارين حسب أصنافهم، فكان أعلب هؤلاء واقعيين في مناقشاتهم، انطلاقاً من العلماء، إلى الأشراف، إلى المرابطين والعامة والتجار.

ولما رفعت الأجوبة إلى السلطان ـ حسب الوثيقتين 15، 16 ـ نوه بالمستشارين الذين كانوا صرحاء في أجوبتهم، ثم عتب على الذين وافقوا على الاختيار الملكي دون تعقيب.

ومن هنا: فإن الوثائق التي نقدم لها تكشف عن لون من الديمقراطية في مبادرة السلطان، وفي التجاوب معه من جهة أكثر المستشارين.

ومما يعمق آفاق هذه البارقة الديمقراطية: موقف بعض الحاضرين لسماع الخطاب الملكي بفاس وسلا، فقد جهروا بمعارضتهم للحل السلمي، ونادوا بالدعوة للجهاد لحل الأزمة، وذلك ما تقدمه رسالة عامل فاس ـ بالوثيقة الثانية ـ في هذه الصياغة: «... حتى انتدب في القوم رجل ـ أبله ذو أحوال ـ ينادي بالجهاد، وتابعه على ذلك بعض الصبيان والأخلاط الذين لا مقر لهم ولا مهاد...».

وعن سلا يقول الناصري[1] بعد عرض الرسالة السلطانية «ولما قرىء هذا الكتاب على خاصة الناس وعامتهم أجابوا كلهم بأن الرأي ما راءاه السلطان وفقه الله، إلا ما كان من بعض العامة الأغمار ـ الذين لم يجربوا الأمور، ولا اهتدوا إلى النظر في العواقب ـ فانهم قالوا: ما نعطيكم إلا السيف، لأكن لم يلتفت إليهم».

---

(1) الاستقصا 9/184.

ومن جهة أخرى: فإن من مؤشرات ترحيب العلماء بظاهرة الاستشا
الحسنية: أن فقهاء فاس حرروا في النازلة جوابين احتفظ بأحدهما ابن الحاج[1]
ثم نشرهما ـ معا ـ محمد المهدي الوزاني في «النوازل الصغرى»[2]، وأثبت ا
زيدان[3] مصورة عن أصل أحدهما.

كما أن الناصري كتب جواباً ـ عن الموضوع ذاته ـ في رسالة مطولة أثبت
بنصها في «الاستقصاء»[4].

ومن جهة أخرى فإن بيعة فاس الحفيظية: استغلت الاستشارة الحسنية ف
هذه النازلة وسواها، فنظرت بها وهي تطلب من الحفيظ بعث هذه الظاهرة، فتقو
البيعة ضمن مطالب الأمة:

«... وإذا عرض ما يوجب مفاوضة مع الأجانب في أمور سلمية
تجارية: فلا يبرم أمر منها إلا بعد الصدع به للأمة، كما كان يفعله سيدنا المقدس
المحافظ للذمة».

والآن: ينتهي بنا المطاف إلى عرض نصوص الوثائق الستة عشر، استناداً إ
سياق ابن الحاج في الدرر الجوهرية، وقد تبينا أنه أثبتها جميعاً، مع مقابلة الرس
الأولى بنظيرتها الواردة في «الاستقصاء»[5]، ومعارضة الوثيقتين ـ 15 و 16
بنظيرتيهما في «إتحاف أعلام الناس»[6].

---

(1) هي التي تحمل رقم 4 بين الوثائق التالية.
(2) ط. ف. 1/321 ـ 325.
(3) «اتحاف أعلام الناس» 2/: امام ص 390.
(4) 9/184 ـ 193.
(5) 9/182 ـ 184.
(6) 2/389 ـ 393.

1 ـ ظهير شريف في شأن طلب بعض الروم تسريح بعض المسائل

الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم.

الحسن بن محمد الله وليه ومولاه.

وصيفنا الأسعد الأرضي، الطالب عبد الله بن أحمد، وفقك الله، وسلام عليك ورحمت الله.

وبعد فقد كان طلب بعض نواب الأجناس بطنجة على وجه الخير والمحبة ـ فيما سلف من أعوام ـ تجديد شروط التجارة بقصد تسريح المسائل الممنوعة الوسق: كالحبوب مطلقاً، والأنعام والبهائم، ونحو ذلك، ونقصان صاكة الخارج، ذاكرين أن تسريح ذلك فيه النفع لبيت المال وللرعية، وهذه مدة من خمسة أعوام ونحن ندادفع ونسادد ونقارب بما يقتضيه الوقت والحال، عملا بقول سيد الوجود ﷺ في وقائع وقضايا: «سددوا وقاربوا»، حرصاً على إبقاء ما كان على ما كان، إذ لا أقل منه سيما في هذا الزمان، الذي أشار له ﷺ بقول: «يأتي على الناس زمان يمر فيه الحي على قبر الميت فيقول ليتني مكانك»، وحاش لله أن نتسبب للمسلمين في غلاء، أو نوافق لهم على ضرر، وكفى بالله شهيداً، وكيف والله سبحانه قد استرعانا عليهم، والنبي ﷺ يقول: «كلكم راع وكل راع مسؤول عن عيته».

والآن اشتد حرصهم على ذلك وتمالوا فيه على كلمة واحدة وصمموا عليه، ولما افضي الحال إلى ما أفضي إليه مما لا ينبغي، ولم يمكن (إلا) الاعلان بذلك والمشاورة فيه مع من يعد به: استشرنا فيه مع جميع من يشار له بالخير والفضل والدين والعقل والذكاء والدهاء، موثوقاً بديانته وأمانته، فلم يشيروا فيه بخير، واتفقوا أن لا مصلحة في تسريح ذلك أصلاً، وبينوا ما يترتب على الكل من المفاسد.

ففصل الحيوان أول ما يترتب على تسريحه من الضرر غلاؤه على ضعفاء الرعية، بل يؤدي إلى فقده بالكلية من هذه الآيالة، وأشياء أخرى لا يفي بها التعبير هنا.

وفصل النقص من صاكة المراسي يترتب عليه ضعف المدخول الذي منه يقوم

المخزن الجيش والعسكر ومصالح الرعية، وأعظمها تضعيف الرعية بالقبض لهم: كتضعيف المكوس وضرب الخراج عليها تقوية لبيت المال والجيوش.

وما أبداه بعض نواب الأجناس الراغبون في تسريح ذلك من المصالح المالية المائدة على عيتنا السعيدة على مقتضى ما ظهر لهم: ردوه بما يطول سرحه ولا يفي به قرطاس.

ولما رأينا الأمر استحال إلى أسوإ حال أو كاد، تداركنا هذا الخرق بالرفئ، وجنحنا إلى السلم امتثالا لقوله تعالى: ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها﴾ الآية، وارتكبنا أخف الضررين.

فاقتضى نظرنا الشريف ـ ان ظهر لكم درءاً لتلك المفاسد المقدم على جلب المصالح ـ أن يساعدوا على تسريح مسائل بقصد الاختبار من تلك الأمور الممنوعة الوسق: كالقمح والشعير وذكر إن البقر والغنم والمعز والحمير ثلاث سنين فقط، على شريط الاختبار في المنفعة التي ذكروها في تسريحه، الكل باعشاره المعلوم في مثله، على أن يكون تسريح ذلك ـ في وقت غلته مع وجود الخصب ـ مدة من ثلاثة أشهر، وبعد مضيها يثقف، ولا يسمع من أحد كلام في تسريحه، ولا يقبل منه عذر فيه، وفي العام القابل ـ إذا كان صالحاً ـ يسرح ثلاثة أشهر بقصد الاختبار أيضاً، وإذا كان ناقصاً لا يقع اختبار بتسريحه المدة المحدودة، ويبقى مثقفا، على أن ذلك ليس بشرط، وإنما هو على سبيل الاختبار حتى يظهر.

ولتعلموا، أنكم لن نزالوا في سعة، فإن ظهر لكم ذلك فالأمر يبقى بحاله، وان ظهر لكم ما هو أسد وأحوط في الدفاع عن المسلمين فاعلمونا به، إذ ما نحن إلا واحد من المسلمين.

وأعلمناكم بما كان لمتثالاً لقوله تعالى: ﴿وشاورهم في الأمر﴾، وتأسيا بالشارع، والاقل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة، والله خير الرازقين، والسلام.

في: 6 رجب الفرد عام 1303

2 ـ جواب السيد عبد الله عن الظهير
أعلاه اجمالا وأولا لمولانا

الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم.

يعلم مولانا ناصر ملة الاسلام، وحامي البيضة التي لا زالت ـ بوجوده ـ خافقة الأعلام، المستفرغ في المدافعة عنها نفائس أوقات الليالي والأيام، المعتصم في مجاهدته بعزة الله وعناية جده عليه الصلاة والسلام، أبقى الله خالص أعماله محقق النتائج، وحاصل أمله في تزايد لا يقاوم برمل عالج.

إنه ورد على شريف كتابه الهائل أمره، المعنون عن تحمل مولانا في الدفاع عن المسلمين ما لا يستطاع شكره، معلماً بما كان طلبه بعض نواب الأجناس من تجديد شروط التجارة بقصد تسريح ممنوعات الوسق التي بها قوام الأنفاس: كالحبوب مطلقاً، والأنعام والبهائم، والنقصان مما يترتب على الخارج من قدر الصاكة اللازم، محسنين مطلبهم بما في ذلك من النفع لبيت المال، والرعية المستغنية بعزة المتعال، وطول أمد مدافعة مولانا عن ذلك، واهتمامه في نصيحة المسلمين جميع الطرق والمسالك، إلى أن اشتد منهم ذلك التمالوء والحرض والتصميم، وأفضى الحال إلى ما لا يمكن معه إلا المشورة مع من له في مقامها أهلية وتقديم، فلم يشر أحد ممن يعتد به في ذلك بمصلحة، وأبدوا ما يترتب عليه من المفاسد الواضحة: كالغلاء وضعف مدخول الخراج، إلى غير ذلك من المضار التي لها تحت ما ذكر انطواء واندراج، وردهم ما وجه به الراغبون من المصلحة المالية بما يطول.

مولانا ما استحال إليه الأمر برفء خرقه، وارتكاب أخف الضررين، جرياً على ما عهده المسلمون من شفقته ورفقه، وهو ما اقتضاه النظر الشريف من مساعدتهم على تسريح القمح والشعير وذكران البقر والغنم والمعز والحمير، ثلاثة أشهر في كل عام من ثلاثة أعوام، على شرط اختبار المنفعة التي ذكروا، ووجود الخصب ووقت الغلة وأداء الاعشار المعلومة الإلزام، واستأشر ـ أيده الله .. رعيته في هذا الوجه أن ظهر، أو ابداء ما رأوه أسد وأظهر.

فليعلم سيدنا أني لما قرأت الكتاب وجولت النظر في بداية إفشائه لمن توجه إليهم الخطاب، ترجح عرضه ـ أولا ـ على أهل الأنظار: كالقاضي وبعض العلماء والمحتسب والنقباء والنظار، فعرض عليهم بمحل مخصوص، واتفقت أراؤهم على تأخير الجواب حتى يمعن النظر، ويعاد عرضه على عموم الناس والخصوص.

فجمع الناس بجامع القرويين لسماع تلاوته، وقرىء على المنبر قراءة تفهيم لما تحت عباراته، حتى أدركه الأمي والقارىء والمستوطن والطارىء، وانهملت العيون بمدرار الدموع، وانفطرت القلوب بالزفرات الثائرة بين الأحشاء والضلوع، وظهر في الناس اضطرار عظيم، وابتهال بسؤال المعونة والتأييد من الله لمولانا بقلب صميم، والتصريح بالخروج فيما يأمر به لو يجدي على النفس والمال، ابتغاء مرضاة الله وطاعة خليفة سيد الإرسال.

حتى انتدب في القوم رجل أبله ذو أحوال ينادي بالجهاد، وتابعه على ذلك بعض الصبيان والاخلاط الذين لا مقر لهم ولا مهاد، ومبلغهم من العلم أن ذلك عين الطاعة، وأربح تجارة وبضاعة، فأخرج الرجل المنادي إخماداً للهرج والترويع، وانفصل المجلس على إعادة الجمع بجامع الأندلس لتلقية جواب الجميع.

ثم وقع الجمع به في اليوم المعهود، وذكرت كل طائفة ما تلقاه منهم الشهود، حسبما بالرسم الواصل لسيدنا حاوياً لذلك، وبمحوله خطوط القاضي والعلماء بما اختاروه في الجواب عما هنالك، مع تقييد خاص من عندهم خارج عن الجواب[1]، طلبوا إنهاءه ـ أيضاً ـ لشريف الأعتاب.

كما وجهت الكتاب الشريف للزاوية الإدريسية بزرهون، وسمع تلاوته ـ بجامع خطبتها ـ العلماء والاشراف والمرابطون، ومن خضر من الزراهنة أهل المداشر، وكل طارق وعابر، فأجابوا ـ أيضاً ـ بما يصل لسيدنا طيه.

---

(1) التقييد المشار له هو الذي أثبت ابن زيدان مصورة من أصله في «اتحاف أعلام الناس» ج 2 قبالة ص 390، كما نشر نصه محمد المهدي الوزاني في «النوازل الصغرى» 321/1 ـ 223، ط. ف.

وكل من أجاب استحسن ما ارتضاه نظر مولانا وامضاه، والتزم العمل بمقتضاه، معترفين بكون سيدنا لا يختار للمسلمين إلا ما كان خيراً، وأن الإدراكات لو اجتمعت على قلب واحد ما بلغت شأوه تجربة وسبرا، وسيجعل الله بعد عسر يسرا، وما زاده بعضهم في جوابه هو قيد فيما اقتضاه أن سلمه، وعلى [1] لمولانا، والسلام.

20 شعبان عام 1303

3 ـ شهادة عدلين بالجواب الأول

الحمد لله، لما ورد كتاب مولانا أمير المؤمنين، الموجه عنان العناية لحماية المسلمين، ذي المفاخر التي شهد بفضلها الخاص والعام، والمآثر المكاثرة للغمام، الذاب عن حرم الإسلام، القائم بشريعة جده عليه الصلاة والسلام، الحاوي كل وصف بسن، فخر الملوك أبي علي مولانا الحسن، أطال الله وجوده، وأبقى في الصالحات أفعاله المحمودة، على خديمه الناصح في خدمته، القائم بامتثال شريف أمره في سره وعلانيته، الفقيه العالم البركة: سيدي عبد الله بن أحمد.

بأن بعض نواب الأجناس بطنجة طلب ـ فيما سلف من أعوام ـ تجديد شروط التجارة بقصد تسريح المسائل الممنوعة الوسق: كالحبوب مطلقاً، والأنعام والبهائم ونحو ذلك، ونقصان صاكة الخارج، ذاكرين أن تسريح ذلك فيه النفع لبيت المال وللرعية، وأنه ـ نصره الله ـ لما رأى الأمر استحال إلى سوء حال أو كاد، جنح للسلم بارتكاب أخف الضررين.

فاقتضى نظره الشريف مقدماً لدرء المفاسد المقدم على جلب المصالح: أن يساعدوا على تسريح مسائل بقصد الاختبار من تلك الأمور الممنوعة الوسق: كالقمح والشعير وذكر أن البقر والغنم والمعز والحمير: ثلاث سنين فقط، على شرط الاختبار في المنفعة التي ذكروها في تسريحه، الكل بأعشاره المعلوم في مثله، على أن يكون تسريح ذلك ـ في وقت غلته مع وجود الخصب ـ مدة من ثلاثة

---

(1) بياض مقدار كلمة.

أعوام، وبعد مضيها يثقف ولا يسمع من أحد كلام في تسريحه، معلماً ـ نصره الله ـ أن الأمر لا زال في سعة، ومستشيراً ـ أيده الله ـ فيه مع أهل الإشارة من رعيته، مقتفيا في ذلك بجده ﷺ، بحيث أن ظهر ذلك بقي الأمر بحاله، وان ظهر ما هو أسد وأحوط في الدفاع عن المسلمين فليكن الاعلام به.

أمر الباشا المذكور ـ رعاه الله ـ ولديه الفقيهين الجليلين الأفضلين: الخليفة الأسعد، سيدي محمد، والفقيه المدرس العالم سيدي المختار: بالنيابة عنه بالقيام بذلك، لما قام به من العذر المقبول، وأحضرا العلماء والشرفاء، والأعيان والتجار والنبلاء، وأهل الرأي والدهاء، وعامة الناس، بجامع القرويين عمره الله بذكره، وقرىء عليهم الظهير الشريف حتى استوعبوا ـ فهما ـ الخطاب المنير، وطلبا ـ رعاهما الله ـ ممن يعتد برأيه ممن ذكر الجواب عما ذكر بما يظهر لهم بعد التأمل وإمعان النظر، وفق ما أمر به مولانا المنصور بالله.

ثم اجتمع المشار لهم بعد فسحة الإمهال، ورجوع ما جمع من العقل والبال، بجامع الأندلس عمره الله، وانتظم كل ذي وصف بصاحبيه، وتشاوروا فيما بينهم في ذلك، فأجابت كل فرقة ممن بين أسفله بما قيد عنهم بالإشهاد عليهم به أو بخط اليد، والسلام.

فمن حضر لما ذكر كما ذكر، قيده في حادي عشر شعبان المبارك، عام ثلاثة وثلاثمائة وألف.

4 ـ جواب العلماء وفر الله جمعهم بمحول شهادة العدلين

الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

بعدما ورد الظهير الشريف ـ المكتوب بمحوله ـ على الباشا الأسعد، السيد عبد الله بن أحمد، في شأن ما طلبه بعض نواه الإجناس بطنجة من تسريح ما طلبوه من الوسق إلى آخر ما تضمنه حسبما حوله، مشيرا ـ أيده الله وسدده ـ أهل الإشارة من رعيته، واطلعنا عليه وفهمنا مضمنه.

أجبنا بمثل ما أجاب به أهل الصلاح والخير والدين المشار لهم بالظهير الشريف: من أنه لا خير في تسريح ما ذكر لهم بوجه ولا حال، لا ظاهراً ولا باطناً، لما يترتب على ذلك من المفاسد التي لا تحصى، مع أن المسلمين والحمد لله ـ ببركة مولانا المنصور بالله ـ في شده القوة مالا ورجالا، وسيدنا ـ نصره الله وأدام عزه ـ لا نشك نحن ولا جميع المسلمين في شدة حرصه على جلب المصالح ودفع المضار عن الإسلام وأهله، ومن المقرر المعلوم أنه إذا اجتمع ضرران ارتكب أخفهما، ولا ريب في كون مولانا ـ المنصور بالله ـ اختار الأخف فيما اقتضاه نظره السديد من تسريح بعض ما طلبوه على الوجه المبين بالظهير الشريف بقصد الاختبار، لأكن لما شاور مولانا ـ دام مجده وفخره ـ فيما اقتضاه نظره السديد، تأسيا بالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ إذ شاور ـ عليه السلام ـ سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة ـ لما أحاطت القبائل بالمدينة ـ في أن يبذل للمشركين ثلث الثمار لما خاف أن تكون الأنصار ملت القتال، فقالا إن كان هذا من الله ـ سبحانه وتعالى ـ سمعنا وأطعنا، وان كان رأيا فما أكلوا منها في الجاهلية ثمرة إلا بشراء أو قرى، فكيف وقد أعزنا الله بالإسلام، فلما رأى رسول الله ﷺ عزمهم على القتال ترك ذلك، ابن عرفة عن المازري: فلو لم يكن الإعطاء عند الضرورة جائزاً ما شاور فيه رسول الله ﷺ. انتهى.

اقتضى نظرنا أن لا ينفذ لهم من الحيوانات شيء أصلاً، لما فيه من عظيم الضرر الفادح، لأنه يؤدي إلى قطعها بالكلية، وإنما يسرح لهم القمح والشعير لاختبار دعواهم النفع على الوجه المذكور في الظهير الشريف.

وعلى شرط أن يتسوقوه من المراسي فقط لا من غيرها، لأن التسوق بغيرها يؤدي إلى انقطاعه من المغرب بالكلية، وينشأ عنه مفاسد عديدة: كادعائهم نهب أموال كثيرة، وقتل نفس، وإذايتهم الحاضري والبادي بدعوى ذلك، ويتعذر الجبر.

وعلى شرط أن لا يسلموا فيه لأحد: لا من أهل الحاضرة ولا من أهل البادية.

وعلى أن يتسوقوا عـدداً لا ضرر فيه على المسلمين.

وإن أمكن أن يعين مولانا ـ المنصور بالله ـ أمناء ثقات في المراسي يكون التسوق ـ على الوجه المذكور ـ على أيديهم فحسن.

ونظر سيدنا ـ نصره الله ـ مع هذا أوسع، والمولى ـ سبحانه ـ يديم عز مولانا المؤيد بالله، ويحيـي به سنة جده عليه الصلاة والسلام، وفي التاريخ حوله.

حميد بن محمد بناني وفقه الله.

وعبد ربه جعفر بن إدريس الكتاني، منحه الله دار التهاني.

وعن إذن الشريف العلامة مولانا عبد الملك العلوي الضرير.

وأحمد بن محمد ابن الحاج.

وعبد ربه: عبد الله بن إدريس الودغيري، لطف الله به.

وعبد الهادي بن أحمد الصقلي، جعله الله من أهل الشهود والتجلي.

وعبد ربه: محمد بن أحمد الصقلي، لطف الله به.

وعبد السلام بن المهدي ابن سودة، لطف الله به.

وعبد ربه: الطيب ابن كيران، لطف الله به.

وعبد ربه ورهين كسبه: الماحي بن إبراهيم الصقلي، لطف الله به.

وعبيد ربه وأسير ذنبه: التهامي بن المدني كنون، لطف الله به.

وعبد ربه ورهين ذنبه: عبد الملك بن عبد الكبير العلمي، لطف الله به.

وعبيد ربه: أحمد بن محمد ابن الخياط الزجاري الحسني، كان الله له أمين.

ومحمد الحفيد بن محمد الشامي، لطف الله به.

ومحمد بن رشيد العراقي الحسني، كان الله له بمنه.

وعبد ربه، وأسير ذنبه: المكي بن أحمد الحسني الوزاني، لطف الله به.

5 ـ جواب الشرفاء العلويين المذكورين أسماؤهم يمنته أسفل شهادة العدلين بالجواب الإجمالي

الحمد لله، بعد أن فهم الشرفاء العلويون المسطرة أسماؤهم بالطرة يمنته ما أشار به مولانا المنصور بالله مما قيد مضمنه أعلاه: أجابوا جواب اتفاق بأنهم اختاروا ما اختاره ـ نصره الله ـ من السلم أو غيره، بحيث إن رجح بنظره السديد أحد الأمرين فقد اختاروه والتزموا الوقوف عنده.

فمن استوعب ما ذكر ممن ذكر، قيده عنهم في غد التاريخ أعلاه، مع معرفته لهم.

الشرفاء العلويون

النقيب مولاي المأمون بن مولاي الطيب.
النقيب مولاي محمد بن مولاي علي.
النقيب مولاي عبد القادر.
مولاي قاسم بن الحسن الصوصي.
مولاي مَحمد بن أحمد العلوي.
مولاي إدريس بن الطايع البلغيتي.
مولاي إدريس بن الشريف النسب.
مولاي بو بكر بن مولاي أحمد الشريف العلوي.
مولاي بن عبد الواحد النسب.
مولاي رشيد بن علي بن سلمان (كذا).
مولاي علي بن سعيد النسب.
سيدي محمد بن عمر بن اليزيد النسب.

6 ـ جواب الشرفاء الأدارسة بعده

الحمد لله، بعد أن فهم الشرفاء المسطرة أسماؤهم بالطرة يمنته مضمن الظهير المنيف:

أجابوا بمثل الجواب أعلاه حرفاً حرفاً فمن استوعب منهم ما ذكر كما ذكر قيده عنهم، وهم عارفون قدره وبأكمله، وفي التاريخ أعلاه.

الشرفاء الأدارسة

مقدم الروضة الشريفة سيدي فضول الرامي.
مولاي أحمد بن العربـي الصقلي.
مولاي الحسن بن سيدي حفيد الطاهري.
سيدي الحسن بن سيدي المكي العراقي.
سيدي العباس بن سيدي جعفر العمراني.
سيدي أحمد علي المسفر.
سيدي عبد الله بن عبد السلام الوزاني.
سيدي الكبير بن سيدي محمد الكتاني.
مولاي الكبير بن عبد السلام الأدريسي.
سيدي محمد بن سيد حفيد الدباغ[1].

7 ـ جواب الأمين الحاج عبد السلام المقري ومن معه

الحمد لله، أجاب الأمين الأرضي: السيد الحاج عبد السلام بن الفقيه سيدي محمد المقري والخليفة الحاج أحمد الرائس وأرباب البصر: الحاج الطاهر بناني والسيد العربـي الصفار: بمثل الجواب أعلاه حرفاً حرفاً.

فمن سمع منهم ما ذكر كما ذكر قيده عنهم، وهم عارفون قدره وبأكمله، وفي التاريخ أعلاه.

---

(1) يلاحظ أن هذه اللائحة سطر فيها الأدارسة والأشراف من غيرهم.

ومنه وكذا أجاب الناظر السيد الهادي صفيرة بمثل ما أجاب به الحاج عبد السلام المقري والحاج أحمد الرائس ومن ذكر معهما، صح به في تاريخه.

8 ـ جواب شرفاء أهل تلمسان

الحمد لله، بعد أن فهم شرفاء تلمسان الظاعنون بهذه الحضرة الأدريسية ـ المسطرة أسماؤهم يمنته ـ مضمن الظهير الشريف صدره: أجابوا بأنه لا نظر يوازي مولانا المؤيد، ولا رأي يداني رأيه المسدد، غير أن تسويق الروم لما ذكر فيه على كل الناس، من الضرر ما لا يحويه قرطاس، لأكن ما أنتجه مولانا ـ نصره الله ـ هو أحوط للرعية، وأجنح لهم من شدة البلية.

على أن يكون التسويق المدة المذكورة على الوجه المشار له من المراسي فقط، لا يتعدونها لسواها، ولا يتجاوزون غاية منتهاها، فلا يكون لهم تسويق عند أعراب أو في مدن، ولا يمكنون من سلم لأحد فيما يسرح، وإنما يضرب لهم الحد المحدود بتسويقهم من المراسي من غير افتيات ولا مجاوزة، وإلا لو مكنوا على الإطلاق، لعم الناس آفة الجوع وخسروا واختل الميثاق، والنظر التام، لمولانا الإمام، أبقى الله وجوده للأنام. في التاريخ أعلاه.

شرفاء تلمسان

النقيب مولاي أحمد بن سيدي عبد الله بن منصور.
مولاي أحمد بن مصطفى بن دلة.
سيدي الحسن بن سيدي محمد مسواك.
سيدي محمد بن أحمد الفرولي.
سيدي محمد بن محمد المليانى.
سيدي المختار بن الصديق العام.
سيدي الحسن بن حساين القيسي.
سيدي قدور بن سيدي محمد بو عبد الله.
سيدي أحمد بن محمد النسب.
سيدي يوسف المعسكري.

9 ـ جواب المرابطين

الحمد لله، أجاب المرابطون المسطرة أسماؤهم بالطرة يمنته بمثل الجواب أعلاه يليه حرفاً حرفاً، وزادوا أنه لو كان مولانا ـ المنصور بالله ـ ينصب وكيلاً عنه بالمراسي هو الذي يتولى التسويق لما أشير إليه، وهو الذي يباشر المعاملة معهم، بحيث لا يكون لهم إذن في مباشرتهم ذلك بأنفسهم أصلاً.

فمن استوعب منهم ما ذكر قيده عنهم في التاريخ أعلاه.

المرابطون

سيدي الحسن بن سيدي أحمد العبدلاوي.
سيدي علال بن عبد المجيد الفاسي.
سيدي الطيب بن سيدي البدوي زويتن.
سيدي حساين بن علي الحمومي.
سيدي عثمان بن سيدي عبد المجيد.
من آل الولي سيد أحمد ابن يحيى.

10 ـ جواب عامة أهل فاس

الحمد الله، بعد أن بين لعامة هذه الحضرة الادريسية المسطرة أسماؤهم يمنته مضمن الظهير الشريف صدره. وتأملوه وأمعنوه: أجابوا بمثل الجواب أعلا أعلاه يليه: من أنه لو حد التسويق من المراسي أيام تسريحه في المدة التي جنح مولانا المنصور بالله لكان أسلم، وللمصيبة أهون، على أن لا يمكن واحد من الروم من السلم لأعرابي أو مدني في حب أو انعام أو دواب.

فمن استوعب منهم ما ذكر قيده عنهم في التاريخ أعلاه.

أهل عدوة الأندلس

سيدي عبد الوهاب بن علال الشامي.

بو عزة بن علال التازي.
سيدي المهدي ابن العباس.
سيدي محمد بن عبد الواحد المشاط.
الحاج عبد الرحمن الرندة.
سيدي عبد الرحمن بو خريص.
الحاج عبد الكريم ابن حد.
الحاج المكي بن حفيد بو زبع.
الحاج محمد بن قاسم بريشة.
الحاج محمد بن الحاج محمد الجرندي.

اللمطيون

الحاج أحمد بن إبراهيم فرج.
الحاج العربي بن البدوي البواب.
الحاج أحمد بن علي الجرندي.
الحاج محمد بن عبد السلام الغماد.
الحاج محمد بن عبد الواحد السفاط.
سيدي محمد بن محمد منطرس.
سيدي محمد بن عبد الكريم بناني.
عبد السلام بن عبد الرحمن يزرور.
أحمد بن علال البيطار.
الحاج حمان بن الحسن بن المجدوب.
قدور بن عبد الغني ابن كيران.

أهل الأندلس «كذا»

الحاج عبد السلام بن العياشي بن زكري.
سيدي محمد بن السيد العربي الندلسي.
الحاج عبد الله بن الحاج التهامي بوزبع.

الحاج حرازم بن الحاج محمد العلج.
محمد بن الحاج محمد عباد.
الحاج أحمد بن السيد برادة.
الحاج الطيب بن الحاج حرازم جسوس.
الحاج حماد بن الحاج محمد الشادلي.
الحاج محمد بن قاسم بن عبد الجليل.
الحاج إدريس بن سيدي محمد ابن سالم.
سيدي محمد بن الشاوي بن مولود.
سيدي محمد بن قاسم البغدادي.
الحاج محمد بن السد العربـي بنيس.

11 ـ جواب التجار

الحمد لله، بعد أن فهم التجار بهذه الحضرة الإدريسية، المحفوفة السنية، مضمن الظهير الشريف صدره، وأيقنوه وعلموه، وهم المذكورون بالطرة يمنته: أجابوا بأن الرعية بها ضعف حال، وما طلب يأتي على جميعها باستيصال الهلاك العام، وما رآه مولانا المنصور بالله من تسريح الحبوب ـ المدة التي رآها المبينة أعلاه ـ ذلك أسد رأياً وأحوط.

على أن يكون مسواقها من المراسي فقط لا يتجاوز المتسوق دونها، ولا يجاوزها في حين، ولا يسلمون لأحد، ولو مكنوا من ذلك على عمومه لادعى أقوام منهم الانتهاب، وانه ضاع له عدة أموال، ونحو ذلك يلزم في تمكينهم من السلم، وفي كل يلزم الغرم لبيت المال عمره الله.

وأما فصل الحيوان فإنهم لو مكنوا منه ـ خصوصاً أو عموماً ـ لعم الناس البلاء، ونزل بهم ـ مدة العمر ـ الغلاء، وانقطعت عوامل الحرث.

وزاد النفر الخمس أسفل يمنته: بأنه لا تنقطع مادة الضرر إلا إذا حد القدر الذي يتسوقونه من الأوسق، وإلا استأصلوا هذا المغرب قحطاً.

فمن استوعب ما ذكر ممن ذكر قيده عنهم وهم عارفون قدره وبأكمله، وفي التاريخ أعلاه.

التجـار

الحاج علال بن عبد الرحمٰن بن زاكور.
الحاج محمد بن الحاج محمد النسب.
الحاج إدريس بن الحاج محمد بنيس.
سيدي محمد بن عبد السلام جسوس.
الحاج محمد بن عبد المجيد بن كيران.
الحاج محمد بن الحاج قدور النسب.
الحاج المدني بن أحمد التازي.
الحاج محمد بن العربـي القباح.
الحاج محمد بن الحاج عبد الكريم بناني.
المحتسب الحاج المهدي بن الحاج محمد النسب.
أحمد بن الحاج محمد السميرس النسب.
الحاج عبد المجيد بن الحاج محمد بن عبد الرزاق ابن شقرون.
الحاج علال ابن الحسن النسب.
الحاج مَحمد بن المعطي ابن يعيش.
عبد الرحمن بن الحاج عبد الغني الكوهن.
الحاج محمد بن الحاج عزوز بنونة.
الحاج محمد بن محمد بن الطيب برادة.
الحاج العربـي بن الحاج عبد الكريم ابن موسى.
سيدي عبد الوهاب بن عبد السلام التازي.
الحاج محمد بن المدني القباج.
الحاج محمد بن الحاج العساوي برادة.
الحاج محمد بن الحاج محمد بن المدني بنيس.
الحاج عبد القادر بن الحاج محمد النسب.

الحاج المعطي بن الحاج البرنوصي ابن مليح.
الحاج عثمان بن الحاج عبد الكريم التويمي بن جلون.
الحاج العربي بن الحاج محمد بنيس.

12 ـ جواب الحاج أحمد المراكشي

الحمد لله، أجاب التاجر الحاج أحمد بن الحاج مَحمد المراكشي بأن ما اقتضاه نظر مولانا المنصور بالله من مساعدة بعض الأجناس في تسريح ما بكتابه الشريف أعلاه: سديد، غير أن الاطلاق فيما ذكر يتوقع منه ضرر كثير، إذ المباشرون لما ذكر تجارهم، وإذا سلطوا على حب المغرب وذكر ان ما ذكر: ربما استأصلوه في أقرب مدة، لكثرة ما بأيديهم، وعدم مبالاتهم بارتفاع الاسعار، وتركوا الرعية جائعة لهفانة، والمعهود من عقال الأجناس أنهم لا يرضون هلاك أمة بالجوع.

فإن ظهر لمولانا أن يعين لهم قدر ما يتسوقونه في أشهر العام، بحيث يكون غير مجحف بالرعية: فهو أحوط، ونظر مولانا أسد وأتم.

فمن استوعب منه ما ذكر كما ذكر قيده عنه بعد معرفته، في غد التاريخ أعلاه.

13 ـ جواب أهل قصبة النوار

الحمد الله، بعد أن أطلع أهل قصبة النوار المسطرة أسماؤهم بالطرة يمنته على ما تضمنه الظهير الشريف مما أشير إليه صدره: أجابوا بأن مالهم ورقابهم لمولانا المنصور بالله، لأنهم من جملة جيشه المنصور المؤيد، وجنده الظافر المعضد، ولأجل ذلك كان اختيارهم فيما اختاره مولانا نصره الله، عارفين قدره وبأكمله، وعرف عين البعض وعرف بمن عداه، في ثامن عشر الشهر أعلاه.

أهل قصبة النوار

المقدم سيدي محمد بن الحاج محمد الفلالي.
الحاج عبد الله بن الحاج العربي النسب.

القائد الحاج محمد بن عبد الله النسب.
الحاج الصديق بن مبارك النسب.
الصديق بن المكي النسب.
سيدي محمد بن عمر النسب.
الحاج أحمد بن بوشتة النسب.

14 ـ جواب أولاد الحاج

الحمد لله، بعد أن بين لجماعة أولاد الحاج المسطرة أسماؤهم بالطرة يمنته ما تضمنه الظهير الشريف صدره: أجابوا بأن ما أجاب به أهل فاس هو جوابهم، لأنهم في حكم أهل فاس، معدودون في حومة من حومها، عارفون قدره وبأكمله، شهد به عليهم في حادي وعشري الشهر أعلاه.

أولاد الحاج

الشيخ قدور بن بزيان الجراري.
الشيخ الجلالي المعروب.
الحاج علي بن السبع.
عبد الله بن العياشي العشي.
محمد بن عبد الله الحميري الحافي.
مبارك بن قدور العشي.
أحمد بن عيسى الناصري.
قدور بن سليمان المجاني.
على بن الطيب الناصري.
قدور بن الأخضر الجلالي.
الجلالي بن يعكوب الحميري.
محمد بن عيسى العجالي.
قدور بن عبد الكريم العجلالي.
لكبير قدور الزناتي.

محمد بن سعيد القفيري.
الحاج محمد بن قدور الزناتي.
محمد بن دحمان النسب.
الطالب مبارك بن أحمد الحميري.
البقال بن علي القفيري.
سعيد بن عبد الكريم العشي.
محمد بن عبد القادر الحميري.

15جواب مولانا عما كتب به الفقهاء خصوصـاً

الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

الحسن بن محمد الله وليه ومولاه، الفقهاء الأرضين المبرزين من القضاة والعلماء بفاس، الحماة الهداة الذين للعامة من مصباحهم اقتباس، وفر الله جمعكم، وصان من كدر الحوادث نبعكم، وشكر سعيكم، وأدام لصالح العمل هديكم، وسلام الله عليكم ورحماته وتحياته وبركاته.

أما بعد: فقد وصل ما قيدتموه فيما استشرتم فيه من تسريح ممنوع الوسق وذكر إن الحيوان لبعض الأجناس، المقررة لكم شروطه المبينة من الاختيار والاحتياط على أساس، ناهجين في ذلك منهج حكم الكتاب وصحيح الأخبار على سبيل الإطلاق، الذي لا يخلو فيه لقيود المصلحة اعتبار؛ مستظهرين كون منعهم من ذلك ـ أن اقتضاه النظر ـ أولى من الاسعاد، ولو أفضى لعقد مدة تنقضي لتمام حصول القوة والاستعداد، لصدور ذلك منكم عن عقائد أمسك الإيمان زمامها، وعزائم جردت بيد التوكل حسامها، فأوريتم بذلك زناداً، وناجيتم به في مسرح الضمائر مراداً، إذ هو في الحقيقة إفصاح بالواجب، وصدع بأمر الله الذي ليس للعزائم عنه حاجب، فقمتم فيه بلازم الوظيف، وتخلصتم ببثه من وعيد الكتمان المقرر بالذكر المحكم والحديث الشريف، وأديتم بذلك واجب النصيحة التي هي

عنوان صدق العقيدة، وعضد الإيمان الذي به يمنح المفاز مقلديه، على أن النصيحة شرط في البيعة وفرض على كل مسلم، فكل قلب خلا من كوكبها المنير مظلم، كما أخرجه الشيخان عن جرير قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت أبايعك على الإسلام، فشرط علي والنصح لكل مسلم، إلى آخره، وقوله ﷺ فيما أخرجه الطبراني: «من لا يهتم بأمر المسلمين فليس منهم، ومن لم يصبح ويمس ناصحا لله ولرسوله ولإمامه ولعامة المسلمين فليس منهم».

وتنبيهكم على الحمل على موافقة الدين، والتفصي مما ينافي سنة سيد المرسلني: أتيتم فيه بحق التذكير والوعظة، وطرد سوام التواني عن الهمم المستيقظة، إذ التساهل في إتباع السنة رأس المهالك، وداعية النوائب التي تضيق بها المسالك، لقوله ﷺ: «لكل عمل شرة ولكل شرة فترة، فمن كانت شرته إلى سنتي فقد اهتدي، ومن كان شرته إلى غير ذلك فقد هلك»، على أن من صلح فبهداية الله، ومن أساء فذلك في الحقيقة ابتلاء بطريق العدل من مولاه، فكلا العملين بالهامة وتوفيقه، وكل يعمل على شاكلته وطريقه، لقول تعالى: ﴿فألهمها فجورها وتقواها﴾، ولقوله ﷺ فيما أخرجه الطبراني: «وإعملوا فكل ميسر لما خلق له»، من خلقه الله لواحدة من المنزلين وفقه لعملها.

وإننا ـ لمزيد عنايتنا بالرعية وشفقتنا عليهم ـ لنتحمل السهر لتنام أجفانهم، ونرضي بطول الكد لتستريح في الأجل ولدانهم، ولا نالوا في إرادة الخير بهم جهداً، وإقامة معالم السنة فيهم هدياً ورشداً حيث استودعنا الله إياهم، واسترعانا صغراهم وجلاهم، وفيما أخرجه الإمام مسلم «ما من أمير يلي أمور المسلمين ثم لم يجهد لهم وينصح لهم إلا لم يدخل معهم الجنة»، فلا نمهل في تدبيرهم نصحاً، ولا نهمل ـ بحول الله ـ ما يثمر لهم نجحاً، ونمرد لهم من قوارير العزة صرحاً، وقد أخذتم في اهتمامكم بالمتعين أحكاماً لعمل وظيفكم المعتاد، وأداء لما طوقتموه من شد عضد الهداية والإرشاد.

هذا ولما كانت المصلحة في هذا الوقت اقتضت ما استشرناكم فيه، وأوجبت ـ بطريق النظر ـ تسكين ما ينافيه: قدمناه ريثما تقترن طوالع العزم ـ إن شاء الله ـ في بروج سعده، ويأتي الله بالفتح من عنده، وما زلنا ولا نزال ـ بحول الله ـ نصرف

العوارض ما أمكن بنظر الرعاية والمصالح، ونذوذ عن جانب الرعية عقربها بسماك رامح، والله نسأل أن يجرينا على ما تعودناه من المعونة والإمداد، ويغنينا بتدبيره عن أقيسة التدبير والارتصاد.

والسلام في 22 رمضان عام 1303هـ

16 ـ جواب مولانا أيده الله تعالى لكل من أجاب مولانا ممن عين قبل

الحمد الله وحده، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم.

وصيفنا الأرضي الأنجح، الطالب عبد الله بن أحمد، وفقك الله، وسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

وبعد: وصل جوابك عما أصدرناه استشارة لأهل فاس، فيما استظهرنا المساعدة عليه لبعض الأجناس: من تعليق وسق بعض ما طلبوه على ما قرر لكم من الشروط، التي اعتبار المصلحة فيها بقيد الاختبار منوط، شارحاً ما ظهر منهم عند عرضه عليهم من الاضطرار، الدال على تخليص مناهلهم من كدر الاغترار، ومعلماً بتوجيه الرسمين المتضمن أحدهما لجواب كل عصبة من طوائفهم المتيامنة، والآخر لجواب أهل الزاوية (الكبرى مع الزراهنة)، مع تقييد في ذلك خاص لعلماء فاس.

فأما تقييد العلماء فوصل، وبإقبال نظرنا السديد اتصل، وقد أدوا فيه الواجب تذكيراً ونصحاً، وصدعوا من الحق بما يشيروا به في منهج الهداية صرحاً.

وأما الرسمان فطولع بهما علمنا الشريف كذلك، واستوعب النظر فيهما بطريق الاستقراء ما هنالك، فأعربا عن مضمن المشهود عليهم بوجه يستوفيه، وقررا حكم اهتمامهم بنتيجة الاستشارة مع تفاوتهم فيه.

فأما أهل تلمسان فقد أحسنوا في إشارتهم بكون تسويق ما أشير له من المراسي فقط، دون المدن والبوادي، مع عدم التمكين من السلم لأحد، وأدوا

بذلك واجب النصيحة، عن عزائم صحيحة، ولا غرابة في ذلك، إذ ليس من رأى كمن سمع، فجزاهم الله خيراً.

وكذلك المرابطون والتجار، مع من خص إخضاره من أهل الحومات الذين نحوا نحو أهل تلمسان، مع استظهار المرابطين نصب وكيل بالمراسي وعدم الضرب على يده، وزيادة التجار عدم التمكين من الحيوان مطلقاً، واستدراك البعض منهم تحديد ما يوسق من الحب بمقادر لا يتجاوز حده، وتنبيه الحاج أحمد المراكشي على تقييد المتسوق في أشهر العام، بحيث يكون غير مجحف بالرعية، فجزى الله الجميع خيراً، وعاملهم بمقتضى نياتهم سراً وجهراً.

وأما الشرفاء العلويون ومن بعدهم من أهل النسبة، مع المقدم الرامي ومن تلاهم من الأمين المقري والحاج أحمد الرايس وأرباب البصر ومن نحا نحوهم: في رد الأمر إلينا فيما أبدينا استظهاره، والموافقة والاقتصار عليه من غير نتيجة استشارة، فقد أدوا في ذلك من الواجب بعضه، حيث لم يشيروا بمقتضى سبر الأمر بعد مسهم نبضه.

وأما أهل زرهون فمن قبيل هاؤلاء، غير أنهم معذورون، إذ لم يبلغوا مبلغهم في الذكاء، والحذق والدهاء.

على أننا ما زلنا ولا نزال ـ بحول الله ـ نصرف العوارض ما أمكن بنظر الرعاية والمصالح، ونذوذ عن جانب الرعية عقربها بسماك رامح، والله نسأل أن يجرينا على ما تعودناه من المعونة والامداد، ويغنينا بتدبيره عن أقيسة التدبير والارتصاد.

وها جواب العلماء عما كتبوا به يصلك صحبته، والسلام.

في 22 رمضان المطهر عام 1303هـ.

صح من «الدرر الجوهرية» بعباراته.

مجلة، «دار النيابة» ع 8 سنة، 1985

معالم ثقافية في مراكش الموحدية
من خلال وثائق موضوعية
مهداة إلى الأستاذ الكبير أحمد الشرقاوي إقبال

عرفت مراكش الموحدية منشئات تعليمية ذات أقدمية، غير أنها أغفلتها المصادر التاريخية الموضوعية، بينما حافظت على ملامحها وثائق أو نصوص دفينة.

وهدف هذا التدخل الكشف عن تلك المنشئات من خلال الإشارات الغميسة، والمعني بالأمر ثلاث مدارس، وأربع خزائن، مع القبة المنصورية، وخارجاً عن مراكش: المسجد العتيق بتيمنل، والروضة المقدسة بتينمل.

أولاً ـ المدارس الموحدية:

وكما تبينا فهي ثلاثة: اثنتان منها بالقصبة الموحدية أو المدينة المنشية، وهي التي شادها يعقوب المنصور جنوب مراكش العتيقة، أما الثالثة فكانت بمراكش القديمة.

1 ـ ويعود الفضل في الحفاظ على خبر المدرسة الأولى: إلى العمري، فيذكر عند مادة مراكش من مسالك الأبصار[1]: الرحبة الكبرى أمام باب الرياض: الباب الثالث للقصبة، ويعقب قائلاً: «وفي هذه الرحبة المدرسة، وهي مكان جليل به خزائن الكتب».

---

(1) محمد المنوني: «ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين» مطابع الأطلس ـ الرباط: ص 302 ـ 303.

والغالب أن هذه المؤسسة، هي التي يوضح الوزان الفاسي[1] معالمها وهو يصف قصور مراكش الجديدة، فيأتي ـ خلال ذلك ـ بهذه الارتسامة: «ويوجد ـ أيضاً ـ بعيداً من هناك قصر جميل آخر، كان يستعمل مدرسة لأبناء الملك وأبناء أسرته، ترى فيه قاعة مربعة في غاية الحسن، يحيط بها ممر، مع نوافذ رائعة ذات زجاج ملون، وحول القاعة خزانات كثيرة...»:

2 ـ وإلى هذه المدرسة الخاصة: كان في قصبة مراكش مدرسة عامة، وكانت أول إشارة لها، سجلت في فقرة قصيرة يحتفظ بها مخطوط من نفس العصر، وجاءت صياغتها كالتالي: «حبس على المدرسة بقصبة مراكش حرسها الله» وقد رسمت هذه الوقفية ـ بخط عتيق ـ أول كتاب «الإنجاد في أبواب الجهاد...» لابن أصبغ الأزدي، في نسخة كتبت برسم إدريس الواثق آخر الحكام الموحدين، ثم صارت إلى مكتبة ابن يوسف، حيث تحفظ بها تحت رقم 216.

ولتأكيد استمرار هذه المدرسة إلى أواسط القرن 14/8: تأتي وقفية العاهل المريني أبـي عنان، لكتاب «مشارق الأنوار» للقاضي عياض، وهو في نفس المكتبة رقم 1/284، فيبتـدئ الباقي من الوثيقة العنانية هكذا: «... الكائنة بالمدرسة التي بجوف (أي شمال) جامع المنصور بمراكش».

وستفيد هذه الفقرة ـ أيضاً ـ تحديد موقع المدرسة عند شمال جامع المنصور، بعدما عرفتنا بوجودها إلى أواسط القرن 14/8.

على أن الوزان الفاسي، يفيد بقاء المدرسة إلى عصره: عند القرن 16/10، ويصنف وصفها[2] كالآتي: «وفي القصبة ـ أيضاً ـ مدرسة في غاية الحسن، أو على الأصح مؤسسة معدة للدراسة وسكنى مختلف الطلبة، تحتوي على ثلاثين حجرة، وقاعة فـي الطبقة الأرضية كانت تعطى فيها الدروس فيها سبق، وكان كل طالب مقبول في هذه المدرسة ينفق عليه، ويكسى مرة في السنة، ويتقاضى الأساتذة مرتباً

(1) «وصف إفريقيا»: الترجمة العربية، دار الغرب الإسلامي في بيروت، الطبعة الثانية 1983: 133/1.

(2) «المصدر» 131/1 ـ 132.

قدره مائة أو مائتا مثقال، حسب نوع الدروس المطوقين بإلقائها، ولم يكن «يقبل في هذه المدرسة إلا من كان يعرف مبادىء العلوم معرفة تامة».

وهكذا يصف الوزان الفاسي، الوضع الدراسي في هذه المؤسسة إبان ازدهارها، ويقدمها كمدرسة عليا، لا ينخرط فيها إلا الطلبة الحاصلون على درجة تامة في معرفة مبادىء العلوم.

ومن هنا ينتقل المصدر[1] ذاته إلى الوصف المادي للمدرسة هكذا: «وهذه البناية مزخرفة بالفسيفساء البديعة، وحيث لا توجد فسيفساء تغطي الجدران الداخلية بزليج من الطين المشوي اللماع: المقطع على شكل أوراق رقيقة، أو بمواد أخرى بدل الفسيفساء، وذلك على الأخص في قاعة الدروس والممرات المسقوفة.

وفناء المدرسة المكشوف كله مفروش بالزليج اللماع، كالذي يستعمل في إسبانيا، وفي وسط المدرسة فسقية منحوتة من المرمر الأبيض في غاية الجمال، لكنها منخفضة على عادة الأفارقة».

ويختتم الوزان بوصف حاضر المدرسة قائلاً: «وكان بالمدرسة قديماً ـ حسبما سمعت ـ عدد كثير من الطلبة، لكنهم اليوم لا يتجاوزون خمسة طلاب، مع أساذ جهله بالفقه فاحش، ليس له سوى معرفة سطحية غامضة بالأداب، وأقل من ذلك بعلوم أخرى».

وعند هذا التعليق: ينتهي وصف مدرسة جامع المنصور بالقصبة، ومنه نستفيد ـ أيضاً ـ الشكل المعماري للمدرسة الموحدية، وهي فائدة مهمة، وستسمح لنا بأن نستنتج أن المرينيين لم يبتكروا تصميم مدارسهم، وإنما قلدوا الموحدين مع زيادة إضافية.

* * *

3 ـ ونصل ـ الآن ـ إلى ثالثة المدارس بمراكش الموحدية، وهي التي كانت

---

(1) 1/132.

بالمدينة القديمة، والمصدر الذي حافظ عليها، هو وثيقة مكتوبة على السفر الرابع من كتاب «التمهيد» لابن عبد البر، من مخطوطات مكتبة ابن يوسف رقم 460، حيث تتضمن وقف السفر المشار له من جهة العاهل الموحدي عمر المرتضى، أواسط القرن 13/7، وجاء في الوقفية أن العاهل المنوه به، حبس السفر الرابع من كتاب «التمهيد» على من يقرأ فيه من المسلمين ـ وفرهم الله تعالى ـ بمدرسة العلم بالجامع المرتضى ـ شرفه الله تعالى ـ من حضرة مراكش... ثم تؤرخ الوقفية في غرة شعبان، عام ثمانية وخمسين وستمائة/ (1260).

ونفس الوقفية، أعيدت كتابتها بأول السفر الثامن من كتاب التمهيد، مخطوط الخزانة الحسنية رقم 927، على خروق في عدد من كلمات الوثيقة.

ومما يؤكد أن هذه المدرسة كانت بمراكش القديمة، وليست هي مدرسة المدينة الجديدة: وجود وثيقة ـ سيأتي الاستناد لها ـ تفسر الجامع المرتضى بجامع السقاية، ومن المعروف أن هذا هو نفس جامع ابن يوسف.

ولا يبعد أن يكون موقع هذه المدرسة، هو مكان مدرسة ابن يوسف الحالية، وقد يكون يعقوب المريني جددها، أو بنى مدرسة على أنقاض المدرسة الموحدية.

* * *

ونعقب ـ الآن ـ بأن مصادر المدارس الثلاث، تتضمن إشارات ـ ولو أنها مقتضبة ـ إلى الخزائن الموحدية التي كانت بالمدارس.

4 ـ وأولاها: خزائن الكتب الواردة عند العمري، حيث تبينا ـ سلفاً ـ قولته: «وفي هذه الرحبة المدرسة، وهي مكان جليل به خزائن الكتب».

وهذه الخزانة ذكرها ـ أيضاً ـ الوزان الفاسي[1]، بعد فقرة المدرسة الملكية سابقة الذكر، وهو يقول عنها: «... وحول القاعة خزانات كثيرة، مصنوعة من الخشب المزخرف بنقوش مذهبة، طليت مختلف أجزائها بطلاء الذهب،

(1) «المصدر» 133/1.

وباللازوردي الرفيع».

وإذا سايرنا المصدر الأخير، فإن هذه الخزانة كانت تابعة للمدرسة الملكية، فتكون خاصة.

5 ـ وتأتي بعدها وقفية كتابي الأنجاد ومشارق الأنوار، حيث أفادنا ذلك ـ وشيكاً ـ بوجود مدرسة جامع المنصور، ثم نستفيد ـ الآن ـ وجود خزانة هذ المدرسة.

6 ـ وهذا ـ أيضاً ـ هو شأن وقف المرتضى لكتاب التمهيد، على مدرس جامع ابن يوسف.

فيبدو من طبيعة هذه المدرسة ومدرسة جامع المنصور: إن الخزانتين ـ بهما ـ كانتا عامتين، ومما يؤيد هذا العموم: فقرة من تحبيس المرتضى للتمهيد، فيذكر فيها وقفه على من يقرأ فيه من المسلمين. ويضيف: «متى أرادوا القراءة في من ليل أو نهار، من غير إخراج له عن المدرسة».

وإلى الآن لا يعرف مصدر يتحدث عن مثال الخزانتين، أما خزانة المدرس الملكية، فقد انحدرت إلى مصير مذهل خلال القرن 10/16، وذلك ما يسجل الوزان[1] في هذه الارتسامة المؤسفة: «... والقصر الذي كانت فيه خزانة الكتب استعمل جناح منه للدجاج، وآخر للحمام، وأصبحت الخزانات التي كانت توضع فيها الكتب أقفاصاً لهذه الطيور».

* * *

وإلى هذه الخزائن، كان بمراكش القديمة خزانة عامة من طراز آخر، وهي خزانة المصاحف الشريفة في جامع ابن يوسف، وقد كان عمر المرتضى كتب ـ بخطه ـ ربعة قرآنية من عشرة أجزاء، وحبسها جميعها على جامع ابن يوسف الذي جدده، فيوجد بالجزئين الأول والرابع ـ من الربعة المنوه بها ـ وثيقة بوقفها من جهة ناسخها على الجامع العتيق المرتضى، ويوضح هنا بأنه هو جامع السقاية.

(1) «المصدر» 1/134.

الذي بناه الواقف بحضرة مراكش، على أن يكون استقرار الربعة القرآنية بالبيت[1] المعين للمصاحف المحبسة قبلها[2] بالقبلة ، المتصل بالمحراب ، ثم تؤرخ الوثيقة في الثاني من رجب عام ستة وخمسين وستمائة/ (1258): الجزء الأول في مكتبة ابن يوسف رقم 1/432، والجزء الرابع في متحف الأوداية بالرباط رقم 470/754.

* * *

وإلى هنا تبينا سبع مؤسسات تعليمية ـ منوعة ـ بمراكش الموحدية، ويضاف لها ـ الآن ـ «القبة المنصورية»، وقد كان يعقوب المنصور ـ وهو على فراش الموت ـ أوصى بالطلبة (اللقب الذي كان يعرف به العلماء) أن يكون لهم موضع لخاصتهم يشتعلون فيه بالمذاكرة[3].

ونتصور أن هذا الموضع هو الذي بني من بعد وصار يحمل اسم «القبة المنصورية»، ويمدنا ابن عبد الملك باسمها وتحديد موقعها، وجاءت المناسبة عند ترجمة عالم أندلسي نزل بمراكش، وكان بارعاً في العدد والهندسة، حسن النظر في الطب صناعة وعلاجاً، فيقول عنه في «الذيل والتكملة»: «وانتصب لإفادة ما كان له من المعارف «بالقبة المنصورة»، إزاء الجامع الأعظم المنصوري بمراكش، وهي القبة الكائنة بمقربة من الزاوية الملتقي عليها الخطان الشرقي والشمالي بانحراف يسير منهما، مقابلة القيسارية هنالك»[4].

وكان العالم المشار له هو أبو جعفر بن منعم: أحمد بن إبراهيم بن علي العبدري الداني، نزيل مراكش ودفينها عام 626/(28 ـ 1229).

---

(1) في كتاب «مراكش» لديفردان 1/569 ـ 570: «والقاعة الكبرى التي خصصت للكتب بجامع ابن يوسف، بناها مولاي الحسن (1) الذي أمر بجمع كل الذخائر الباقية في جوامع المدينة، وهي قاعة كبرى مرتفعة، تقع وراء حائط القبلة من الجانب الشرقي».
فهل بنيت هذه القلعة مكان بيت المصاحف المرتضي؟

(2) الفقرة تشير إلى مصاحف شريفة موقوفة بالبيت ـ المنوه ـ قبل ربعة المرتضي.

(3) ابن عذاري: «البيان المغرب»: الجزء الموحدي ط. تطوان: ص 208 ـ 209.

(4) دار الثقافة ـ بيروت 1/60.

ويمكن أن هذه القبة هي التي يذكرها ابن عذاري[1] ـ عرضاً ـ باسم القب المعروفة لجلوس العلماء.

ولا يبعد أن تكون هي بيت الطلبة؛ الذي امتحن فيه ابن عات في صحيح مسلم[2].

* * *

والآن: نبتعد عن مراكش بمائة ميل وميل واحد، وبالضبط عند المسجد العتيق أو مسجد المهدي بن تومرت بتينمل، فيذكر مؤلف «رحلة الوافد»[3] هذ الفقرة: «... وكان يأتي من عدة الأندلس ـ من العلماء ـ فقيه وأستاذ لتدريس العلم بمدينة تينمال»، وهي قولة أرسلها هذا المصدر، دون أية إحالة على مستندها.

ولحسن الحظ تؤكد هذه القولة في الجملة، إشارة من ابن عبد الملك[4] عن ترجمة ابن مضاء النحوي: «أحمد بن عبد الرحمن بن محمد القرطبي الجياني الأصل، فيذكر عنه أنه لحق بحبل تنمل، فاستقر به مدرساً للعلم، ناشراً ما لديه من المعارف، وذلك في عشر الأربعين وخمسمائة وفي دولة عبد المؤمن.. فأخذ عنه هناك أهل ذلك الموضع وغيرهم».

ونعود ـ مرة أخرى ـ إلى مؤلف «رحلة الوافد»[5] وهو ينوه بمسجد ابن تومرت: «ومن رأى شغل بنيان مسجده العتيق الذي بتينمال، وأسفار خزانته الموضوعة فيه لتدريس العلوم...

---

(1) «البيان المغرب» ص 319.

(2) الغبريني: «عنوان الدراية»، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر: ص 230، وتعليقه على بيت الطلبة بمراكش: يبدو أنه كان بين التقاليد التي نقلها الحفصيون إلى تونس، فتر ـ عند ابن الطواح ـ هذه الفقرة: «... فرفعها للإمام المستنصر، فأمر بإدخاله بين الفقهاء»: حسب «سبك المقال»، مخطوط خ. س. 105/ ص 157.

(3) مصورة خ. ع. د. 1607: لوحة 447.

(4) الذيل والتكملة 1/ 218 ـ 219.

(5) لوحة 518.

ونختم هذا العرض بالإشارة إلى صيغة وقفية على جزء من مصحف إشبيلية في مكتبة ابن يوسف بمراكش رقم 429، فيوجد عليه تحبيس للقراءة على القبر الذي بالروضة المقدسة في تينمال، بتاريخ رمضان 649/(1252).

ويمثل هذا الجزء السادس عشر ـ تجزئية 20 ـ من ربعة قرآنية شريفة، وجاء في آخره: « كمل الجزء السادس عشر من المصحف الكريم . . . وكان كماله بمدينة إشبيلية. . . في العشر الأخر من شهر ذي القعدة، سنة اثنتين وثلاثين وستمائة».

مجلة «دار النيابة» ع15 ـ 16 «مزدوج» سنة 1987

وثيقة من غرناطة (1460/864)

باسم وتوقيع العاهل النصري سعد المستعين

يقدم هذا التدخل، وثيقتين يجمعهما صك كان في حوزة أحد المعتنين، ثم أخذت منه المصورة التي يعتمدها هذا العرض.

سطورها أفقية مستوية في الجملة، وخطها أندلسي مجوهر مليح مشكول قليلاً، أما إمضاءاتها فهي بخطوط أصحابها، وعددها سبعة: اثنتان بخط عادي، وأربعة مرسومة في شكل عدلي مشتبك، وسابعاً: خط علامة السلطان بقلم مفخم الحروف.

والوثيقتان ـ كما أشير لذلك ـ تجمعهما ورقة كتبت فيها، إحداهما أسفل الأخرى، فتتناول الأولى، شهادة العارفين: (أرباب البصر) بوقوفهم على قطعتين من الأرض بمرج غرناطة، قصد كيلهما وتقويمهما، فكان في تكسير القطعة الأولى مائة وستون مرجعاً، وفي الثانية أربعون مرجعاً، من حساب ثلاثة من الدنانير الذهبية الجارية للمرجع الواحد، وذلك بتاريخ أخريات جمادى الثانية عام أربعة وستين وثمان مائة.

وإثر التاريخ أسفله: توقيع العارفَيْن بإمضائهما المفتوح.

ثم توقيع النائب في الحكم الشرعي بغرناطة، بإمضائه المشتبك.

أما الوثيقة الثانية: فتتضمن شهادة العدلين ببيع القطعتين المشار لهما، بواسطة الوزير الوكيل عمن تخططه الوثيقة، بالمقام العلي السلطاني، المستعيني السعدي النصري، والمشتري هو مزوار الدار الكريمة أبو سعيد، بثمن عدته ستمائة

دينار، من الدنانير الذهبية بالصرف المعتاد المتعارف، من حساب ثلاثة دنانير من الذهب والصفة للمرجع الواحد، ووقع الاقتطاع في الثمن عن مثله من واجب المشتري بالدار الكريمة، ثم كان تاريخ ذلك هو تاريخ الوثيقة الأولى.

وإثر هذا توقيع العدلين بإمضائهما المشتبك، وأسفل منه صيغة الموافقة السلطانية، بتوسيع حكم المبيع لمشتريه، مع تذييل ذلك بعلامة التوقيع السلطاني: «صح هذا هـ».

* * *

وإلى هنا لا تزال الوثيقة لم توضح اسم السلطان المنوه به، واكتفت بالتلويح له بالمستعيني السعدي، ولا شك أن ذلك يشير إلى ملك غرناطة، سعد المستعين بالله، ابن الأمير أبـي الحسن علي، ابن السلطان يوسف الثاني، وحسب الرواية المسيحية كان سعد هذا، هو الذي يعتلي عرش بني الأحمر في تاريخ الوثيقة 864/(1460)[1].

وقد اعتمد في اسم أبيه وجده، على الرسالة التي كتبها للسلطان المملوكي خُشْقَدَم[2]، وذلك نفس الوارد عند السخاوي[3]، فيذكره باسم سعد بن علي بن يوسف... صاحب غرناطة الأندلس، ووالد أبـي الحسن علي، وأبـي عبد الله محمد.

وسوى هذا تأتي أغلاط في تسمية آبائه، فيترجمه السيوطي باسمه سعد، ويضيف ابن محمد بن يوسف بن إسماعيل بن مفرج، إلى آخر الخلط الواقع في «نظم العقيان»[4]، ثم يؤرخ وفاته في صفر عام 869/(1464).

---

(1) عبد الله عنان في «نهاية الأندلس» مطبعة مصر ـ القاهرة 1368/ 1949: ص 122 ـ 124، على غلط في اسم والد المستعير.

(2) وردت الرسالة عند أحمد دراج في «المماليك والفرنج»، دار الفكر العربـي القاهرة 1961: ص 191 ـ 199، وجاء اسم المستعين ص 192.

(3) «الضوء اللامع» نشر مكتبة القدسي بالقاهرة 1354هـ: 3/248.

(4) المطبعة السورية الأمريكية في نيويورك 1927: ص 117.

أما عنان فيسميه بسعد بن إسماعيل، اعتماداً على الرواية المسيحية، ويوقـ وفاته بعام 871/(1466)[1].

غير أن المؤكد ـ الآن ـ أن سعداً هذا استمر في حكم غرناطة، إلى أواسـ 868/(1464)، فيختتم رسالته إلى خُشْقَدَم، بتاريخ جمادى الأولى 868[2].

* * *

وبعد هذا: نعود للنص الذي نقدم له، فيلاحظ في الوثيقتين معاً، أ تحريرهما جاء يساير منهجية الوثيقة الأندلسية القديمة، فيحتذيها في أسلوب وصيغتها وخطها، وأيضاً في شكل إمضاءاتها المشتبكة.

وإلى هذا: فالموثق يحافظ على الاصطلاح الأندلسي في التحديد والتكسير فيعبر عن الجنوب بالقبلي، وعن الشمال بالجوفي.

وفي كيل الأرض يعتمد «المرجع»، وكان المرجع في غرب الأندلس وم منطقة غرناطة: حبل طوله أربعون ذراعاً رشاشية، وهذه الذراع تقدر بشبر ونصف[3].

ومن هذا الوصف للنص المنوه به، يتبين أن الوثيقة الشرعية بغرناـ المستعينية: لا تزال بخير في الجملة، وأنّ تراجع التوثيق بالأندلس ـ في أيام الأخيرة ـ لم يكن شاملاً.

ومن جهة أخرى يأتي في النص ذاته ذكر الدنانير الذهبية بالصرف المعت المتعارف، وهو تعبير قد يشير إلى رواج دنانير غير ذهبية بالصرف المعت المتعارف، وهو تعبير قد يشير إلى رواج دنانير غير ذهبية خالصة، فيلمح إل تدهور ضرب السكة أيام سعد المستعين، وقد يكون في مواجهة هذا الواقع،

---

(1) «نهاية الأندلس» ص 122 ـ 124.

(2) الإشارة إلى الرسالة الواردة عند التعليق 2، حيث ورد بها التاريخ عند ص 199.

(3) «إتحاف الفئة المبتغية، لحل ألفاظ شرح الرسالة الفتحية»، تأليف محمد بن عبد المج أقصبي الفاسي، مخطوط خ. س 7032: عند الباب 17.

يذكره القلصادي[1] عن شيخه ابن فتوح قائلاً: «ومن كلامه باختصار: سبك الدنانير من خليطي الذهب والفضة حرام...»، وقبل هذا ينقل عنه نفس المصدر: «ولم يزل ـ رحمة الله تعالى عليه ـ على إنكار ذلك حتى توفي»، هذا مع ملاحظة أن ابن فتوح، كانت وفاته أواخر عام 867/(1463)[2]، وهو التاريخ الذي كان فيه المستعين لا يزال على عرش غرناطة.

وإلى هذا: فالوثيقة الثانية، تذكر وكيل السلطان، وتخططه بالوزير، ثم تذكر المشتري بوصف المزوار، فتشير بذلك إلى شيء من ألقاب رجال الدولة المستعينية، مع العلم بأن لقب المزوار، استعمال مريني حسب ابن خلدون[3]، فتكون هذه الحلية، من بين ما اقتبسه بنو الأحمر من المرينيين.

ومن بين إفادات الوثيقتين، معلومات ـ ولو أنها مقتضبة ـ عن مرج غرناطة، تعريفاً بأسماء بعض بقاعه وملاكها، فيأتي تحديد القطعة الأولى في هذه الفقرة.

«... قسيم جوفي من فدان الزيتونة من منهل اللِّطاخ، بمرج الحضرة العلية: غرناطة، قبلية ابن سلمة، جوفية بلاّط، بعده فدان القبر، شرقية محمد بن عمر، غربية بلاط، بعده أحبل النّشم».

وعن تحديد القطعة الثانية: «... قسيم قبلي من فدان القبر من المنهل المذكور، قبلية ابن زمنين، جوفية محمد بن عمر، شرقية وادي بِينْش، غربية فدان الزيتونة».

وأخيراً: فإن الوثيقة الثانية مذيلة بعلامة سعد المستعين: «صح هذا هـ»، وهو شيء لم يسبق تدوينه، بعدما كان ابن الأحمر انتهى من «مستودع العلامة»[4] نحو عام 800/97 ـ 1398.

* * *

(1) «لب الأزهار اليمنية على الأنوار السنية»، مطبعة السعادة بمصر 1347هـ: ص 15.
(2) «رحلة القلصادي»، الشركة التونسية للتوزيع 1399/ 1978: ص 168.
(3) «المقدمة» المطبعة البهية المصرية دون تاريخ: ص 210.
(4) من منشورات المطبعة المهدية بتطوان 1384/1964.

وسيأتي هذا التوقيع في طليعة الإفادات التي يقدمها هذا النص. إضافة إلى تعريفنا باستمرار نهج التوثيق الأندلسي في النص الذي نعرضه، هذا إلى أن الوثيقة الثانية، تتطابق ـ في الجملة ـ مع الرواية المسيحية عن عهد المستعين، كما تشير إلى شيء من ألقاب الدولة ذاتها، وقد تكون الوثيقة نفسها تلوح إلى واقع تدهور السكة المستعينية، هذا فضلاً عن الإشارة المقتضبة في الوثيقتين ـ معاً ـ إلى مرج غرناطة: تعريفاً بأسماء بعض بقاعه وملاكها.

* * *

وهنا يصل بنا المطاف إلى عرض الوثيقتين في نصهما: بالحروف المطبعية، ثم في مصورة منهما.

بسم الله الرحمن الرحيم،
صلى الله على سيدنا ومولانا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم

وقف شهوده من أهل البصر والمعرفة بما يشهدون به فيه، إلى قسيم جوفي من فدان الزيتونة، من منهل اللِّطاخ بمرج الحضرة العلية: غرناطة، قبلية ابن سلمة، جوفية بلاّط بعده فدان القبر، شرقية محمد بن عمر، غربية بلاط بعده أحبل النّشم، وهو في التكسير من مائة مرجع واحدة، وستين مرجعاً.

وإلى قسيم قبلي من فدان القبر من المنهل المذكور، قبلية ابن زمنين، جوفية محمد بن عمر، شرقية وادي بِيُنْش، غربية فدان الزيتونة، وهو في التكسير من أربعين مرجعاً.

وقوفاً تاماً، ونظروهما نظراً شافياً، وتأملوهما تأملاً كافياً، فظهر لهم بدليل بصرهم ومعرفتهم، وما أداه إليه اجتهادهم: أن بيعهما في التاريخ، بما لهما من الحقوق والحرم والمدخل والمخرج وكافة المنافع والمرافق، من حساب ثلاثة دنانير من الدنانير الذهبية بالصرف المعتاد للمرجع الواحد من القسيمين المحدودين، وذلك بالثمن النقد: سداد بين، لا غبن فيه ولا حيف.

وقيدوا بذلك شهادتهم مسؤولة منهم إثر الوقوف، في أخريات شهر جمادى الثانية، من عام أربعة وستين وثمان مائة.

وإثر هذا توقيع شاهدي التقويم بمداد باهت، تعسر معه قراءة اسميهما.

وأسفل ذلك توثيق الشهادة في هذه الصيغة: «أعلم بثبوته النائب في الحكم الشرعي بالحضرة: (إمضاء في شكل مشتبك يختفي فيه الاسم)، وفقه الله، والسلام على من يقف عليه ورحمة الله».

وأسفل من هذا تأتي الوثيقة الثانية.

بسم الله الرحمن الرحيم،
صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

باع على الجناب الكريم، والمقام العلي المؤيد السعيد، السلطاني الإمامي المجاهدي المولوي، المستعيني السعدي النصري، أيد الله أمره، وأعز نصره، وأسعد زمانه وعصره:

وكيل مقامه الكريم، المعتمد بمزية الترفيع والتكريم، المخصوص بالوجاهة والعناية والحظوة والتعظيم، القائد الفقيه الوزير، الرفيع الخطير، الماجد الفاضل، الحافل الكامل، الأسمى، (وهنا وقع بخطه في شكل مشتبك يختفي فيه اسمه)، وصل الله عزته، ووالى مبرته ورفعته.

البائع ـ بحكم الوكالة المسندة إليه، المطلق حكمها في يديه ـ من مزوار الدار الكريمة، وخلاصة النعمة الجسيمة، القائد الأعز الأسنى، الأوجه الأنو الأنزه الأحظى، الأكمل، أبـي سعيد...

جميع القسيمين الاثنين الكائنين بمنهل اللِّطاخ بمـرج الحضرة العلية: غرناطة حرسها الله: أحدهما جوفي من فدان الزيتونة، قبلية ابن سلمة، جوفيا بلاّط، غربية كذلك، شرقية محمد بن عمر، وثانيهما: قبلي من فدان القبر، قبليا ابن زمنين، جوفية محمد بن عمر المذكور، شرقية وادي بِيُنْش، غربية فدا الزيتونة، وهما المذكوران والمحدودان في رسم الوقوف فوقه، بحقوقهم وحرمهما ومدخلهما ومخرجهما، وكافة منافقعهما ومرافقهما.

بيعاً تاماً، بثمن عدته ـ صفقة واحدة ـ ستمائة دينار، من الدنانير الذهبي بالصرف المعتاد المتعارف، من حساب ثلاثة دنانير ـ من الذهب والصفة ـ للمرج الواحد، على أنهما في التكسير من مائتي مرجع ثنتين، حسبما ثبت به السدا أعلاه، أبرأه الوكيل ـ أعزه الله ـ من جملتها بالبراءة التامة، لوقوع الاقتطا[ع] فيه

عن مثلها من واجبه بالدار الكريمة شرفها الله.

وبذلك خلص للمبتاع المذكور تملك المبيع، أكمل خلوص وأتمه، على السنة والمرجع بالدرك، وبعْدَ النظر والتقليب والرضا.

شهد ـ على المتبايعين المذكورين بما فيه عنهما ـ من أشهداه به على أنفسهما، وهما ـ حفظهما الله ـ بحال كمال الإشهاد، وعرفهما، بتاريخ أخريات شهر جمادى الثانية، من عام أربعة وستين وثمان مائة.

وعقب هذا إمضاء العدلين في شكل مشتبك يختفي فيه إسماهما.

وأسفل من ذلك تأتي الموافقة السلطانية هكذا: «الحمد لله، يسوّغ ـ بحول الله ـ حكم المبيع أعلاه لمشتريه، تسويغاً تاماً، [من] غير نقض ولا رد ولا تعقيب... عن الآمر العلي المؤيد الكريم السعيد، السعدي المستعيني النصري، أيده الله...».

يتصل بهذا التوقيع السلطاني بخط مفخم مبسوط: «صح هذا هـ».

ملاحظة:

في الوثيقة الثانية ثلاث كلمات لم أتبين قراءتها، فوضعت مكانها ثلاث نقط...

وبهامش نفس الوثيقة إلحاق لم تتضح لي قراءته.

«ندوة المغرب والأندلس» تطوان 1988

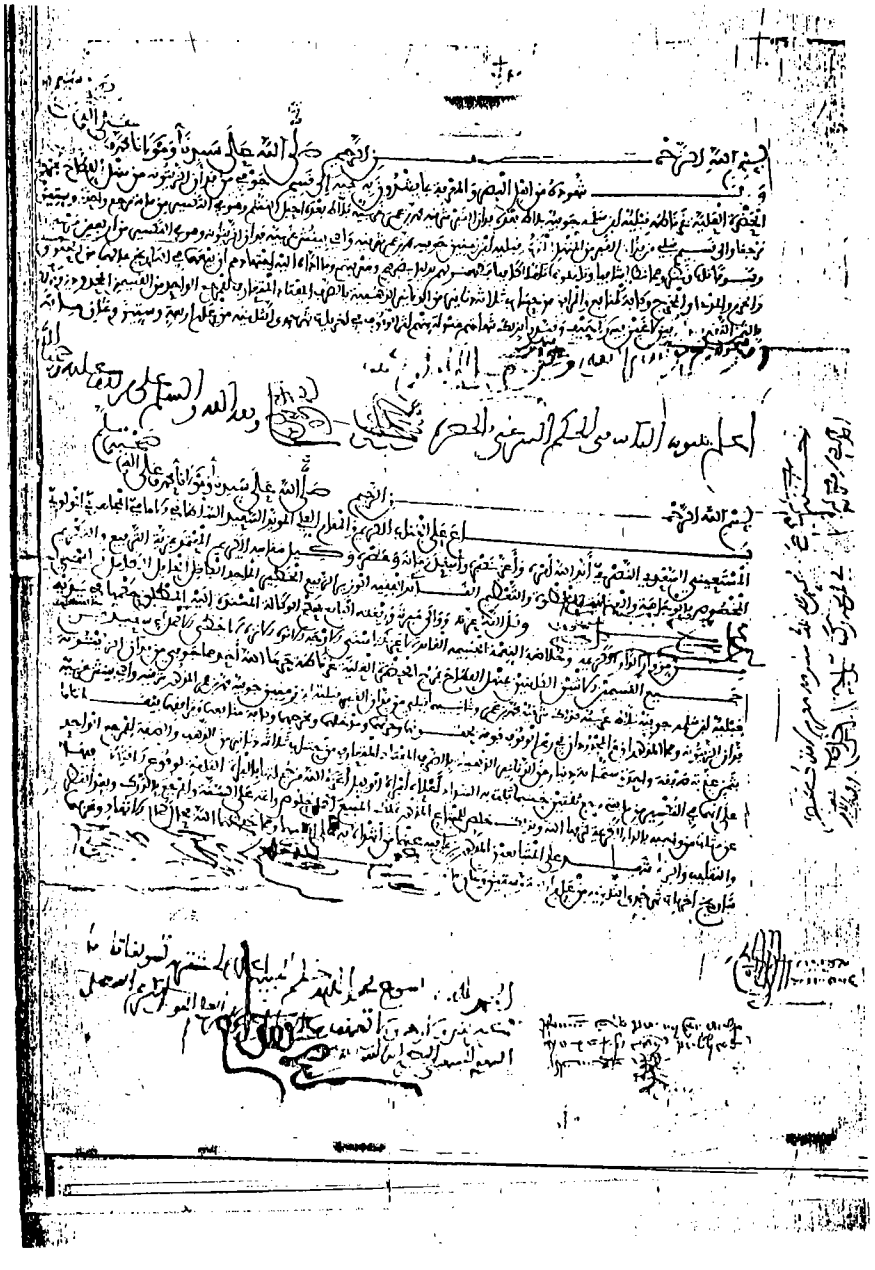

وثائق مغربية من القرن 19

الوثائق الرسمية المحفوظة بالمغرب، معظمها في الخزانة الحسنية بالرباط، وبعضها يتوزع بين المكتبة العامة بتطوان، والخزانة العامة بالرباط، والخزانة العلمية الصبحية بسلا، فضلاً عن مستودع القصر الملكي التابع للأمانة العامة للحكومة، ثم مديرية الوثائق الملكية بالرباط، هذا إلى الربائد الباقية في حوزة الأسر المنحدرة من موظفين سامين.

ثم الوثائق المحوزة بعد الاستقلال، وخصوصاً: ربائد الحاج التهامي الكلاوي عن فترة عمله أيام الحماية، حيث تحفظ بالأمانة الملكية الخاصة في 53 كيساً. والوثائق الكتانية المحفوظة في الخزانة العامة.

ووثائق الحاج محمد المقري عن أيام توظيفه قبل سنة 1912.

* * *

وعلى العموم تتناول هذه المستندات موضوعات تدبير وتسيير الدولة، وشؤون القصر الملكي وعلاقاته المتنوعة.

غير أن الوثائق الرسمية قبل ق 19 لا يزال محصولها قليلاً، ومعظم الباقي من الربائد العلوية يرجع إلى أيام السلطان مولاي عبد الرحمن» ثم أخذت تتزايد أكثر فأكثر أيام س. محمد الرابع والحسن الأول وصدر العصر العزيزي.

وعن نوعيتها: فهي تتفرع ـ مبدئياً ـ إلى صنفين:

1 ـ دفاتر: ويحمل الواحد منها اسم «كناش»، فتختلف موضوعاتها من كناش

لآخر، فواحد للمكس وكان يسمى بالمستفاد، وثان وثالث لشؤون الجيش أو للتجارة الداخلية والخارجية، إلى دفاتر في أغراض مختلفة: تسجيل الضوابط الجديدة، مراسلات السلاطين والوزراء، أشغال البريد، محاسبات العمال، أملاك المخزن، أملاك الأحباس، السكة الحسنية، حسابات مختلفة، سجلات لنسخ مضامين الرسائل الصادرة أو الواردة على المخزن المركزي، سجلات تدون بها المداخيل والمصاريف، إلى موضوعات بحسب المقتضيات.

2 ـ **وثائق مفردة**: وتتفرع إلى:

(أ) ظهائر ورسائل سلطانية أو وزيرية وبيعات...

(ب) قوائم خرص الترتيب أو أثمان السلع...

(ج) لوائح بسير الأعمال اليومية بالمراسي وسواها، وتحمل اسم «يوميات».

(د) بطائق: ورقة دون حجم الرسالة، وتستخدم ـ أحياناً ـ في مهاد الرسالة.

وهذه البطائق والقوائم واللوائح، قد تجمع إحداها ـ عند الاقتضاء ـ داخل ظرف كبير، ويغلق عليه بمحلول اللك، فيميز باسم «باكيط».

وإلى الوثائق الرسمية يأتي في موازاتها الوثائق الخاصة، فتشمل كل المقيدات التي يدونها الأفراد في أعمالهم الشخصية.

* * *

والآن بعد هذا المدخل ينتهي بنا المطاف إلى عرض الوثائق الرسمية والخاصة حسب المعروف منها مخطوطاً أو مطبوعاً، وسيتدرج تقديمها حسب هذه العناوين:

- المجموعات الوثائقية المخطوطة.
- المجموعات الوثائقية المنشورة.
- أدلة الوثائق الرسمية.
- وثائق مفردة.
- شروح الوثائق الرسمية.

- مجموعة وثائق وقفية.
- أدلة خزائن المخطوطات.

أولاً - المجموعات الوثائقية المخطوطة:

(أ) وثائق أصلية.

1 -«ظهائر علوية» في شؤون الزاوية الصقلية وأهلها بفاس خ. ع ك 270/5.

2 - ظهائر صادرة عن س محمد 4 خ.ع، وعددها أربعة مصورة على الشريط. ونسخة منها مصورة على الورق خ.س.

3 - «المجموعة الزيدانية»، والقصد إلى الوثائق العلوية التي تجمعت لدا المؤرخ عبد الرحمن ابن زيدان، وقد كانت خليطاً من الأوراق، فعكف المنوه به على تصنيفها وترتيبها حسب التسلسل التاريخي، وجعل لكل مجموعة منها سفراً على حدة، حتى بلغت 31 سفراً ح. س 12607.

4 - «المجموعة الفاسية» في سفر من جمع المؤرخ عبد الحفيظ الفاسي، وقد رتب فيها - حسب تواريخها - أصول الظهائر والرسائل الرسمية الصادرة إلى محتسب مراكش: مولاي عبد الله بن إبراهيم البوكيلي، وعددها 323 وثيقة في تكليفه بأشغال مختلفة. خ. ع. د 3410.

(ب) وثائق منتسخة:

والإشارة إلى الكنانيش التي تضمن بها المكاتب الصادرة أو الواردة على السلطان أو الوزراء، ويرجع التنظيم إلى عهد السلطان الحسن الأول، ثم استمر أيام العزيز والحفيظ.

وهذه الكنانيش في الخزانة الحسنية بالرباط، فتوجد أرقامها ضمن المجلد الأول لفهرس الوثائق بالخزانة ذاتها، حيث سنشير له من بعد.

وخارجاً عن هذه المؤسسة توجد بعض الدفاتر كالتالي:

5 - «كناش مكاتب دار النيابة»، ويغطي الفترة الممتدة عبر أعوام 1319 - 1325هـ، ويشتمل على المراسلات الصادرة أو الواردة على النائب السلطاني بطنجة.

من محفوظات مديرية الوثائق الملكية بالرباط، وهناك تعريف بهذا الكناش اشتمل على اختيار مجموعة من نصوصه في 17 وثيقة، ونشر ذلك في «مجلة دار النيابة» بطنجة: العدد الأول 1984: ص 62 ـ 65.

6 ـ «كناش مكاتب السلطان العزيز»: من 12 صفر 1324، حتى 15 ربيع الثاني 1325هـ خ. ع، د 1695.

7 ـ «كناش مكاتب دار النيابة»: من 3 رمضان 1323، حتى 21 شوال 1325هـ. خ. ع، ك 2720.

8 ـ «كناش مكاتب دار النيابة»: ابتداء من 25 شوال 1325هـ ح. ع، ك 2721.

* * *

2/8 ـ وخلافاً للمجموعات السابقة نشير إلى كناش من طراز آخر، وعنوانه: «كناش الداخل والخارج لبنيقة مراكش»، ويتميز بأنه ليس لتسجيل المراسلات، وإنما لتدوين المداخل والنفقات. خ: ع، د 1690.

* * *

ثانياً ـ المجموعات الوثائقية المنشورة:

9 ـ «مختارات من المراسلات الشريفة»، اختيار أوجين فومي.

مجموعة تستوعب 50 رسالة رسمية صادرة عن السلاطين العلويين أو من موظفين سامين، فتعرض نصوص الرسائل في خمسين لوحة مصورة، لتعقب بعدها بـ القسم الفرنسي، حيث تغطي الوثائق الفترة ما بين 1198/ 1785، حتى 1316 هـ.

والمجموعة منشورة بباريس 1903.

10 ـ «مصادر غير منشورة عن تاريخ المغرب الأقصى»، تأليف الكونت. ذوكاستري.

هدف به إلى تاريخ المغرب في عصر السعديين والعلويين، واعتمد في مصادره على الوثائق العربية المحفوظة بأوروبا: في فرنسا وانجلترا وهولندا وبلجيكا وإسبانيا والبرتغال والدانمارك. . .

ظهر المجلد الأول سنة 1905، وفي سنة 1927 كان المؤلف قد أصدر 15 مجلداً ضخماً. وهي سنة وفاته، فتولى الإشراف على السلسلة بيار دو سينفال مدير المحفوظات بالمغرب سابقاً، وبعد وفاته ـ 1937 تتابع العمل في السلسلة إلى أن بلغت حوالي 30 مجلداً كبيراً، ثم توقفت عن الصدور سنة 1974، بعدما كانت هذه الموسوعة قد أرخت للسعديين وصدر العصر العلوي، وهي الفترة التي تمتد من 1530 حتى 1725.

عرف الأستاذ المرحوم عبد القادر الخلادي بدوكاستري وتاريخه وتطورات إصداره، ونشر ذلك في مجلة «دعوة الحق» على امتداد ثلاثة إعداد من السنة 16: العدد الرابع والخامس «مزدوج» ص 144 ـ 149، ثم العدد السابع ص 165 ـ 168، وأخيراً: العدد الثامن ص 181 ـ 186: عام 1394/ 1974.

11 ـ «رسائل شريفة» اختيار الكمندان محمد نهليل الجزائري، مدير المدرسة العليا بالرباط سابقاً. تشتمل على مصورات 128 رسالة علوية، من عام 1269/ «1852» حتى 1332/ «1914».

منشورة في باريس 1915: 128 لوحة.

12 ـ «أربعة قرون من التاريخ المغربي» للكمندان مارتي، وهو يؤرخ للصحراء المغربية من سنة 1504 حتى 1902، وللمغرب من 1894 حتى 1912، ويعتمد ـ في مستندات الصحراء ـ على مجموعة من الوثائق المغربية التي عثر عليها ـ مخطوطة ـ بالمنطقة، وخصوصاً في تمنطيت وثيمي، غير أنه يعرض نصوصها، مترجمة إلى الفرنسية.

والكتاب مطبوع في باريس 1923.

وله تحليل كتبه الأستاذ عبد العزيز ابن عبدالله، ونشره في جريدة «صحراء

المغرب»، بالعدد 35 ص 2 ـ 6: عام 1377/ 1957.

13 ـ «وصايا دينية من ملوك الدولة العلوية»، جامعها غير مذكور.

تشتمل على ثمان رسائل علوية توجيهية، صادرة عن خمسة من السلاطين:

الأولى: عن س محمد الثالث.
الثانية والثالثة: عن س مولاي عبد الرحمن.
الرابعة: عن س محمد الرابع.
الخامسة: عن س الحسن الأول: الرسالة القرنية.
السادسة: عن س الحسن الأول: تقديم وتعريف بالرسالة القرنية.
السابعة والثامنة: عن س العزيز.

والرسائل منشورة بالمطبعة الوطنية بالرباط 1353/ 1934: 67 ص في حجم صغير، بمبادرة المرحوم عبد العزيز القباج الرباطي.

14 ـ «وثائق عن مولاي أحمد الريسوني» اختيار الأستاذ ي. س: علوش، محافظ القسم العربي بالخزانة العامة سابقاً.

قدم الوثائق في مصورات لأصولها، وأضاف ترجمتها للفرنسية والتعليق عليها، ونشر ذلك في مجلة «هسبريس» ج 38 ص 328 ـ 353، سنة 1951.

15 ـ «وثائق تتعلق بالسفارة المغربية إلى البابا ليون الثالث عشر».

نشر وتحليل الأستاذ الإسباني خوسي أغيليرا بليغيثويلو.

والقصد إلى ست رسائل عن السفارة التي أوفدها السلطان الحسن الأول إلى البابا ليون الثالث عشر عام 1305/ 1888 بمناسبة اليوبيل الكهنوتي لتوليته، مجلة «تطوان»: العدد الثاني ص 155 ـ 161، سنة 1957.

16 ـ مجموعة من الوثائق عن إقليم «توات»، جامعها غير مذكور.

أصلها في كناش من محفوظات الخزانة الحسنية بالرباط، وتشتمل ـ بعد التعريف بالاقليم ـ على 85 وثيقة، ترجع أولاها للعصر الإسماعيلي، ومعظمها صادر عن الحسن الأول، مع تذييلها ب 12 وثيقة في موضوعات أخرى:

صدرت المجموعة عن المطبعة الملكية بالرباط 1381/ 1962، بتحقيق الأستاذ عبد الوهاب ابن منصور؛ 98 ص في حجم متوسط، وجاء عنوانها: «تقييد ما اشتمل عليه إقليم توات ـ من الأيالة السعيدة ـ من القصور ووثائق أخرى».

17 ـ «أربع وثائق علوية ضد بدع الشورة والأفراح» (أيام س محمد الرابع).

نشر نصوصها وقدم لها محمد المنوني، مجلة «دعوة الحق» السنة 14 ـ العدد 3 ص 51 ـ 59، سنة 1391/ 1971.

18 ـ «الوثائق» هو عنوان المجموعة الدورية التي تتابع إصدارها مديرية الوثائق الملكية بالرباط، إعداد الأستاذ عبد الوهاب ابن منصور مدير المؤسسة ومؤرخ المملكة.

وأهمية هذه الدورية فيما تكشف عنه من مستندات غميسة مختارة من وثائق المديرية: مغربية وأجنبية، وعن خطة الدورية يقول مدير المؤسسة وهو يقدم المجموعة الأولى:

«.. إننا نشرع ـ فوراً ـ في نشر كل ما تم ترتيبه منها (الوثائق)، سواء كان مما قدم عهده أو قرب زمنه، وسواء كان يتعلق بشؤون السياسة والدبلوماسية، أو أمور الاقتصاد والاجتماع، أو كان يتعلق بنوازل خاصة، وقضايا معينة قد تكتسب طابعاً أسروياً، مقدمين كل وثيقة بدراسة أو كلمة تحدد زمانها، وتبين أعلامها، وتشرح مضامينها...

وستكون الوثائق التي تنشر متعاقبة بتعاقب أزمانها. متلاحقة حسب تواريخها، معززة بعض نصوصها المطبوعة بصور أصولها، مزينة بماله ارتباط بها: من رسوم زيتية أو صور فتوغرافية...

وسننشر مع كل مجموعة من هذه الوثائق يصدر بها كتيب أو كتاب: فهرساً ملوناً يسهل على الباحثين والدارسين الوصول إلى الوثيقة التي يرغبون في الإطلاع عليها، إذ سيكون بجانب كل موضوع رقم أو أرقام ترتيبية، ترشد إلى مكان الوثيقة أو الوثائق التي نشرت متعلقة بذلك الموضوع».

صدر من الدورية خمس مجموعات عن المطبعة الملكية بالرباط: الأولى 1396/ 1976، وتستوعب الوثائق من رقم 1 حتى 150، 517 ص تقديماً ونصوصاً وفهرسة، عدا جدول التصويبات.

المجموعة الثانية: 1396/ 1976: الوثائق 151 ـ 300، 485 ص نصوصاً وفهرسة.

المجموعة الثالثة: 1396/ 1976: الوثائق 301 ـ 500، 535 ص نصوصاً وفهرسة.

المجموعة الرابعة: 1396/ 1977: الوثائق 501 ـ 672، 554 ص نصوصاً وفهرسة.

المجموعة الخامسة: 1401/ 1981: الوثائق 628 ـ 736، 548 ص نصوصاً وفهرسة.

19 ـ «وثائق عن الثائر بو حمارة» وعددها سبع رسائل موضوعية، نشرها وقدم لها الدكتور عبد العزيز التمسماني خلوق.

«مجلة دار النيابة»: العدد 4 ص 35 ـ 45 سنة 1984.

20 ـ «وثائق عن مهام المحتسب. في النصف الثاني من القرن 19»، نشر وتقديم الأستاذة لطيفة سمير س بناني.

عدد الوثائق 15: ثمانية صادرة عن س محمد 4، وسبعة عن س الحسن الأول.

«مجلة كلية الآداب» بفاس: عدد خاص 2: ص 403 ـ 423، عام 1406/ 1985.

ثالثاً ـ أدلة الوثائق الرسمية:

21 ـ «وثائق لدراسة تاريخ المغرب»، وهو العنوان الأول للسلسلة التي أصدرتها المكتبة العامة بتطوان، وهدفت إلى فهرسة الوثائق التاريخية المحفوظة في قسم الوثائق والمستندات الملحق بنفس المكتبة، ونشرت منها ثلاثة أقسام موزعة بين ثلاثة أجزاء:

الأول: بعنوان «وثائق لدراسة تاريخ المغرب»، إعداد الأستاذين المرحومين أحمد المكناسي المدير السابق للمكتبة، ومصطفى الكوش الرئيس السابق لقسم المستندات العامة.

وهو يفهرس لمختارات من عصر السلطان الحسن الأول، في 413 وثيقة.

نشر في مطبعة مينيرفا بتطوان 1381/1961، 100 ص من حجم صغير.

الجزء الثاني بنفس العنوان، إعداد الأستاذين أحمد المكناسي ومحمد الغازي الرويفي رئيس قسم المحفوظات العامة.

يعرف بمختارات من مراسلات وزراء س الحسن 1، في 308 وثيقة.

نشر في مطبعة المكتبة العامة بتطوان 1965، 100 ص في حجم سابقه.

الجزء الثالث بعنوان «فهرس الوثائق التاريخية»: (السلسلة الجديدة)، إعداد الأستاذين المهدي الدليرو المدير السابق للمكتبة، ومحمد الغازي الرويقي.

فهرسة للربائد الصادرة بالسنوات العشر الأولى. من عصر السلطان الحسن الأول، في 983 وثيقة.

نشر في مطبعة المكتبة العامة بتطوان 1970، 245 ص، مع تذييله بفهارس للأشخاص والأماكن والدول والمصطلحات: ص 247 ـ 333.

22 ـ مسرد للوثائق التاريخية في المكتبة العامة بتطوان، إصدار إدارة المكتبة العامة بعنوان: «البيان العام للوثائق التاريخية الموجودة بالمكتبة العامة والمحفوظات بتطوان».

يبلغ التقدير الاجمالي لوثائق هذه المؤسسة نحو 20.000 وثيقة بين أصل ونسخة وصورة، مرتبة ترتيباً زمنياً، وموزعة بين 170 محفظة.

والبيانات عنها يقدمها هذا المسرد في جداول من أربعة أضلاع: رقم المحفظة، وتسلسل عدد وثائقها، وتسلسل تاريخها، والجهة التي تعنيها وثائق كل محفظة.

صدر عن المكتبة العامة بتطوان مطبوعاً بالآلة الراقنة في كراسة من سبع صفحات.

23 ـ «فهرس الكنانيش والسجلات الرسمية في الخزانة الحسنية بالرباط، إعداد الأستاذ عمر عمور.

ظهر منه المجلد الأول وهو يفهرس ما يزيد على 800 كناش على ترتيب مواضيعها حسب هذا التصنيف.

- الشؤون الدينية.
- الشؤون الخاصة بالبيت الملكي.
- الأمن الداخلي والخارجي.
- أمور الجيش والسلاح.
- الجبايات والرسوم والمكس.
- الموانيء والملاحة.
- الشؤون المالية والاقتصادية.
- الأجانب والحمايات القنصلية.
- مواضيع متنوعة.

مطبعة الأنباء بالرباط دون تاريخ: 247 ص أصلاً وتقديماً وفهارس للاعلام البشرية والجغرافية.

24 ـ «جرد عام لوثائق الهيئة الدبلوماسية المعتمدة سابقاً بطنجة»، إعداد د. محمد الأمين البزاز.

نشر عناوينها بالفرنسية، وقدم لها بالعربية. «مجلة دار النيابة: العدد 4 ص 46 ـ 52 سنة 1984.

رابعاً ـ وثائق مفردة:

25 ـ رسالة الكنتي: أحمد البكاي بن محمد بن الشيخ المختار الكنتي ت 1283/ 1867.

كتبها من تنبكتو، وخاطب بها ـ حسب تعبيره ـ أهل الغرب عموماً، وخص أهل فاس ومكناس، مع الأكابر من أهل مراكش.

والرسالة مطولة، وتندب المخاطبين بها إلى الجهاد ضد التدخل الأجنبي، مع الدعوة إلى الرجوع للكتاب والسنة، وإلى تبسيط مسطرة إجراءات القضاة، إلى جملة أخرى من التوجيهات.

وفي افتتاحيتها تعلن ببيعة كاتبها للسلطان أبي زيد بن هشام.

لا تزال الرسالة مخطوطة، ومنها فيلم ضمن مصورات جائزة الحسن الثاني سنة 1970، رقم 1/76، ت: 19 لوحة:

26 ـ رسالة الدمنتي: علي بن سليمان البجمعوي نزيل مراكش، ت 1306/ 1889.

كتبها خطاباً لعلماء وملوك المسلمين مغرباً ومشرقاً، ليدعوهم فيها إلى عقد مجمع لعلماء الإسلام، تكون غايته توحيد المذاهب الفقهية والصوفية، وجمعها في مذهب واحد...

اعتنى بالرسالة الأستاذ أحمد التوفيق، فحققها وقدم لها معرفاً بأهميتها، ونشر ذلك ضمن كتاب «النهضة والتراكم»، دار توبقال للنشر ـ الدار البيضاء 1986: ص 257 ـ 277.

27 ـ «وثيقة المهاجرين التلمسانيين بفاس». وجاءت في مواجهة محاولة فرنسا لبسط حمايتها على الجزائريين المهاجرين للمغرب، بدعوى أنهم من رعيتها.

ودحضاً لهذا الإدعاء، بادر معظم المهاجرين بفاس وأكثرتهم من سكانها، إلى كتابة هذه الوثيقة ـ الناطقة بمغربيتهم ـ في لهجة وطنية وحمية إسلامية، وذيولها بـ 546 توقيعاً، فضلاً عن العدلين الشاهدين، ثم كان تاريخها في مهل ربيع النبوي 1312/«1894».

قدم للوثيقة محمد المنوني، ونشرها في مصورتها وبالحروف المطبعية،

مجلة «دعوة الحق»: السنة العاشرة، العدد 2 ص 104 ـ 106، سنة 1386/ 1966[1].

28 ـ **وثيقة بيعة**، ويتعلق الأمر ببيعة المغاربة المقيمين بجبل طارق للسلطان عبد الحفيظ، وتحمل تاريخ 26 رجب 1326/ «1908»، من وثائق الخزانة الحسنية بالرباط.

خامساً ـ شروح الوثائق الرسمية:

وهي ظاهرة بدأت من العصر العلوي الثالث.

29 ـ ونضيف ـ الآن ـ «شرح ظهير حسني»، من تأليف أحمد ابن الحاج، سابق الذكر.

شرح فيه الظهير المشار له، وقد صدر برسم التنويه به كأستاذ للحسن الأول ومؤرخ للدولة، خ. ع، ك 250 ضمن مجموع: ورقات 138 ـ 178. خ. ع، ك 49 ضمن مجموع.

30 ـ «شرح ثان للظهير ذاته»، تأليف الكتاني: محمد بن جعفر بن إدريس الحسني الفاسي، ت. 1345/ 1927: خ: ع، ك 250 ضمن مجموع: ورقات 180 ـ 192.

سادساً ـ مجموعة وثائق وقفية:

31 ـ «الحوالة الجديدة لأحباس سلا»، والغالب أن هذه هي التي استخرجها أحمد بن خالد الناصري مؤلف «الاستقصا»، فجاءت في سفر يشتمل على 165 ورقة من حجم كبير. خ: س 593.

سابعاً ـ أدلة خزائن المخطوطات:

(أ) في فاس.

---

(1) كتب الأستاذ ميشو ـ بللر إحصاء شاملاً للجزائريين المهاجرين إلى المغرب، وتتبع مراكز سكناهم بلداً بَلَداً، ثم نشر ذلك بعنوان «مسلمو الجزائر في المغرب»، مجلة «المحفوظات المغربية». (Archives Marocaines) سنة 1907.

32 ـ «لائحة لمخطوطات المسجد الأعظم بفاس الجديد» أيام السلطان مولاي عبد الرحمن. خ: ع، ك 3012: مبتورة الأخير.

33 ـ «دفتر عن المخطوطات بخزانة القرويين». خ. ع، ك 381.

34 ـ «لائحة المخطوطات بخزانة القرويين». خ. ع، ك 2956.

35 ـ «لائحة المخطوطات بخزانة القرويين». خ. ع، ك 3219.

36 ـ «لائحة المخطوطات بخزانة القرويين». المكتبة الوطنية بباريس رقم 4725، من فهرس بلوشة.

(ب) في مراكش:

37 ـ «لائحة بعض المخطوطات الغربية في الخزانة العباسية بمراكش» خ. ع، ك 1421: ضمن مجموع.

(ج) في الزاوية الحمزاوية.

بإقليم الرشيدية:

38 ـ «اللائحة الأولى لخزانة الزاوية الحمزاوية»، من وضع عبد النبي بن عبد الرحمن المجذوب بن عبد الحفيظ الفاسي الفهري، ت 1283/ 66 ـ 1867.

صنف فيها المخطوطات على الترتيب التالي:

المصاحف الشريفة ـ التفسير ـ أحكام القرآن ـ التصوف ـ الحديث ـ جوامع الحديث ـ السير ـ الفقه ـ النحو ـ التصريف ـ البيان ـ اللغة ـ دواوين الشعر ـ المقامات ـ أصول الفقه ـ التوحيد والمنطق ـ المجاميع ـ كتب التعديل والتوقيت والهندسة والحساب ـ كتب الطب ـ كتب التاريخ والطبقات والرحلات.

فرغ منها في رجب 1268/ 1852، وكتبها ـ بخطه المليح ـ في جزء من حجم مستطيل قليل العرض: 144 ص. وهي من محفوظات نفس الخزانة رقم 245.

39 ـ وللخزانة ذاتها لائحة ثانية بهذا العنوان: «نظم اليواقيت والجواهر فيما ألفه علماء الخليفة من الدفاتر»، صنفها مجهول بإذن السلطان الحسن الأول، وسار فيها على الشكل الآتي:

كتب التفسير وأحكام القرآن ..... 135 مجلداً
كتب الحديث ..... 240 مجلداً
كتب الفقه ..... 196 مجلداً
كتب النحو ..... 93 مجلداً
كتب البيان ..... 24 مجلداً
كتب الأصول الفقهية ..... 46 مجلداً
كتب التوحيد ..... 31 مجلداً
كتب التصوف ..... 38 مجلداً
كتب اللغة ..... 23 مجلداً
كتب الأدب ..... 43 مجلداً
كتب التاريخ ..... 27 مجلداً
كتب الطب ..... 13 مجلداً
كتب المجاميع ..... 134 مجلداً
المجمـع ..... 1.043 مجلداً

(د) الخزائن الملكية. خ. س 5858.

في عصر السلطان مولاي عبد الرحمن:

40 ـ «لائحة خزانة القصر السلطاني بمراكش». خ. س 4263.

41 ـ «لائحة خزانة القصر السلطاني بفاس». خ. س 4446.

42 ـ «لائحة خزانة القصر السلطاني بمكناس». خ. س 6586.

في عصر س محمد الرابع:

43 ـ «لائحة خزانة القصر السلطاني بمكناس». خ. س 4259.

44 ـ «لائحة حزانة القصر السلطان بفاس». خ. س 4429.

في عصر الحسن الأول:

45 ـ «لائحة خزانة القصر السلطاني بمكناس». خ. س 4433.

46 ـ «لائحة خزانة القصر السلطاني «بفاس». خ. س 8256.

47 ـ لائحة الكتب المصاحبة للركاب الحسني. خ. س 6535.

48 ـ لائحة كتب موزعة بين 13 صندوقاً. خ. س 5853.

في عصر العزيز:

49 ـ «لائحة خزانة القصر السلطاني بفاس» خ. س 4883.

في عصر الحفيظ:

50 ـ «لائحة خزانة القصر السلطاني بفاس». خ. س 4428.

(هـ) في قصر چاوز بمدغرة:

51 ـ «الروض العاطر في عد ما في خزانتي من الدفاتر» للشيخ محمد العربي المدغري.

والعنوان سمي به لائحة خزانته الخاصة في بيته بچاوز (اقليم الرشيدية)، وكانت لا تتعدى 280 كتاباً عند تاريخ تحرير الوثيقة عام 1299هـ. خ: س 12468.

* * *

ختاماً: نذكر بأن عدداً من وثائق هذا العصر عرفت طريقها إلى النشر ضمن ثلاث مؤلفات:

ـ «اتحاف أعلام الناس» للمؤرخ ابن زيدان.

ـ و «تاريخ تطوان» للمؤرخ محمد داود.

ـ و «مظاهر يقظة المغرب الحديث» لمحمد المنوني، وخصوصاً طبعته الثانية في جزءين.

مجلة «دار النيابة» ع 21، سنة 1989

العلاقات المغربية الإفريقية
من خلال مجموعة وثائق
في خزانة علال الفاسي[1]

والقصد إلى مجموعة وثائقية لم تكن معروفة من قبل، حتى ظهرت بين نوادر المخطوطات، في الخزانة القيمة التي خلفها الأستاذ الرئيس علال الفاسي، حيث تحتضنها «مؤسسة علال الفاسي» بالرباط، فتقدم المجموعة نموذجاً من طراز جديد للفكر الوحدوي في الاتجاه الإفريقي للزعيم المنوه به، وكان الفضل في اطلاعي على هذه الوثائق، يعود إلى مدير المؤسسة، الأستاذ العالم رفيق الدراسة: السيد عبد الرحمن الحريشي، فله على مبادرته جزيل الشكر وجم التقدير.

* * *

ونصل ـ الآن ـ إلى المجموعة المعنية بهذا التدخل، فنشير إلى أنها تشتمل على ص من حجم صغير، موضوعة داخل محفظة تحمل رقم 710، ومكتوبة بخط فاسي مليح، فيصنف ناسخها محتوياتها على الترتيب التالي:

1 ـ **رسالة** بتاريخ 16 محرم 1311 «1893»، وتذيل بإمضاء أمير تينبكتو: يحيى بن الكاهْيَ عن إذن أعيان السكان، وفيها ينهي إلى العاهل المغربي: السلطان الحسن الأول، أخبار المد الاستعماري بالسودان الغربي، وتحرش فرنسا بتينبكتو، ثم يلح على المبادرة بنجدة البلاد ومدافعة المعتدي.

---

(1) ألقي في ندوة «علال الفاسي والفكر الوحدوي»: 10 ـ 11 شوال 1408/ 27 ـ 28 مايو 1988 بفاس.

2 ـ **رسالة** بتاريخ 14 شوال 1310 «1893»، أمضاها البشير بن محمد بن عبد الرحمن التلموذي الجزولي الحسني، وكتبها ـ على حد تعبيره ـ عن إملاء وإذن خواص أهل تينبكتو: أميرهم يحيى بن الكاهْيَ، وسَن بن القائد ببكر، والحاج سَن محمد، ويحيى بن عثمان، وعموم المسلمين، وهي في مضمونها كسابقتها تقريباً.

3 ـ **رسالة** كتبت ضحوة الجمعة، لأربع عشرة ليلة مضت من ذي القعدة، ورسم العام فيها هكذا 1309، على أن المؤكد أن ذلك سبق قلم عن عام 1310 هـ «1893»، كاتبها أمير التكرور: أحمد الكبير بن الحاج عمر بن سعيد بن عثمان الفوتي، وفيها يشكو للسلطان الحسن الأول حروبه مع الوثنيين بالسودان، ثم تعاونهم مع الفرنسيين ومعهم كثير من المسلمين، مما ساعد المستعمرين على احتلال منطقة نفوذه التي يعدد بلدانها واحداً فواحداً، وبذلك يترجى من العاهل المغربي التدخل العاجل.

4 ـ **رسالة** مؤرخة بأوائل جمادى الأولى 1311 «1893»، كتبها شيخ تندوف: أحمد يَكَنْ بن محمد المختار بن باللعمش، ومعه من يتسمى بعبد الله بن العبد، فتذكر الرسالة للسلطان الحسن الأول أنه يرد على حضرته سودانيان من تينبكتو، وقد استولى الفرنسيون على أطراف من السودان الغربي، وخاف السكان من وصوله إليهم، فيلتمس الكاتبان من العاهل المغربي، المبادرة لتدارك شديد حالهم.

5 ـ **رسالة** السلطان الحسن الأول بتاريخ 15 شعبان 1311 «1894»، وهي موجهة إلى قضاة فاس الثلاثة: مُحمد بن مُحمد العلوي. وحميد بناني، ومحمد بن رشيد العراقي، فتخاطبهم الرسالة: «... وبعد: فيصلكم على يد مولاي عمر[1] مكاتب أربعة، وردت من عند كبراء السودان وتنبكت، أحدها لرئيسهم: السيد أحمد بن الحاج عمر، وثانيها: لرئيس تنبكت يحيى بن الكاهْيَ

(1) هو ابن السلطان الحسن الأول وخليفته بفاس، وترجمته عند ابن زيدان في «إتحاف أعلام الناس» 5/497 ـ 502.

وأعيانها، وثالثها للسيد البشير التلموذي وأعيان تنبكت، ورابعها: للسيد محمد بكاء[1] بن محمد بن المختار، تضمنت الإعلام بما دهمهم من صدمة العدو، والاستغاثة في إنقاذهم والدفاع عن بلادهم وأولادهم.

«نأمركم أن تحضروا أنتم وعلماء فاس المحروسة عليها، وتتأملوا فيها بالإمعان والتدبر، وما اقتضاه الشرع والطبع والمصلحة في ذلك أجيبوا به، وادفعوا الجواب لمولاي عمر ليوجهه على يده».

6 ـ جواب الشيخ جعفر الكتاني.
7 ـ جواب الشيخ أحمد ابن الخياط.
8 ـ جواب الشيخ محمد بن أحمد العلوي.
9 ـ جواب القاضي محمد بن رشيد العراقي.
10 ـ جواب القاضي أحمد ابن سودة.
11 ـ جواب الشيخ الطيب بن أبـي بكر ابن كيران.
12جواب الشيخ محمد بن أحمد الصقلي.
13 ـ جواب القضاة الثلاثة عن الرسالة الحسنية.
14 ـ جواب آخر للقاضي أحمد ابن سودة ومعه الشيخ عبد الله بن إدريس البدراوي.

وقد جاءت أجوبة الفقهاء تراعي واقع المغرب أمام قوة المعتدي، مضافاً لذلك البعد الشاسع بين المغرب وساحة المواجهة، فلذلك لم يرو مجالاً للفتوى بالتدخل العسكري[2]، على أن بعضهم أشار بالتدخل سلمياً وسياسياً مع الدولة المعتدية.

---

(1) تصحيف من ناسخ الرسالة عن «يَكُنْ»، وورد على الصواب في إمضاء الرسالة الرابعة.
(2) تتطابق هذه الفتاوي مع اتجاه الناصري، فيعلق على نازلة طرحت قبل هذا التاريخ، بفقرة مطولة نقتبس منها قولته: «... فهذا القطر المغربـي تدارك الله رمقه، على ما نرى من غاية الضعف وقلة الاستعداد، فلا تنبغي لأهله المسارعة إلى الحرب مع العدو الكافر، مع ما هو عليه من غاية الشوكة والقوة...»: «الاستقصاء»، دار الكتاب ـ الدار البيضاء 1956: 189/9.

وننتقل ـ الآن ـ إلى تبريز شيء من معطيات الرسائل السودانية، فنشير إلى ما تقدمه من معلومات عن أساليب الاعتداء الفرنسي على المنطقة ، ومن أهمية هذه اللقطات مقارنتها مع الروايات الفرنسية، وتصحيحها من هذه المستندات الوطنية ، وهكذا تفضح رسالة أمير التكرور، فظائع فرنسا وهي تحتل أجزاء إمارته:

«. . . وقد خربوا المساجد، وحرقوا المصاحف، وأذروا كتب العلم منشورة على الفلوات، وأعدوا المصلى كنائس، وجعلوا النواقيس مكان التأذين، واتخذوا بنات الشيخ: (والده الحاج عمر) سراري، وأولاده خدماً، وقسموا أولاد المسلمين بين صناديد المشركين».

أما رسالة أمير تينبكتو فتحدد ـ أولاً ـ بداية التحرش الفرنسي بعام 1305 «87 ـ 1888»، ثم تعرض تفاصيل عن الاعتداء على إمارة التكرور: «. . . وقدموا لمدينة جِنِ في 23 من رمضان في السنة العاشرة «1893» بالحرب والقتال، وأرادوا خديعتهم بما ذكرنا، فلم يقبلوا منهم إلا الحرب والقتال، وتحاربوا معهم حرباً شديداً، وقد قتل من الفريقين مقتلة عظيمة، وظفروا ـ بعد ـ بأهل جن المذكور، وملكوا مدينتهم ودخلوها عنوة، ونهبوا جميع ما يملكونه من خيل وسلاح ومال، وسبوا نساءهم وذراريهم.

وخرجوا من البلد وتركوا بعضاً منهم فيها، وعبروا البحر قاصدين أحمد بن الحاج عمر الفوتاوي، الذي كان متملكاً على تلك النواحي كلها، حتى بلغوا دار ملكه بنيغر، ففر منهم هارباً يطلب نجاة نفسه، وطلبوه على الأثر بعد الهرب حتى عجزوا عن طلبه، ورجعوا ومكثوا فيما ذكرنا من البلاد كلها، وقد أطاعهم جميعها، إنا لله وإنا إليه راجعون».

* * *

ومن إفادات هذه الرسالة وسابقتها: الإعلان عن مركز المغرب بين حكام السودان، وتقرير استمرارية ولاء إفريقية الغربية لملوكه حتى أواخر القرن 19، وقد جاء في رسالة أمير تينبكتو، تصريحها بأن المنطقة في طاعة وبيعة الحسن الأول،

ثم اقتناع الغزاة ـ أولاً ـ بذلك، وقد قالوا لمخاطبيهم، بأنهم علموا الأرض لم
هي.

يضاف لهذا: دلالات خطاب أمير التكرور وهو يستغيث بالسلطان الحس
الأول قائلاً: «والآن: الله. الله يا خليفة الله في أرضه، وخليفة رسوله ف
أمته، يا بن سيد المرسلين، دارِك. دارِك، دارك سريعاً، إن صحبك عذبوا
وبلادك قد خربوا، ورعاياك قد شتتوا، فهم ـ اليوم ـ بين قتيل وأسير وطر
ومنهوب ومنتهك ستره»، إلى أن يقول للعاهل المغربي: «فانظر ماذا ترى، فإ
منك وإليك، لا من غيرك، ولا ننسب إلى أحد سواك، فإن كوننا من تلامذة الشي
التجاني ـ رضي الله عنه ـ أظهر من كل ظاهر، وكوننا من أهل بيعته ظاهر جلي
وكون الشيخ التجاني ـ رضي الله عنه ـ في بيعة جدكم المكرم، والشريف المعظم
أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَوْلاَنا سليمان: أظهر من نار على علم».

* * *

وإلى هنا فقد قدم هذا العرض تحليلاً سريعاً للمجموعة الوثائقية عن استغا
السودان الغربي بالسلطان الحسن الأول، ونضيف ـ الآن ـ ملامح من أصداء ها
النازلة في الإعلام التاريخي المغربي، فيأتي في إحدى كناشات العباس ب
عبد الرحمن السجلماسي: «وفي أوائل رمضان من عام 1311 «1894»: ورد كتا
السلطان على علماء فاس، طالباً منهم الجواب عما كتب له به أمراء تمبكتو يطلبو
منه الإعانة، لأن العدو فاجأهم».

ثم يعلق على القضية ذاتها مؤلف «تلخيص ما عليه المعول، في أخبار م
بالمغرب من الدول»[1]، وخلال حديثه عن رجوع السلطان الحسن الأول من رح
تافيلالت عام 1311 «1894» لمراكش، يضيف قائلاً: فوردت على حضرته ب
مكاتب أهل تمبكتو وما جاورها من بلاد السودان، باستغاثتهم على الفرنسيس الذ
أراد الاستيلاء على بلادهم، فكتب لعلماء فاس بقصد الإفتاء في النازلة والحك

(1) خ. س 12385، وهناك تعريف وجيز بهذا المصدر، ضمن سلسلة «المصادر العربية لتار
المغرب»، مجلة كلية الآداب بالرباط: العدد 13 ص 221.

فيها، فأفتوا بعدم إجابتهم لأمور بينوها، وجلبوا نصوص الفقهاء عليها، فأجابهم بكلام ليس بصريح: لا بقبول ولا بعدمه تطييباً لخاطرهم».

وهذه الفقرة تشير ـ أيضاً ـ إلى طبيعة الجواب الحسني، الذي سنقدم نموذجاً منه عند الملحق 2.

كما أن الفقرة الموالية، تفيد عن مقابلة العاهل المغربي لوفد السودان، وهو ما يعلن عنه الحسن بن الطيب بوعشرين في تاريخه: «التنبيه المعرب. عما عليه الآن حال المغرب»[1]، فيقول آخر ترجمة س الحسن الأول: «... فعند أواخر عمره وصلته البيعة من السودان، ورد عليه بها بعض أهل بلاد تينبكتو، واجتمع بهم بمراكش، ورأوه وراءهم، وكلموه وكلمهم، ورأيناهم نحن كذلك».

ثم ذكر الواقعة الطاهر الوديي في كتابه: «الاستبصار»[2]، غير أنه اختلط عليه اسم أحمد الكبير ـ باعث الرسالة الثالثة ـ باسم والده الحاج عمر الفوتي، وزعم أن وزراء السلطان الحسن الأول سخروا من لباس الوفد السوداني: الثوب الأزرق واللثام، كما أنهم لم يخلصوا النصيحة لما استشارهم ولي الأمر، فحذروه من التدخل لدى فرنسا، وعظموا له المشقة في شأن هذه الإعانة الواجبة، وختم بالتقليل من قيمة الصلة التي سلمها وزير المالية للسفيرين السودانيين، مع الإشارة إلى الرسائل الحسنية الجوابية، وفيها ـ حسب تعبير المؤلف ـ «سيكون الكلام عن ساق جد مع الدولة الفرنساوية».

ونضيف ـ الآن ـ إلى الرسائل الأربع الأولى، رسالة من وكيل المغرب بمصر: الحاج عبد الواحد التازي إلى السلطان الحسن الأول، بتاريخ 10 رمضان 1311 «1894»، وقد جاءت صياغتها مهلهلة في شكلها: تعبيراً وأسلوباً وإعراباً، غير أن مضمونها ينم عن تفكير سياسي، وخبرة بنوايا فرنسا، وإدراك عميق لوضعية المغرب آنذاك.

---

(1) عن التعريف به يرجع إلى نفس المجلة والعدد: ص 225 ـ 226.

(2) عن «الاستبصار»: يرجع إلى «مظاهر يقظة المغرب الحديث» ط. بيروت: 1/247 ـ 248.

وأولاً: يشعر القنصل المغربي مخاطبه المنوه به، باحتلال فرنسا لتينبكتو، وأمام هذا الواقع يتقدم باقتراحات، ومنها إشعار قبائل فحيح وتافيلالت وشنڤيط بأن يكونوا على حذر، تحسباً لهجوم فرنسي مفاجىء، مع إمدادهم بحاجيات الدفاع من مال وسلاح.

ثم تطرح الرسالة اقتراحاً بتوجيه الرعية ـ سراً ـ إلى بذل المعونة للمجاهدين بالسودان الغربي، حيث استغاثوا بعاهل المغرب، ويضيف: فلو بقيت لهم الدراهم، لاستمروا يقاتلون المعتدي عشر سنين.

والرسالة ـ بعد هذا ـ لا تزال تحمل أفكاراً سياسية هادفة، ويرد نصها ـ تواً ـ في الملحق التالي.

أما الرسائل الأربع الأولى، فنحيل على مقتبسات منها عند الأستاذ الكبير: محمد إبراهيم الكتاني، في دراسته المهمة عن «مصادر تاريخ إفريقيا»[1].

(1) «مجلة الأكاديمية»، العدد 4، نوفمبر 1987: ص 231 ـ 237.

ملحق 1

رسالة وكيل المغرب بمصر الحاج عبد الواحد التازي إلى السلطان الحسن الأول

الحمد لله

نعم سيدي

فليكن في شريف علم سيدنا ـ أدام الله مجده وعلاه ـ أن قد بلغنا بأن الفرانسيس ـ دمره الله ـ خرج من سنگان لجهة تمكتوا، وأخذها بحيلة حيث جاءهم على غفلة، وكانوا تقاتلوا معه ـ سابقاً ـ وأخذ الله بيدهم وقهروه، نصرهم الله على القوم الكافرين، وعدو الله قصده الخروج في تلك الجهة لمشاركة البر، والتداخل منها خيب الله أمله، وكلما يمشي يمد السكة الحديد لتتبعونه بمهمات الحرب أهلكه الله، ومراراً توجه لفچيچ وعين الشعير فيقهرونه المجاهدون، ولم عْرف يسلك من تلك الطريق، فتوجه لهذه الجهة عسى أن يدرك قصده، ربنا يخذله وبهلكه بقدرته، ويسلط عليه عدواً أقوى منه، بجاه مولانا رسول الله.

فإن اقتضى نظر سيدنا أن يبعث لجميع قبائل تلك الجهة يكونون على حذر وبصيرة منه، وأن يدافعوه ويقاتلوه إن جاءهم على غفلة، ويمدهم سيدنا بما يحتاجون إليه من الدراهم وآلة الحرب ليكونوا مجتهدين في الحزم، مثل أعراب جكنا وشنكيط وبنو محمد وعبد الله وسالم وغيرهم، وأن يكونوا على بال من العدو ويستعدوا له اتباعاً لقول الله تعالى، وسيدنا يطالع كتاب الدسولي وما نقله في هذا الباب.

وإن اقتضى نظر سيدنا أن يمدهم ـ على سبيل السر ـ بدراهم وقوت: صدقة، ولأجل مقابلة العدو، وإعانة للمجاهدين الذين يدافعون العدو عنا وعنهم أخذ الله بيدهم، وينبههم بعدم دخول أحد غريب لبلدهم، لربما يدخل بلدهم الكافر ويقول: إنما تابع لمن يقاتله وهو حيلة، وإن قاتلوه مثل الصبنيول ودافعوه عنا وعنهم ذاك من فضل الله، جاءت لنا في الدراهم ربنا يخلفهم، فلو ما قاتلوه وردوه

لكان زاد في الدخول، ولكن ببركة سيدنا ورضاء الله علينا ما بلغ مراده، فسيد
يعمل اللطيف، وقراءة سيدي البخاري كل يوم: يدعون ويتضرعون إلى الله.

ولا يخفى على سيدنا بأن الكفار لما يملكوا ذراعاً يمدون فيه سكة الحد
ليملكونه، مثل ما فعلوا بتونس: خرجوا يتبعون الذين يخاصمهم حتى دخل تون
على غفلة، ووقف على باب دار وليها وحاكمها، فقال له يقبل هذا الشرط:
يكون تحته وإلا يقبض عليه، فما نفعه إلا قبول قوله، ربنا يحفظنا من هذا الكافر

فينبغي أن نكون ببال من العدو في كل جهة، ولم نغفل عليه مثل غيرنا، و
نصدقه، لقول الله تعالى: ﴿ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم﴾»، أدام الله لنا وج
سيدنا، الذي بوجوده يدفع هذا الكافر بالتي هي أحسن.

ولا يخفى على سيدنا بأن الكفار يمدون أيديهم، فإذا وجدوا من يقوم مع
على ساق الجد رجعوا، وإلا يزيدوا قوة واستعداداً، ربنا يخيب أملهم.

وقد خرج الكافر من جهة البحر ليحضر له جميع ما يحتاج إليه، حي
المراكب موجودة عنده ينقل فيها جميع المهمات وما يحتاج، وتداخله سنكان بد
الدراهم للكبراء، والقتال مع الصغار، وإن ـ لا سمح الله ـ ودخل من ذلك الج
يبطل مدخول الصويرة وغيرها، حيث تلك الجهة تنفع المراسي ورعية سيدن
ويدخل مال له بال من تلك الجهة، والنظر لمولانا.

وإن رام أن يبعث لجميع رعيته مع أحد من طرفه مثل بْنِعِيش، يكلم
ويوصيهم، ويأمرهم بمدد جيرانهم سراً بما يستعينون به لوجه الله العظيم، حي
استغاثوا بسيدنا، فلو بقي لهم الدراهم يبقوا يقاتلونه عشر سنين.

والنظر لمولانا أدام الله وجوده ومجده وعلاه، آمين، والسلام: في (رمضان المعظم عام 1311.

خديم المقام العالي با
الحاج عبد الواحد التاز
وفقه الله بمنه

من مصورات جائزة الحسن الثاني

ملحق 2

نضيف ـ الآن ـ ملحقاً ثانياً يشتمل على أحد جوابي السلطان الحسن الأول عن استغاثة السودان، وقد جاء في رسالة حسنية خطاباً للبشير بن محمد بن عبد الرحمن التلموذي الجزولي، حيث احتفظ بها سجل وثائقي لانتساخ الرسائل المخزنية:

المحب الأرضي السيد البشير بن محمد بن عبد الرحمن التلموذي الجزولي.

وبعد: وصل كتابك عن إذن أعيان أهل تنبكت، بأن الفرنصيص كان راودكم على البيع والشراء، واجبتموه بأنكم في طاعتنا، ولا تفعلون معه شيئاً إلا بأمرنا الشريف. فإذا به حارب أهل جِنِ وأخذها، وعبر البحر قاصداً ولد الحاج عمر كبير قومه، ثم كاتبكم بقبول ما طلبه منكم بعد فراعه من مقاتلة ولد الحاج عمر المذكور، وطلبتم من شريف جنابنا إغاثتكم وإعانتكم، واعتذرتم عن القدوم لحضرتنا الشريفة بعطش مفاوز الطريق، وأنكم حيث يصل إبان الشتاء تقدمون لأعتابنا السنية، وصار بالبال.

فقد كتب كبيركم الخديم يحيى بن الكاهْيَ لحضرتنا الشريفة بمثل ذلك، وأجبناه صحبته بأن ما طلبتموه من استنقاذكم وإعانتكم لما فيه مدافعة عنكم، فذلك لدينا من الأهم الأكيد، ولو أمكن الاتصال لبالغنا في إمداكم ومآواتكم منا إلى ركن شديد، إلا أن طول المسافة وإفراط البعاد، قد يضير العزم إمهالاً، ويجعل الحال استقبالاً.

ولذلك أوجب الشرع الإعانة على أهل المحل الذي فجأه العدو والمجاورين لهم ـ خاصة ـ وجوباً عينياً، دون البعداء لسقوط الفرض عنهم شرعاً بسبب البعد

الشاق.

على أننا حاولنا الكلام مع الفرنصيص في شأن كفه عنكم، ورفع يده عن التغلب عليكم الواقع بلا قاعدة، فاقتضت السيرة الاصطلاحية التوقف على الحج بكونكم تحت إيالتنا السنية، ومن جملة مملكتنا المرعية، ليحتج بذلك على الفرنصيص.

وعليه: فإن كانت لديكم مكاتبات من أسلافنا الكرام، المقدسين في دار السلام، أو ظهائر شريفة قديمة، أو إشارة يقينية، فوجهوا لنا ما تحصل به الحجة من ذلك، لنحاجّه به، ويسلم أنكم تحت إيالتنا السعيدة، ولا يكن تقصير ولا غفلة ـ بحول الله ـ عنكم بكل ما أمكن من المدافعة والاستنقاذ، بحول من له القوة.

وهو المسؤول ـ سبحانه ـ أن يكفي ما أهم، ويكشف ما ألم، ويوفي المؤمنين بما وعدهم ـ على لسان أنبيائه ورسله الكرام ـ من النصرة والعناية، إنه على ما يشاء قدير. وبالإجابة جدير.

والسلام، في أواسط رمضان عام 11 (13).

المصدر: «السيادة المغربية في الأقاليم الصحراوية من خلال الوثائق المخزنية» للأستاذ محمد ابن عزوز حكيم: الوثيقة 90 ص 160.

ملاحظة: المخاطب بالرسالة (البشير التلموذي)، هو كاتب الوثيقة الثانية المشار لها صدر هذا العرض، ويبدو أنه كان مكلفاً بمهمة في الصحراء والسودان الغربي، خلفاً عن والده محمد بن عبد الرحمن التلموذي الجزولي.

ملاحظة ثانية: رسم اسم تينبكتو بالوثائق في شيء من التخالف بين بعض حروفه، فحافظت على كتابته وفق ما جاء بالوثيقة المعنية.

«مجلة كلية الآداب» الرباط. ع 15 سنة 1990

لائحة مطالب وطنية مبكرة يقدمها عالم من فاس إلى المقيم ستيغ سنة 1926

تقديم وعرض:

واضع هذه اللائحة يحمل اسم أحمد بن محمد النّميشي الحسني الفاسي، توفي عام 1386/1967، وكان معدوداً من علماء فاس وأدبائها وذوي الغيرة من نخبتها، وذلك ما يشهد به ثلاثة من مترجميه.

انطلاقاً من الأستاذ محمد بن العباس القباج[1] في فقرة يقيّم فيها مواقفه: «وإن ننس فلا ننسى مواقفه التي يقفها ـ بلسانه وببنانه ـ دفاعاً عن المبادىء الحق وعن الدين الحنيف، في وقت يكتنفه فيه المغرضون الذين يبنون مجد شخصياتهم على أطلال السفاسف والجمود، ومن ذا الذي ينسى موقفه المشهور هو وإخوانه المصلحون، حيث قاموا قومة رجل واحد بالمطالبة بتنظيم كلية القرويين».

وعن جانب ثقافته يخطط الأستاذ إدريس بن الماحي الإدريسي القيدلوني[2] قائلاً عنه: «الفقيه العلامة الدراكة، الأديب الأريب، الكاتب المقتدر، الشاعر المجيد، المؤرخ الشهير، أكتب أهل عصره، وأعرفهم بتاريخ فاس وخِططها وأهلها وأنسابهم وأيامهم...».

ثم يركز الأستاذ عبد الله الجراري[3] على أدب المترجم: «من أدباء فاس

---

(1) «الأدب العربي في المغرب الأقصى»، المطبعة الوطنية، الرباط 1347/1929 1/76.

(2) «معجم المطبوعات المغربية»، مطابع سلا 1988، ص 348.

(3) «التأليف ونهضته بالمغرب في القرن العشرين»، مكتبة المعارف، الرباط 1406/1985: 73 ـ 74.

وشعرائها...»، ومن آثاره الأدبية العلمية كتابه: (تاريخ الشعر والشعرا بفاس)... اختصره من كتابه الواقع في مجلد ضخم ما زال مخطوطاً.

ومن غيرته تصديه لكتابة اللائحة التي نقدم لها، وقد رفعها للمقيم الفرنسي ستيغ سنة 1926[1]، فتناول فيها بعد افتتاحية مرنة، تشخيص الأزمة التي يعانيه المغاربة سياسياً واقتصادياً وثقافياً واجتماعياً.

وأولاً: يربط هذا الواقع باختلال نظام الضرائب، مما نجم عنه آثار سيئة على سير الاقتصاد الوطني: في التجارة والصناعة والفلاحة، وبالنسبة لهذه الأخيرة يبر الخطاب كارثة نزع الأرض من مُلاّكها لفائدة المعمرين.

وتنتقل اللائحة ـ بعد هذا ـ إلى فضح سيرة الحكام في تعاملهم مع الوطنيين

---

(1) النص الذي اعتمدته خال من التاريخ في مصورتي، غير أني استأنست في توقيته بتاريخ مطالب مشابهة ووجيزة، عقب بها واضع اللائحة على خطاب سياسي للمقيم ستيغ، ونش تعليقه في جريدة «السعادة» بعدد الخميس 30 صفر 1345/9 شتنبر 1926، وهكذا يقول:

«إننا قبل أن نطلب من حامي الشعب المغربي إشراكنا في إدارة أعمال بلادنا، نطلب منه أن يخرج منا لعالم الكفاءة رجالاً جديرين بأن نضع فيهم ثقتنا، خبيرين بأحوال الزما وتطوراته، لم يَعْمِ التعصب للقديم أبصارهم، ولا أنستهم بهرجة المدنية محاسن دينه وعوائدهم.

نطلب منه تعميم المعارف بين طبقات الشعب، حتى يدرك سواد الأمة التفرقة بي النافع والضار، ويقدروا المشاريع الهامة حق قدرها.

نطلب منه سن نظامات عادلة تقي الضعيف جور القوي، وتصون الرعية من حيف رعاة لم تهذبهم المعارف.

نطلب منه تحسين حالتنا الفلاحية، وتلك مشكلة البلاد...».

ونقفي على هذه المبادرة بالإشارة إلى أنه يبدو أن اللائحة المنوه بها سبقتها لائح مطالب وطنية، وهي التي يذكر الأستاذ عبد الكريم غلاب تقديمها إلى نفس المقيم بتاريخ نوفمبر 1925، حسب «تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب»، مطبعة الرسالة، الرباط: 1/77

كما أن الأستاذ محمد بن الحسن الوزاني يذكر هذه اللائحة، ويحلل مضمونها تحلي يتبين منه أنها غير لائحة الأستاذ النميشي، «مذكرات حياة وجهاد»، دار الغرب الإسلامي بيروت 1/238 ـ 239، غير أن القطع في هذا المقام يتطلب الوقوف على نص لائح 1925، وهذا لم يتأت لحد الآن.

لتعقب على ذلك بإلفات نظر المقيم العام إلى حالة العملة في حرمانهم من حقوقهم مادياً وقانونياً، وهنا يلوح الخطاب إلى المطالبة بالحق النقابي للعمال، ويضيف حرية تأسيس الأحزاب الوطنية.

وإلى ذلك تثير اللائحة مهزلة الرواتب الضئيلة التي يتقاضاها الموظفون الدينيون وعلى رأسهم العلماء، وتنتهزها فرصة للمطالبة بحق تنظيم التعليم الإسلامي.

ومن الاقتراحات الأخرى باللائحة: مطالب تتصل بالجمعيات الخيرية.

وبإنشاء الجمعيات الأدبية.
وبالصحافة العربية الوطنية.
وإصلاح القضاء والفتوى.
وتوسيع دائرة العضوية بالمجالس البلدية وكفاءة أعضائها.
والاقتصاد في النفقات الإدارية، وفي عدد الموظفين الأجانب.
وإصلاح السجون والمحاكم والمستشفيات.

وبعد هذه الخلاصة الوجيزة لمضمون اللائحة، نشير إلى أن واضعها أداها في أسلوب رفيع المستوى: تعبيراً وتركيزاً واستيعاباً.

غير أنه يلاحظ عليه ما يتخلل اللائحة من الليونة في خطاب المقيم، على أن هذه الملاحظة ستخف مهما تبينا طبيعة سياسة ستيغ، وهي التي يشجبها سياسي مغربي[1] في هذه الفقرة: «... ولهذا كان مجيء ستيغ كمقيم عام إيذاناً بالويل والثبور، ونذيراً بسياسة عمادها القهر والاستعباد والسلب والنهب، والإرهاق والإرهاب...».

ومع هذا فإن صاحب اللائحة يشير في طالعتها إلى الوعود التي قطعها المقيم منذ عين لوظيفته، فانتهزها المترجم ليقدم مطالبه في صياغة تأخذ بعين الاعتبار نفسية المقيم[2]، دون التفريط في استيعاب الحقوق الظرفية بكل شجاعة

---

(1) محمد بن الحسن الوزاني في «مذكرات حياة وجهاد»، مصدر سابق: 1/396.

(2) إن هذه النفسية الجامحة لم تكن خاصة بمقيم دون آخر، وإنما نشأت في المغرب بنشوء الحماية الاستعمارية، وذلك ما يجليه المؤرخ محمد السليماني عند افتتاحية كتابه «اللسان=

ومهما يكن الأمر فإن هذه المبادرة بالقياس لزمانها، تعبر عن غيرة وطنية وإحساس بالحرمان، وإعلان بالرفض للسياسة المتبعة، وإيذان بظهور وعي وطني يطمح إلى التغيير.

وأخيراً، فإن هذه اللائحة أثبتها واضعها ـ بخطه ـ في إحدى كناشاته، ومنه نقلتها كاملة، مع الإشارة إلى أني اتصلت بها عن طريق صديق عزيز مشكور جـ الشكر.

نص اللائحة:

سعادة المقيم العام،

إنني قبل أن أفاتح جنابكم الكريم بخطابي هذا، أعترف بأنه لا حيثية لم رسمية تؤهلني لمخاطبتكم، ولكنني لما اطلعت على خطاباتكم التي كانت تنشره الصحف وعلمت من مجموعها ما لكم من العزم على النهوض بهذا القطر المغربي والعروج به إلى عالم الحضارة والترقي، أردت بداعي حب هذا الوطن الذي تقل أرضه وتظلنا سماؤه أن أدلي إلى سعادتكم ببيانات صادرة من قلب مبتهج بالوعو التي قطعها ممثل الدولة الحامية منذ عين لوظيفه السامي، ولتعتبروا هذ التصريحات التي أمليها على جنابكم بلسان طالما نوه بالأعمال التمدينية العظيم التي قامت بها الدولة الإفرنسية في هذا القطر منذ رفرفت أجنحة حمايتها عليه وآتية من محب مخلص يتمنى أن يرى وطنه في بحبوحة رغد العيش والهناء.

لا أريد أن أضمن كلماتي هذه معنى سياسياً ربما كان مجلبة للاستيلاء، وإنـ أقصد أن أوضح لكم ما تتوق إليه نفس كل وطني وتتمنى أن تحصل عليه إدارياً.

من القواعد التي سار عليها رجال الدولة الحامية منذ وطئت أقدامهم التراـ

= المعرب»، مطبعة الأمنية، الرباط، ص 3، فيشرح خطته في عروض كتابه وقد حاول نشـ في فجر الحماية: «... بيد أني تكلمت حسب الإمكان، في غالب وقائع هذا الزما وتقلبات الأوان، لأن الظروف تحجر التصريح، بما يثير التبريح، اللهم إلا التلميح الرام إلى المقاصد، بما يعقله العالمون بمقتضيات العوائد، وتحاشياً عما يوقع في المحذور، يوغر الصدور، حتى لا يجد أهل الوشايات، ما يحدثونه من الهنات».

المغربي، إبقاء النفوذ المخزني، والمحافظة على الأنظمة القديمة التي كانت تسير عليها الحكومة، ولم يحوروا إلا ما لا غنى عن تحويره.

كانت حالة المغرب قبل الحماية على الصفة التي لم يزل منظرها المخيف ماثلاً بين أعيننا، سائرة في سائر أعمالها على نظام عقيم إن صح لنا أن نطلق لفظ النظام على ذلك المعنى المشوه: لا وازع يزع ولا راحم يرحم، إنِ الرعية بين أيدي الكبراء والمشايخ إلا كالغنم بين يدي الجازر يضحي منها ما شاء وشاءه هواه، وما كان ينجو من مخالبهم إلا من التجأ لدولة أوروبية تحميه وما له، والثورات الكثيرة التي كانت تتقد نيرانها بجوانب المغرب لم يكن لها من سبب إلا تلك المعاملة الوحشية القاسية التي كان يلاقيها الإنسان من أخيه.

لأمثلن لكم ذلك بالتنازل من الهيأة الحاكمة للعامل عن الفرد من إيالته يتصرف فيه وفي ماله وعائلته طبق مشتهياته العدوانية، فيستصفي أمواله ويفعل أمام عينيه بحرمه ما يندى له وجه الإنسانية خجلاً ويعذبه بأنواع العذاب الجهنمية التي لا تقدر يراعة أن تشخص أهوالها، وذلك في مقابلة ما ينفح به الوزير الفلاني والرئيس الفلاني من الدريهمات الناصعة والإبريز الوهاج، أم أمثل لكم ذلك بِجَبْر العمَلة والصناع الذين هم السواد الأعظم من الأمة على القيام بالأشغال المخزنية التي لم يكن لها حد تقف عنده، دون أداء لأجور أولائك المنكوبي الحظ أو بأجر زهيد لا يؤبه له.

كل ذلك في علم جنابكم إذ ليس العهد به ببعيد.

إن اعتقادي شخصياً أن الحماية الفرنسية لو تأخرت عن وقتها بضعة أعوام لوصلت حالة المغرب مادياً وأدبياً إلى أسوأ حالة لم تصل إليها دولة من الدول، ولا شعب من الشعوب.

النتيجة أن الحماية كانت دواءً ناجعاً لتلك الأدواء التي نخرت عظم هيكل المغرب، فلا يماري أحد في وجوبها إذ ذاك بطبيعة الحال، هل قضى نظام الحماية على جميع الأدواء التي كان يئن تحت وقرها كل عامل مغربي حزين، وهل اجتثت

شجرة الظلم والحيف من أصلها، ذلك ما لا يمكنني أن أصوره بصور الإيجاب الكلي.

إن المريض وأعني به القطر المغربي بعدما استعصى داؤه وكاد أن ييأس من حياته عالجته أيد رحيمة تشبعت بمبادىء الرحمة والشفقة، ويعز عليها أن ترى الإنسانية مُعذّبة في أي صورة من الصور، ولكن تلك الأدوية لم تبلغ بذلك المريض إلى حد النقه تماماً وإن أشرف على الشفاء.

والرجاء الوحيد الذي يرجوه ذلك المريض هو أن يتم علاجه على يد الطبيب الماهر المسيو ستيغ، حيث إنه لا يصف للمرضى من الأدوية إلا ما سبقت له تجربته، والتجارب نصف الطب.

هنا يحسن أن نشخص له بعض الأدواء التي نشكوها، ونكِل له ـ وحده ـ النظر في اختيار الدواء الناجع.

لا يخفى على جنابك أيها الرجل العظيم أن أسباب المعيشة في هذا القطر كغيره أربعة: التجارة والصناعة والفلاحة والوظائف المتنوعة.

أما التجارة فيقوم بها طبقتان من سكان المدن: الأغنياء وذوو الطبقة الوسطى من أهلها.

وقد كانت التجارة زاهية زاهرة إلى أن جاءت الحرب العالمية الكبرى فزعزعت بنيان المعاملات التجارية من جملة ما زعزعته، وأصبح التجار كريشة ملقاة في مهاب الرياح، تبعاً لسير الصرف الذي لم يتسقم له اتجاه إلى الآن، وأضحى التاجر المغربي ـ الذي كان مثال الخفة والنشاط ـ يرسف في قيود التأملات: يريد الإقدام فيحجم خوفاً من الوقوع في هوة عميقة لم يتبينها، ويريد الإحجام فيقدم خشية أن يندم إذا تبين له بعد أن الفرصة كانت سانحة، (وهل لعلاجه من داء)؟ سؤال لم يقدر ساسة الاقتصاد أن يجيبوا عنه جواباً شافياً إلى الآن، ولعل الطبيب الماهر إذا استعصى عليه الداء يشير على مريضة بمسكنات وقتية توقف داءه عند حد، ريثما يأتي الوقت الذي يجتث فيه الداء من أصله.

ومن أهم المسكنات النظر في الضرائب الموظفة على التجارة وتوزيعها على

النسبة الرأسمالية، فيوظف على صاحب التجارة الواسطة ما يناسب ماليته، وعلى من دونه ما لا يضر بسير تجارته، وبذلك لا يبقى محل للتأفف ولا للتضجر، من غير أن يلحق ذلك إجحافاً بالميزانية، أما الأساس الذي بني عليه توظيف ضريبة التجارة فلم يلاحظ فيه هذا المعنى، بدليل ما نراه من أن ما يدفعه أصغر تاجر ربما ساوى ما يدفعه التاجر الكبير أو فاقه، وسبب ذلك قصر اللجنة المعدلة لتلك الضريبة نظرها على ظواهر الحال من غير تعمق في البحث عن الطوايا، مع ما ينضم لذلك مما لا يخلو منه بشر من الخطأ في التقدير، أو لأسباب أخرى لا تخفى على الفطن اللبيب.

أما الصناعة فهي مهنة السواد الأعظم من الشعب.

وإذا كانت الحكومة الإفرنسية مستحقة لكل مدح وإطراء على ما مثلته من أدوار ترقية هذا القطر، ففي طليعة ما ينبغي أن يذكر لها من الأعمال الصالحة ترقية بعض الصناعات الوطنية التي كان أهلها انكمشوا في مغارات الخمول، وأصبحوا يلقون على مصنوعاتهم نظرات الاحتقار.

عادت صنعة النجارة والتسفير والفخار والنقش على الصفر والطرز والنسج وبالجملة غالب الصناعات الوطنية المهمة إلى شبابها، وبعثت من رمسها بعد أن نامت فيه أطول من نومة أهل الكهف، وها هي الآن شامخة الأنف تضارع الصنائع الأوروبية، وأهلها قد حصلوا على بعض الثروة التي لم يكونوا يحلمون بها، والتي نالوها بكد قرائحهم وتعب أفكارهم.

وإذا كان هؤلاء يتمتعون بثمار ما غرسوا بأنفسهم، فهناك فئة كبيرة لم يلاحظها السعد بما لاحظ به إخوانها؛ وهم أهل الحرف الوطنية المحضة: كالخرازين والدباغين والحاكة والحرارين، فهؤلاء مفتقرون تمام الافتقار لجس نبض حالتهم، والنظر بعين الاهتمام في شؤونهم، إذ هم من أعضاء الهيكل المغربي، وأعضاء الجسد في غاية التضامن إذا اشتكى عضو واحد تألمت سائر الأعضاء، ومن جملة الأعمال الصالحة التي تسدي لهؤلاء: النظر في أمر الضرائب الموظفة عليهم بإسقاطها على من ثبت عجزه عن أدائها عجزاً كلياً أو كانت تجحف به وبعائلته، وبتعديلها بالنسبة لمن سواه، وليلاحظ سعادة المقيم أن عملاً كهذا لا

يدخل على الميزانية أدنى خسارة، ولكن تربح الحكومة من ورائه وسمها بسمة العدالة التي هي أهم دعامة قامت عليها هيأة الجمهورية الفرنسية، غير أن ما نطلبه عمل يشق إذا لم يتول أموره رجل ناصح أمين مقتدر ـ بما أوتيه من الفكر السليم ـ على وزن الأشياء بميزان التعقل والرزانة، وجعل النزاهة رائداً لأعماله.

وأما الفلاحة فيكفي في شرح حالها أنها مرتزق جل سكان هذا القطر.

وإذ كان أحد يتوقف على تسهيلات الحكومة ففلاحو الإيالة المخزنية أحق بها، وتحيق الآن بالفلاح الوطني مصاعب لا يتحمل صدماتها إلا من كانت لماليته بنية تقوى على اتقاء تلك العواصف.

أهم تلك المصاعب مسألة البلاد التي هي الركن الأعظم لماهية الفلاحة، لا يعْزب عن ذهن من ألقيت إليه مقاليد الحكم في هذه البلاد، أن بلاد المغرب منذ الفتح الإسلامي إلى الآن منقسمة إلى قسمين، منها ما تملكه ذووه بعقد شرعي لا تقوى أي يد على فصم عراه، إذ الاعتداء عليه اعتداءً على الحرية الشخصية التي تحرمها الأديان الشرعية والقوانين الوضعية، ومنها ما بقي تحت إشراف الحكومة منذ الفتح أو آل إليها بوجه يصح بسببه أن ينسب إليها، وهذا القسم الأخير يتنوع إلى نوعين منه ما أبقته تحت تصرفها بالفعل، ومنه ما رفعت يدها عنه وأصارت التصرف فيه لجماعات القبائل في مقابلة ما كانوا يقومون به من حراسة البلاد، وهي سياسة حميدة في ذلك الوقت تشكر عليها تلك الحكومات.

وقد أصبحت تلك البلادات بسبب تنازل الحكومة عنها شبه ملك لأفراد أولائك القبائل، لا يظنون أن هنالك يداً تمنعهم مما كان في حوز أسلافهم السنين العديدة والأحقاب المديدة، ولكن عارضت هذه المصلحة مصلحة الحكومة التي ترى أن تنشيط الفلاحة لا يتم لها أمره إلا بالسير وراء قوانين استثمارية يقتضيها الاستثمار.

وحيث أن فلاحي الوطنيين لا يتسنى لهم القيام بجلائل الأعمال، لأنهم لم يذوقوا حلاوة الجهاد في العمل إلى الآن، لم يكن من الحكمة منع جيرانهم

الإفرنسيين من بذل مواهبهم الفكرية في استعمار تلك البلادات التي للحكومة شبهة في دعوى الملكية لها.

من هنا جاء الإشكال وكثر اللجج والتذمر، والحكيم النطاسي الخبير إذا استعمل الفكر السليم الخالي من التعصب لأي جهة، لا يصعب عليه التوفيق بين النظريتين.

ومسألة هي من الأهمية إلى حد أن العنصر الأهلي يتوقف مصير حياته على البت في شأنها، لا يجمل بقاصر الفكر مثلي أن يبدي فيها رأياً، والمرجو من سعادتكم أن تجعلوها في طالعة برنامج الإصلاحات التي تنوون القيام بها في المغرب، إذ كل من هون لكم شأنها فقد كتم عنكم الحقيقة بتمامها، ولا يريد من وراء ذلك للوطنيين خيراً.

هذا كله بالنسبة للبلادات التي للحكومة شبهة في دعوى تملكها كما قلنا، أما البلادات التي هي ملك لأربابها وطولبوا الآن بالتخلي عنها ليحل محلها المعمرون فهي العقدة العسيرة الحل، والتي لم نطلع إلى الآن على وجه الحكمة فيها، وعلى فرض أن هنالك وجهاً يسوغ للحكومة ما رامته، فقد كان الأولى أن لو سلكت فيه سبل السياسة، لئلا ينقذ ذلك بعض رجالها بكل قسوة وشدة.

وإذا أراد جنابكم الكريم أن يقف على نزر مما وقع فإني أذكر له ـ بكل أسف ـ أن من الأهالي من سجن لامتناعه من التخلي عن بلاده بدون موجب، ومنهم من وبخ أشنع توبيخ، أما الضرب فإنني أستحيي أن أذكره لممثل الدولة الفرنسية التي لقنت للعالم مبادىء العدل والحرية والمساواة، كل هذا وقع قبل أن تطأ أقدامكم تراب هذه الإيالة ببضعة أشهر، وقد شاهدنا بأعيينا بعض ذلك مما أجراه الرئيس السابق لإدارة الأحواز بهذه العاصمة الفاسية القبطان مانويل.

ومن جملة الصعوبات التي يلاقيها فلاحو البوادي على الخصوص: ثقل الضرائب التي لا تراعى فيها نسبة معقولة، أرجو أن تعيرني آذانكم وأن تتدبروا هذه الكلمات التي هي الأهم من خطابي.

لا أكتم عنكم ما بلغته حالة فلاحي البوادي وهل يسر المريض أن يكتم ما

تحت جوانحه من الآلام عن طبيبه الذي لا يرجو الشفاء إلا على يده.

قلت في طالعة خطابي إن رجال الدولة الحامية اقتضت أنظارهم أن يتركوا بعض الأنظمة القديمة كما هي، ومما ينتج عن ذلك إبقاء أيدي العمال مطلوقة في إيالاتهم، والإدارة الفرنسية إنما هي قائمة بالإشراف على سير الأعمال.

إن فرنسا أرادت بالتحافظ على الحالة القديمة أن تقيم للعالم شاهداً على حسن سيرتها ومحافظتها على صبغة البلاد، ولكن ظلمة العمال لم يقوموا بشكر هذه النعمة، وظنوا أن الله قيض لهم الرعايا غنيمة باردة يسوقونها شبه الغنم إلى المذابح كيف شاءوا ووقتما شاءوا، متعللين لأفعالهم بعلل لا توجد إلا في مخايلهم، ومبررين أعمالهم بحجج لا يقام لها وزن يوم يطفح الكيل وينصب الميزان.

ليعلم نائب الدولة الحامية التي بنى أساس جمهوريتها على العدل والمساواة، أن حالة البوادي تبكي عين كل إنسان يحمل بين جنبيه شيئاً من الرحمة والشفقة:

امتص العمال أموال الرعايا، وأذاقوا الكبير والصغير أليم انتقاماتهم المتنوعة.

حمّلوهم من الجبايا فوق ما يطيقون، وأثقلوا كواهلهم بالمغارم التي لا يبررها قانون.

يجرون أمور ترتيب حرائثهم ومواشيهم على طبق أغراضهم ومشتهياتهم، مع أن للجبايا قوانين لا تتعداها، وكم من رجل لا يجب عليه أداء بمقتضى تلك القوانين، فيرغم على أداء ما لا يجب عليه، وكم منهم من يجب عليه قدر فيلزم بأداء أضعاف أضعافه، إلى غير هذا مما يضيق عنه الشرح والبيان، ولا تقرره إلا المشاهدة والعيان.

ويا حبذا لو وقف الحد عند مضاعفة الأداءات والجبايات التي تصل للخزينة العامة، فقد يهون ذلك إذا عُلم أنه يصرف في مصالح البلاد، ولكن الطامة الكبرى هي أن تلك الأموال المبتزة من الرعايا جلها يبتلعه العمال ومن هم على شاكلتهم،

وبأدنى درس لحالتهم المالية قبل ولايتهم ومقارنتها بحالتهم اليوم يتبين المقدار العظيم الذي اختلسوه من الرعايا وكان السبب في فقرهم المذقع.

والويل كل الويل لمن حدثته نفسه برفع الشكاية لإدارة دارته، فهناك يصب عليه العامل جام انتقاماته، ويسمه بالجرائم التي ما حام المسكين حول حماها، وهل صاحب السلطة يعجز عن أن يقيم على دعاويه الكاذبة ألف حجة ودليل، أمثل لجنابك الكريم بحادثة صغيرة بسيطة لا يسع مرتكبها إنكارها، وإن أمكنه أن يلفقه لها أسباباً وأعذاراً واهية، حدثني مخبر ثقة شاهد تمثيل الرواية المحزنة التي سأقصها على مسامع جنابك الفخيم:

وذلك أن رجلاً من القبيلة الجامعية تخلد في ذمته دين لم يسعه بعد حكم العامل عليه بأدائه، إلا بيع الدابة الوحيدة التي يملكها لقضاء ما عليه من الدين، فما راعه إلا توجيه عامله عليه وتوبيخه على الإقدام على بيع الدابة، مع أن ضوابط الحكومة في زعمه تمنع أهل البوادي أن يبيعوا دوابهم إلا بإذنها، فاندهش وقرر له أن بيعه للدابة كان مجبوراً عليه، تنفيذاً لأمره له بأداء ما عليه من الدين، وليس له ما يؤدي منه إلا تلك الدابة التي كانت شؤماً عليه، فأشاح بوجهه عن سماع تلك الحجة الواضحة الصادرة من أعماق ذلك الرجل التعس الحظ وألقى به في غيابات السجن، فاستعطف بعض أقاربه محدثي بهذه القصة أن يكون خير شفيع لقريبهم عند العامل، بعد أن دفعوا للعامل وكاتبه أزيد من ثلاثين ريالاً على أن يسرح ذلك السجين ويلتزم بشراء دابة بدل التي باع، فما قبل للشفيع المذكور شفاعة، وكانت نهاية هذه الرواية المخزنية الحكم على الرجل رسمياً بقضاء ثلاثة أشهر سجناً.

هذا ما حدثني به مخبري، وهو من وجهاء المدينة وأعيانها، فهلا تنفطر الأفئدة عند سماع أمثال هذه القصص التي يظنها السامع أنها من أمثال خرافات ألف ليلة وليلة، مع أنها روايات واقعية يمثل العمال على مسارح أعمالهم المئات والآلاف منها.

فإذا كان رجل فرنسا العظيم وهو من أبناء أولائك الذين قوضوا صرح الظلم والعدوان يريد خيراً بهذه البلاد، ويود أن يترك عملاً نافعاً يسجله له التاريخ، فليخصص جزءاً من وقته الثمين للنظر في أمثال هذه الحوادث التي هي المنبع لكل

شر، والمواد الالتهابية المهيجة لبراكين الفتن، وهي فيما أتحقق السبب الوحيد لخروج بعض القبائل عن الجادة المثلى والصراط السوي المستقيم.

وأما الوظائف فلا يخفى على جنابكم أن منها ما هو إداري ومنها ما هو ديني.

أما الإداري فلا كلام فيه ولا ملاحظة لي عليه حيث أن رواتب أهله مناسبة في الجملة، إذ للحكومة اعتناءً بهم وتشملهم برعايتها كما تشمل إخوانهم الفرنسيين، وإن كان لهؤلاء الآخرين تفوق على الأهليين تفوقاً لا يجب أن يحسدوا عليه نظراً للمصارف الكثيرة التي تخصهم باعتبار عوائدهم وكلفهم، ولكونهم كالغرباء عن وطنهم الأصلي.

نعم من هذا القسم العملة وما أدراك ما العملة، أولائك الذين هم السواد الأعظم من الأمة، والذين من عرق جبينهم تتكون أودية الأموال التي تسقى منها رياض الأغنياء وبها تجري مراكب ثروتهم.

في كل بلاد من البلادات المتمدنة يوجد حزب لهذه الفئة التي يجب أن ينظر لها بعين الشفقة والرأفة والاحترام، لقيامها بجهود عظيمة، وتحملها لمصاعب جسيمة.

أما هذا القطر فهو خال من هذا الحزب ومن بقية الأحزاب، لكونه لا زال حديث عهد بالرقي العصري، وما دام محروماً من هيأة تمثله وتدافع عن حقوقه، فالأليق أن تدير الحكومة أعماله بواسطة رجال أحرار يقدرون الإنسانية ـ من أي جنسية كانت ـ حق قدرها.

وكفانا أن يعرف جانب المقيم أن حالة عملة هذا القطر تقتضي مَدَّ يَدِ المعونة لهم، لا سيما بعدما حرموا من الهجرة للربوع الفرنسية الجميلة التي كانوا يجدون فيها من واسع الرزق ما لم يجدوه في أوطانهم.

ولا أنسى أن أذكر لكم أن هؤلاء العملة المساكين هم هدف لظلم الولاة أكثر من غيرهم، فهم الملزومون بخدمة الطرق دون أجور، وهم الذين يقومون بأشغال حراثة العمال من بذر وتنقية وحصاد ودراس ونقل محصول.

ومن الغريب أن الضريبة الشخصية المعبر عنها عند المغاربة بضريبة الأذن إنما شرعت لتقي القائم بدفعها من تلك الأشغال، وها تلك الضريبة تؤديها ـ الآن ـ بوادي المغرب ويرغمون بعدها على القيام بالخدمات الشاقة التي لا يحتمها عليهم قانون، بل قد بلغ المكر في بعض القبائل إلى حد أن تلزم السلطة بعضهم بترك شؤونهم الخاصة والقيام بأشغال المعمرين مدة معينة بأجر زهيد، وربما ضاع للقائم بذلك من أمور معاشه أضعاف أضعاف ما قبضه.

وأما الوظائف الدينية كالتدريس والإمامة والأذان وغيرها فهي التي يهمنا أن نسهب القول فيها، وأن نشرح لعميد الدولة الجمهورية حالتها بغاية الحرية والصراحة:

وقع التصريح في عقد الحماية بأن الدولة الحامية لا تزال ساهرة العين على حفظ شريعة وعوائد البلاد، وتلته تصريحات مؤكدة لمضمونه من غير ما واحد من كبار الساسات الفرنسيين، مما لم يبق لنا شكاً ولا ريباً في حسن نوايا هذه الدولة نحو شريعتنا، وإذا خضنا معها يوماً من الأيام في ذلك الموضوع واستلفتنا نظرها إلى جزئية من جزئيات ما قطعت لنا الوعد به، فما معنى ذلك أننا نتهمها بنكث عهودها أو نقض وعودها، وإنما معناه إيضاح أن الجزئية المبحوث في شأنها مندرجة في عموم ما وقع التنصيص عليه، أو أن حالتها الوقتية تقتضي النظر إليها بوجه خصوصي.

ومن هذا النوع مسألة أجور الموظفين الدينيين التي ينبغي الاهتمام بها، وجعلها في طليعة المسائل التي يجب النظر إليها بعين السرعة.

تقوم بنفقة هذه الفئة إدارة الأحباس، إلا أنها بكل أسف لم تسمح لها ميزانيتها بالزيادة في رواتبهم التي لا تسمن ولا تغني من جوع.

وإنني أتيقن أنه لتأخذكم الدهشة عندما أقول لكم بكل صراحة: إن هذه المسألة التي هي روح الدين هي المسألة الوحيدة التي كانت قبل الحماية أسعد منها بعدها، كانت هبات الأمراء وصلاتهم تترى على العلماء آونة بعد أخرى بمناسبة وبغير مناسبة، زيادة على ما يسهم لهم في الأحباس.

أما اليوم فلا أزيدكم شرحاً على أن أذكركم أن غاية ما يقبضه صاحب الطبقة الأولى من العلماء نحو المائة والخمسين فرنكاً شهرياً، والكثير منهم ربما كان هذا القدر مبلغ نصيبه من الدنيا.

وإنني أعرف كثيراً منهم ـ يا جلالة المقيم ـ أصحاب عائلات كبيرة يبيتون هم وعائلاتهم طاوين اليوم والليلة، وربما كان قوتهم ـ في غالب الأيام ـ خبز الشعير فقط، أيرجى للعلم انتشار والقائمون بنشره بهذه الحالة التي وصفتها بلا تحيز ولا مبالغة.

نعم إذا كان هذا من الاجحاف العظيم بخير هيأة في البلاد فذنبه محمول على عاتق الرؤساء المسؤولين من المسلمين، لأن المسألة ـ كما قلنا ـ مسألة دينية بحتة، وقد قطع رجال فرنسا كما قلنا غير ما مرة وعودهم بأن لا يتداخلوا في شؤون المسائل الدينية إلا تداخل إرشاد.

وبهذه المناسبة نقول إن سبب كل حيف يقع على الأهالي، فأكثره من رؤسائهم الذين يتقاعسون عن رفع مطالبهم لرجال فرنسا الأحرار.

ولنمثل لجنابك الفخيم بالهيأة العلمية التي هي موضوع بحثنا، فطالما اجتمعت كلمة أفرادها على أن يرفعوا شكواهم وما يقاسونه من أليم الفاقة للرؤساء الافرنسيين، فيثبط عزيمتهم مجلسهم العلمي الذي كان من حقه أن يكون أول مدافع عن حقوقهم، ويضع لهم العراقيل في سبلهم، حتى إنه ربما مثّل لهم ما يريدون الإقدام عليه بشبح مخيف مرعب، ويدلك على ذلك أن غير ما مرة استفهم سلفكم المريشال ليوطي عن سير الحالة العلمية وعن حال العلماء، فكان المجلس يأنف أن يشرح له الحالة كما هي، ويجيبه بأن الحالة العلمية زاهية زاهرة، ورجالها حامدون شاكرون، مع أن حال العلم وحالتهم ـ وحق شرف فرنسا ـ لحالة تحزن الأفئدة وتدمي العيون.

إنني منذ عشر سنوات وأنا مشتغل بدرس مسألة إدخال النظام على التعليم الإسلامي، ورفعت بذلك التقارير الضافية لغير ما واحد من كبراء الوطنيين ورجال الدولة الحامية، وربما كان في ضمن هؤلاء الأخيرين الفاضل العلامة المستعرب

حبيبكم القونصو المسيو ميرسي حينما كان مرشداً للمجلس العلمي بهذه العاصمة الفاسية أول تأسيسه، وأحمد الله أن وقع الشعور التام بشدة الاحتياج إلى إصلاح التعليم، وأصبح عقلاء الأمة ومفكروها ينتظرون تداعي صروح العلم إن لم تتداركها أيدي الترميم.

النتيجة أن عيون العلم قد أوشك ماؤها أن ينضب، وأن القائمين بتمثيل أدواره تنقص أفرادهم يوماً فيوماً، وكل فرد ذهب لا يلفي له خلف.

الدواء الوحيد لذلك هو السير بالعلم على الأنظمة العصرية التي تسير عليها غالب كليات الشرق، ولا أبعد النجعة في التشبيه، فهذا القطر التونسي الذي تخفق في سمائه الراية التي تخفق علينا، قد أصبح معهد الزيتونة به بهجة للناظرين، وروضاً زاهراً بالعلوم والمعارف.

من ساعده الحظ بالوصول لذلك القطر وشاهد سير العلم في تلك الكلية المباركة، لا يسعه إلا الثناء الجميل على السياسة الحميدة التي سلكتها فرنسا هنالك حتى أصبحت تلك الكلية العظيمة تضم بين جدرانها مئات الأساتذة وآلاف التلاميذ.

إنني لا أحسد إخواني التونسيين على ما نالوه بجدهم واجتهادهم وأخذ الدولة الحامية بعضدهم، ولكن في مقابلة ذلك أندب حالة الكلية القروية التي كانت تسير مع الكلية الزتونية جنباً لجنب، وربما سبقتها شوطاً بعيداً، فأصبحت ـ الآن ـ مقيدة الرجلين ترى شقيقتها تسير عدواً ولا تقدر على النهوض للسير وراءها.

إنني ـ يا سعادة المقيم ـ من متخرجي هذه الكلية الذين تغذوا من لبانها وكرعوا في حياضها، ومن المطلعين على تاريخ سير العلم بها منذ أقدم أزمنته إلى الآن، فإن رأيتني أبكي عليها وأندب ضيعتها فإنني أبكي على مجدها السالف الذي لم يكن لكم يد في ضياعه، بل سعيتم جهدكم وطاقتكم في استرجاعه، فأبى الجامدون من أهلها أن يتبعوا إرشاداتكم أو يوافقوا رجالكم على أفكارهم الإصلاحية، سل المسيو ميرسي الذي شاهد تكوين جنين المجلس العلمي عن

الصعوبات التي لقيها مبتكرو ذلك المجلس، وسل غيره من عظماء الرجال الأحرار تعلموا أنني غير مجازف فيما قلته.

إذ لم تدخل الإصلاحات اللازمة للكلية القروية وباقي المعاهد بالمغرب، ولم يوف القائمون بالتعليم أجوراً كافية، فلتتيقنوا أنه في أقرب وقت يتقوض صرح العلم وتترك معالمه، وذلك ما لا ترضونه قطعاً ولاترضاه حكومتكم الساهرة على حفظ المدنية الشرقية.

أرجو يا جناب المقيم أن تكلفوا حبيبكم المسيو ميرسي بدرس هذه المسألة، وأنا الكفيل بأنّ ما يرفعه لكم من التقارير في شأنها يهولكم كثيراً.

وإنني مستعد لأن أقدم لجنَابِهِ جميع الارشادات التي يتوقف عليها، خدمة لديني الذي أرى أن لا حياة له بغير العلم، وخدمة للحكومة التي أتمنى أن يكون لها شهرة في العالم بالسير في نظام الأقطار المحمية بها على النهج السوي والصراط المستقيم.

وما شرحته من زهادة رواتب المدرسين، هو بعينه موجود بالنسبة لأئمة المساجد والمؤذنين، وعسى أن تنظر لهم إدارة الأوقاف مخرجاً من المأزق الضيق الذي هم فيه، وتضيف هذه الحسنة لسجل حسناتها الكثيرة.

* * *

هذه أيها الرجل العظيم الأصول الأربعة التي أشرت إليها في طالعة خطابي شرحت بعض أدوائها، ولو أردت أن أستقصيها لكلت النفس وضاق الطرس.

وهناك مسائل لا تقل عنها أهمية يجب أن يلتفت إليها وتمد لها يد المعالجة، منها مسألة المعارف العصرية، إن حكومة الحماية قد بذلت المجهود في تأسيس المدارس وتشييد المعاهد العلمية، وخصصت من الميزانية جزءاً غير قليل للنفقة على ترقية المعارف، فهي ـ من جهتها ـ قد قامت بما يجب عليها، إما من جهة الأهالي الذين كان يجب عليهم أن يقدموا فلذات أكبادهم للارتواء من تلك الحياض، فقد رأينا تقاعساً عظيماً وإحجاماً جسيماً لم ندر السبب فيه، فإن كان لنقص رأوه في برامج التعليم فكان من حقهم أن ينبهوا عليه، وإن كان تكاسلاً أو

تثاقلاً فليعلموا أنهم قد أضاعوا مستقبل أولادهم وحرموهم من الخيرات بمقدار ما تباعدوا بهم عن ولوج ساحات المعارف.

أما أنا فالملاحظة الوحيدة لي على نظام تلك المعاهد التي أُجِلُّها وأكبر أعمالها هي عدم إعطاء اللغة العربية لغة الدين والبلاد ما تستحقه من كامل العناية.

ليس السبب في ذلك احتقار الحكومة لها أو إرادة القضاء عليها، إذ هي أعقل من أن تجني على لغة الدين الذي تكفلت بحفظه ورد كل يد عادية تشير إليه، وإنما أتى التفريط ـ أولاً ـ من عدم انتقاء الأساتذة ذوي الكفاءة والخبرة والتضلع في هذه اللغة، وثانياً من جناية التلاميذ على أنفسهم، فإننا نرى التلميذ أول ما تظهر له بارقة من بوارق التحصيل، يشهر حرباً عواناً على لغته ولغة آبائه ودينه ووطنه، لا يخُط بها كتاباً ولا يحسن بها جواباً، وهذا أمر مشاهد للعيان، لا يقام عليه دليل ولا برهان، فإن كانت الحكومة ترى من الحكمة الإبقاء على اللغة العربية فلتوكلها لأمانة أساتذة ماهرين، ولتربية التلاميذ على احترام لغتهم التي إذا أضاعوها أضاعوا كل شيء.

ومنها افتقار البلاد إلى جمعيات خيرية تقوم بإسعاف المحتاجين وسد خلة العاجزين، إذ حبس المساكين بهذه البلاد لا يقوم بكل حاجياتهم، كما أنها مفتقرة إلى جمعيات أدبية تقوم بخدمة لغة البلاد وإحيائها بكل الطرق الموصلة لذلك، ربما تقولون إن هذا حق من حقوق الأمة فلو طلبته من الحكومة لَلبّتْ طلبها، فأجيب سعادتكم بأن الأمة اليوم لا تزال على أبواب الرقي ولا زال جل أفرادها يجهلون الواجبات التي لهم والتي عليهم، ولا أستحيي أن أقول لكم إن السواد الأعظم منهم يعتقدون أن الخوض في مثل هذه المشاريع الأدبية ربما كان من الممنوع، أو مما لا تود سماعه آذان الحكومة، مع أن امتثال هذه الجمعيات لم تحرم منها أية أمة من الأمم حتى المستبدة تمام الاستبداد.

وحكومة مثل الحكومة الإفرنسية التي هي وليدة الحرية، لا يضرها أن تشرح للمتعلقين بأذياها أنها لا تعارض في أمثال هذه المشاريع فقط، بل تنشطها وتعضدها وتحوطها بتمام الرعاية.

وحبذا لو تتألف جمعيات من هذا النوع الذي أشرنا إليه، ولو تحت رياسة أفاضل المستعربين الأفرنسيين الذين لهم الفضل في القيام بخدمة اللغة العربية.

ومنها خلو القطر من الجرائد العربية، التي أصبح وجودها اليوم عنواناً على رقي الأمة وعدمها علامة على انحطاطها.

إنني شخصياً أرى أن كثرة الجرائد في بلاد لم تزل حديثة عهد بالحضارة مضرة بمصالح تلك البلاد، لا سيما إذا اشتغلت بسفاسف الأمور وتركت الصالح العام، ولكن عدمها بالكلية يدل على سبات الأمة وعدم استعدادها لمجارات الأمم الحية.

إن المغرب ـ بفضل الله ـ ليست له مشكلة سياسية كبرى تشتغل الجرائد بالمناقشات فيها، وغاية ما يرجوه هذا القطر أن تكون له جرائد وطنية تشتغل بالمسائل التي تهم البلاد، وترشد الأهالي إلى الطريقة المثلى التي يجب أن يسيروا عليها في تجارتهم وصناعتهم وفلاحتهم، وتقوم من جهة أخرى بشرح أحوالهم الاجتماعية للحكومة وبيان ما يضرهم وما ينفعهم، فلا تخفى بعد ذلك على الحكومة خافية من أحوال رعاياها المخلصين.

ولو كان للبلاد جرائد حرة المنزع تُسمع الحكومة أنين الأهالي وتشرح لها ما يقاسونه من آلام الضيق والحيف، لما وقع طرف مهم من البلاد في حماة الثورة التي أكرر لمجادتكم القول ـ ثانياً ـ بأن السبب الوحيد فيها هو جور الولاة وعتوهم.

ومن المسائل المهمة التي لا يحسن غض الطرف عنها مسألة القضاء والفتوى، وهما في الشريعة الإسلامية من الأهمية بمكان، بالغت الشريعة في وضع الشروط والقيود لارتداء الشخص بتلك الحلة الفاخرة، ومن أهم تلك الشروط العدل في الأحكام والتنزه عن الرذائل وسفاسف الأمور.

وبعد أن كانت تلك الولاية السامية لا يتوصل للتربع فوق منصتها إلا من أهلته معارفه ودينه، أصبحت اليوم مبذولة لكل خاطب كفؤ كان أو غيره، فشوه بعض من لا خلاق لهم وجهها الجميل، وكانوا بعلمهم الذي تبعد منه الشريعة

بمراحل، سبة على الإسلام وسبباً في نفور كثيرين ممن يجهلون حقيقة سر أحكامه.

إنني أعرف أن وقوف رجال فرانسا أمام هذه المسألة كوقوفهم أمام كل مسألة دينية، فذنب القضاة محمول على كاهل العدلية الإسلامية التي أفرطت كل الإفراط في ولاية غير الأكفاء، وإننا بفضل أن تتداخل الدولة الحامية في أمثال هذه المسائل الحيوية، وأن لا تكل أمورها لمن لا يحسن تدبير أمور معاشه فضلاً عن تدبير أمثال هذه الأمور العظيمة، هذا ما يتعلق بالقضاء أوْمأت لحالته المحزنة بغاية الإيجاز، تاركاً تفاصيله للمشاهدة المحسوسة.

أما الفتوى فقد أصبحت نقطة سوداء في جبين الشريعة، ولم يبق لها معنى إلا ابتزازاً لأموال وتحريف النصوص الشرعية تبعاً للأغراض والشهوات، زيادة عن كون الوظيف الذي كان يقوم به المفتي وهو مراقبة أحكام القضاة، قد نصبت له الحكومة مجلس الاستيناف الأعلا، فلم يبق إلا القضاء على جرثومة داء الفتوى الفتاك، وبذلك ينجو من مخالب المفتين مئات الأيامى وألوف الضعفاء، وتتوفر على الأمة أموال كانت تصرفها على هؤلاء المفتين دون طائل، وقد تنبه غير واحد من ملوك المغرب الأقدمين إلى مفاسدهم فكانوا تارة يحصرون أفرادهم في عدد معين، وأخرى يقضون عليهم بالكلية كما فعل السلطان مولانا سليمان.

ومنها توسيع نطاق المجالس البلدية، والسعي في أن يكون الرجال المنتخبون للذب عن المصالح أكفاء للقيام بما طوقوا به عارفين بالنافع والضار، أما الطريقة التي يسير عليها الانتخاب الآن فلا تأتي بالنتيجة المقصودة، ضرورة أن المنتخبين بالكسر لم تراع فيهم الشروط اللازمة، فقد شاهدت بعيني ـ يا جلالة المقيم ـ أناساً عديدين دعوا للانتخاب وهم أميون لا يحسنون رقم أسمائهم، والكثيرون منهم ينيسبون غيرهم في التصويت، وهذا من أقبح ما يرى ويسمع، أعضاء منتخبوهم بهذه الصفة ربما خانتهم صفتهم عن تمثيل رغائب الأمة وهذا الذي أومأت إليه، دون ما يقع من التلاعب من بعض أفراد لا ذمة لهم ساعة الانتخاب، من تكليف هذا بانتخاب فلان، وإغراء ذلك بالتصويت لأخر، والتحزب ضد بعض الأعضاء الذين يدافعون عن الحقوق بكل نزاهة وصراحة، وتنبيه المنتخبين إلى عدم

تجديد ثقتهم بهم، إلى غير هذا مما كان يراه الإنسان ولا يقدر أن يفوه في شأنه بكلمة انتقاد.

وإنني أحمد الله على هذه الساعة التي أمكن لقلمي أن يصور فيها تلك الحالة لممثل الدولة الحامية التي هي من ألد الأعداء لكل متهاون بالقوانين ومتلاعب بالنظام، ولو لم يكن من محاسن أيام المسيو ستيغ إلا هذه المأثرة لكفت.

وكل ما قلته في شأن المجالس البلدية أقوله في شأن المجلس الشوري الأعلا بالنسبة لأعضائه الوطنيين.

إن هذا المجلس الذي تجري فيه أمور هامة تتعلق بالوطنيين وغيرهم ينبغي أن يكون أعضاؤه في غاية التيقظ والنباهة، وممن حنكتهم التجارب واشتهروا بين الأمة بأعمال تؤهلهم لتمثيلها والذب عن رغائبها، ورجال كهؤلاء يخدمون أمتهم وحكومتهم في آن واحد، أما إذا كانوا بعكس هذه الصفة فضررهم عائد على الشعب وعلى حكومته كذلك: يضرون الشعب من حيث كتم رغائبه التي لا يجدون لساناً بليغاً يعبر عنها، ويضرون الحكومة بخطئهم في تصوير آمال الأمة التي تبني أحكامها عليه.

وما دام النبغاء في المغرب الذين يشرحون آمال الأمة وآلامها قليلن، فالواجب على الحكومة أن تنتقي الأمثل فالأمثل، إلى أن تخرج لعالم الكفاءة رجالاً بكل معنى الكلمة.

ومنها عدم الاقتصاد في بعض المصارف التي ربما لم تكن البلاد مفتقرة إليها، فينشأ عن ذلك تبذير أموال عظيمة كان الأليق أن تصرف فيما هو أهم، ومن ذلك تشييد الصروح الشامخة لبعض المصالح الإدارية التي لا تناسب حالة البلاد المالية، ومضاعفة جيوش الموظفين الذين يستحوذن على معظم مداخل الميزانية، مع ظهور أن النصف منهم ربما كان فوق الكفاية، سيما في هذا الوقت العسير الذي لا تقدر الأمة فيه على تحمل ضرائب جديدة باهظة، لما تجلى على العالم من أزمة الصرف وارتفاع الأسعار ارتفاعاً باهظاً ضر بالفقير، وضعضع ركن مالية الغني الكبير.

ورجل ناقد بصير كحبيب الأمة المسيو ستيغ، ولا يجهل ما تصير إليه حالة البلاد إذا حملت من الجبايا فوق مقدرتها وطاقتها، وصرف معظم ما يجبى منها على فئة كان عليها أن تضرب في الأرض ملتمسة رزق الله، لا أن تكون عالة على الأمة.

قد انقضت أيام الفخفخة كما عبر عنها جنابكم في إحدى خطبه، وحان وقت الجد والعمل، وإن الأمة من أكبر كبير إلى أصغر صغير معلقة على وجودكم آمالاً عظيمة، فنسأل الله أن لا يخيب ظنونها وآمالها.

ومنها إصلاح السجون، لا يعزب عن فكرك السليم أن الأمم المتمدنة لا تنظر اليوم إلى الأشقياء ـ الذين قضى عليهم سوء الطالع أن يكونوا أحلاس السجون ـ بالعين التي كان ينظر لهم بها وقت أن كان السجين يؤثر سكنى القبور على تلك السجون التي هي أشبه بالكهوف والمغارات.

ومهما ازدادت الأمم تقدماً في سبل الحضارة إلا وازدادت عنايتها بالسجون، وفي مقدمة تلك الأمم الأمة الفرنسية النبيلة التي قامت صروح حريتها على أنقاض حصن الباستيل.

إن حالة السجون يا جلالة المقيم وإن تحسنت حالتها بعد الحماية نوعاً ما، إلا أنها مع ذلك لا تناسب ترقيات هذا العصر، فمآكل من بها يرثى لها، ورثاثة ملابسهم وفرشهم يؤسف لها غاية الأسف، أما القسوة التي يتخذها ضدهم الموكلون بهم فحدث عن بلوغها النهاية ولا حرج، حكى لي من أثق به أنه ذهب لمشاهدة قريب له بسجن عين مؤمن فمنع من التمتع بمشاهدته أياماً عديدة، ولما أعيته الحيلة جثا على ركبتيه أمام بعض موظفي ذلك السجن وأرخى العنان لعبرته، فكان جواب ذلك الموظف أن قال له ما أخالك إلا مجنوناً، أتظن أن من يساق إلى هذا السجن يبقى له أو لأهله أمل في حياته، اذهب لحال سبيلك وعده ـ من الآن ـ في صف الأموات.

ومنها إقرار الحكومة الحامية لبعض العوائد التي كانت جارية في البلاد مع اصطحاب الشرع والعقل على استقباحها واستنكارها، ولم يكن لها من سبب إلا

قبض اليد الجائرة على مخانق العباد.

وذلك كمسألة التأديب بالضرب في محاكم الباشوات والقواد بمرأى من الجمهور.

إن هذه المسألة التي وقع إبطال العمل بها في كل الأقطار لم يزل العمل جارياً بها في هذه العاصمة الفاسية، التي لا يأمن الإنسان فيها على نفسه من تلك الأشنوعة بأدنى تهمة وجهت عليه.

وبمجرد أن تسمع سعادتكم ما أمليه عليها مما شاهدته بعيني تعلمون مبلغ السبة التي ستبقى عالقة بهذه المدينة الفيحاء.

كنت في إحدى الأيام بمحكمة الباشا فأتى إليه بامرأة اتهمت بسرقة، وبعد استنطاقها أنكرت ما اتهمت به فما كان من سعادة الباشا إلا أن أمر بضربها بالسياط على أشنع حالة أمام جماهير الخلائق، وأثناء العملية أتت المصادفة بسائح أنجليزي وقرينته لتلك المحكمة، وما أن وقع بصرهما على تلك المرأة الصريعة حتى كادا أن يغمى عليهما وأبرقا وأرعدا ثم خرجا ساخطين شاتمين، ولما سألت الترجمان الذي كان معهما عن أفظع ما نطقا به حالة غيظهما أجابني بأن السيدة قالت لقرينها في سياق استهجانها لما رأته: لا أعلم ـ الآن ـ بقعة من الأرض مهما بلغ توحش أهلها يجري فيها مثل ما رأينا وقوعه بأعيننا في عاصمة اشتهر أهلها من قديم بمثافتهم للحضارة، وأبشع من ذلك وقوع هذا الأمر الفظيع في عصر الحماية الفرنسية التي محت كثيراً من المظالم الجارية بهذه البلاد، ثم غيرت لهجتها وقالت له بصيغة المتهكم: إننا لو أصحبنا معنا آلتنا الفوتوغرافية وخلدنا صورة هذا المنظر البهيج لكان أجمل تحفة نقدمها لأصدقائنا ومواطنينا الأعزاء.

ولا يخفى على جنابك الكريم أن نشر أمثال هذا بالبلادات الأجنبية مخل بشرف هذه المدينة ومخل بالسياسة الحميدة التي تريد الجمهورية الفرنسية أن تسير عليها في هذه البلاد.

ومنها احتقار بعض صغار الموظفين الفرنسيين للأهالي ومخاطبتهم لهم بأقبح صيغ الشتم والسباب، والحق أقول أن غالب ما يقع هو من صغار الموظفين

الذين ليس معهم من العلم ما يؤدبهم ويهذب أخلاقهم، وذلك كتراجمة بعض الإدارات وكعملة البوسطات وسماسرة بعض شركات النقل ومن هم على شاكلتهم، والأهلي البسيط لا يفرق بين مراتب من أهانه ويرى أن الإهانة إنما لحقته من صفة كونه وطنياً مسلماً.

شاهدت يا سعادة المقيم، حوادث من نوع احتقار الأهالي لا تدخل تحت العد، وإنني أمثل لك باثنتين منها: الأولى كنت في بعض الأيام بإدارة الأحواز وهي غاصة برجال البوادي، وهناك ضابط مترجم صغير السن والرتبة هو المتولي لفصل القضايا المهمة بمحضر القواد، فلم يقع بصري عليه إلا سابّاً شاتماً قادحاً مهيناً للوجوه والأعيان ساخراً بهم، وكان يؤديه الحال ساعة بعد أخرى لصفع هذا ولكم ذاك أمام تلك الجماهير من الناس، ولا يخفى على جنابك الكريم ما يثير ذلك من الأحقاد في النفوس، الثانية: دخلت يوماً لبريد هذه المدينة بقصد شراء طوابع بوسطية، فوقفت أمام الموظف المكلف بذلك وطلبت منه ما أردت، فاستغرق في الحديث مع بعض رفاقه ساعة كانا في أثنائها يلمحاني بأعينهما ساخرين، ولما ضقت ذرعاً من تلك المعاملة المشينة خاطبته بلهجة تَشفّ عن الاستياء، فهز كتفيه وأشاح بوجهه وقال لي لا بد أن تقف ربع ساعة أخرى جزاء لك على تأففك، فبقيت سجيناً لهذا العامل الصغير حتى انتهت المدة التي حددها لإيقافي على التدقيق، وذهبت لحال سبيلي وأنا أستمطر اللعنة على الحاجة التي أوقفتني أمام ذلك العامل بصفة الذليل المهين.

إنه من السهل على الحكومة أن ترشد موظفيها إلى حسن معاملة الأهالي بإصدار إنذار عام لهم، وبجعل كناش بكل إدارة لتقييد الشكاية بكل موظف تجاوز حدود وظيفته وأساء معاملة أخيه الوطني، وبذلك يرتدع الموظفون عن غيهم وتذهب الأسخام والحفائظ من الصدور.

ومنها التلاعب الواقع ببعض المستشفيات من مقابلة المرضى بما لا يليق بحالتهم من سوء الأخلاق ولا سيما الفقراء منهم، ومن مطالبة بعضهم بأداء ثمن الأدوية الذي لم يسمع أغرب منه، إذ مصارف المستشفيات هي أول ما يرقم في ميزانية البلديات، أما عيادة المرضى في بيوتهم فالضريبة الموظفة عليها ليس لها

حد تقف عنده، بل ذلك تابع لتقدير الأطباء أنفسهم الذي يعتمدون في تقديراتهم على حرز مالية الشخص المريض.

ومما يقع بالمستشفيات هتك حرمات من يفد عليها من النسوة الصينات، بمغازلة بعض خدمتها من شبان الأهالي الطائشين وتكشفهم عن محارمهم التي لا تبيحها لهم شريعة البلاد، وقد أصبح جل النسوة اللائي يذهبن للمستشفيات يحسبن في عداد الساقطات، ولا أسهل من رتق هذا الفتق بأن يخصص بكل مستشفى سيدات فرنسيات تقف مع رئيس المستشفى ساعة مباشرته للعمل بقسم النساء، بدلاً من الشبان الذين لم يربّوا على الحشمة وحفظ ناموس الأدب والمروءة.

هذه ـ يا جلالة المقيم ـ نبذ من أدواء المغرب التي يشكوها لطبيبه أومأتُ إلى بيانها بغاية الإيجاز، إذ تفاصيله تحتاج إلى تقارير واسعة الأطراف ضافية الذيول، لم أتخير لها معنى رقيقاً ولا انتقيت لها جملاً بليغة، بل خطتها يراعتي طبق ما أملاه علي الوجدان، وإن الأمة المغربية لمرتقبة بفارغ صبر ما ستسنّونه من النظامات العادلة لمستقبلها، واضعة فيكم من الثقة ما لم يحرز عليه ممثل من ممثلي فرنسا.

وكان من أجلى الأدلة لهم على حسن نواياك، ارتداؤك برداء البساطة في سائر شؤونك وتباعدك عن الظهور بمظاهر الفخفخة التي يتحاشاها عظماء الرجال.

أرجو من جنابك الفخيم أن تمعن النظر في خطابي هذا، الذي أشهد الله على أنني لم أتخط فيه جادة الحقيقة، وأن تجري الأبحاث اللازمة عن كل جزأية من الجزءيات التي تضمنها، لتتضح لك الحقيقة، وتعلم أن الأمة كان مضروباً بينها وبين المفاهمة مع ممثل الدولة الحامية لها بسور من حديد.

وها أنا أنتظر جوابكم الممتع، لأرقص فرحاً وسروراً إذا تبين لي من ثنايا سطوره أن خطابي صادف منكم قبولاً حسناً، ووقع منكم موقعاً جميلاً، وتقبل في الختام فائق احترام المحب المخلص: أحمد بن محمد النميشي.

«مجلة كلية الآداب» الرباط سنة 1993 ع 18